التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 407
تموز: 2019

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

ملف الراحل عبد الرزاق الصافي

8- "ابو مخلص" ....ارح ركابك .....الثقافة الجديدة
10- الرفيق العزيز عبد الرزاق الصافي (ابو مخلص) .. وداعا! ..... اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي
11- عبد الرزاق الصافي في الذاكرة ..... مفيد الجزائري
13- معلّم القيم السامية ! ..... رضا الظاهر
16- ذكريات منعشة مع الرفيق الفقيد عبد الرزاق الصافي ..... كاظم حبيب
19- عبد الرزاق الصافي ، المثقف التقني ..... ياسين النصير

مقالات

24- الانتفاضة الجماهيرية في السودان وآفاق تطورها ..... فتحي الفضل
29- الوضع السياسي العراقي بعد عام من الانتخابات النيابية 2018 ..... أثير ناظم الجاسور
37- مصلحة الطفل المحضون وحق الأبوين في الحضانة ..... سالم روضان الموسوي
42- الرأسمالية المعولمة والنزعة الوطنية الديمقراطية ..... لطفي حاتم
46- ابرز المعوقات التي تواجه قطاع التربية في محافظة ذي قار ..... شهيد الغالبي
51- قراءة في كتاب "الجيش والسياسة... إشكاليات نظرية ونماذج عربية" ..... هاشم نعمة

نصف قرن على رحيل الدكتور عبد الجبار عبد الله

62- مساهمات د. عبد الجبار عبد الله العلمية (1911 - 1969) ..... برنارد هوروتز، جيمس أوبراني
67- من أجل جامعة زراعية عراقية متطورة..هنا بعض من الحلم الذي أراده الفقيد الكبير لجامعاتنا ..... ابراهيم اسماعيل
77- د.عبد الجبار عبد الله ، دور ريادي في إرساء وتطوير البحث العلمي في العراق ..... ابراهيم الخميسي
87- التأثيرات العلمية لأبحاث عبد الجبار عبد الله ..... رامز غريب

نصوص قديمة

90- من أجل جبهة وطنية موحدة حقيقية ..... عبد الرزاق الصافي

نصوص مترجمة

106- كن معاديا للفاشية في اوربا المعاصرة..بقلم : ألدو تورتوريلا ..... ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

114- حوار مع الاقتصادي باسم جميل انطوان

أدب وفـــــن

كلمة"أدب وفن"

122- نجمة الميزان ..... أحمد مهدي الزبيدي

في الحدث الأدبي والفني

124- ناعيا رحيله المحزن ، فوزي كريم في ذمة الخلود ..... اتحاد الأدباء

دراسات نقدية

125- ثلاثية القلق والعزلة والكآبة :فوزي كريم ..... فاضل ثامر

139- رماد يحيى الشيخ ... سيرة التأمل والتغيّر ..... جاسم عاصي

شعر

156- العشرون ..... حسن البياتي

قصص

158- بانتظار الموت في فندق ..... بقلم: إيتالو كالفينو، ترجمة : جودت جالي

164- تتمة قصة (يأتي ولا يأتي) ..... سلام حربه

فنون

166- (على اساس الجنس)..صراع المرأة من أجل المساواة ..... نزارعبد الغفار السامرائي

لوحتا غلافي العدد للفنان كاويان محمود

شمس تموز تشرق أبدا

مع صدور هذا العدد (407) تكون القوى الوطنية والتقدمية ومعها الملايين من ابناء شعبنا قد احتفلت بالذكرى الحادية والستين لثورة 14 تموز 1958 المجيدة. الحدث الاهم في تاريخ بلادنا المعاصر، والذي دشن دخول العراق خلال سنوات قليلة الى مرحلة من التقدم الاجتماعي العاصف لم تشهدها اي حقبة اخرى في تاريخه. ان ثورة 14 تموز، على الرغم من انها بدأت بتحرك عسكري، يذكر بالأعمال الانقلابية التقليدية إلا أن هذا التحرك كان بمثابة الفتيل الذي أطلق النهوض الثوري لملايين العراقيين والعراقيات، الذين كانوا متحفزين ينتظرون الفرصة السانحة لفرض ارادتهم في التغيير السياسي والتحويل الاجتماعي.

ان هذه الثورة لم تقتصر على تغيير مجرد في نظام الحكم فقط بإلغاء الملكية واعلان الجمهورية، بل غيرت ـ الى حد بعيد ـ مِن راهِن ومصائر طبقات وفئات وشرائح اجتماعية واسعة. فقد ازاحت الثورة السلطة السياسية والاجتماعية لكبار الاقطاعيين والمشايخ وملاك الاراضي في الارياف والمدن، وحررت الملايين من الفلاحين بإلغائها نظام الاقطاع ونظام العشائر، وإصدارها لقانون الاصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958. فكما معروف، حين اندلعت الثورة غدا الإصلاح الزراعي مطلبا ملحا، وكان لا بد من إصدار قانون ينظم هذه العملية، التي كانت تطول اخطر القضايا في الريف، ونعني بها قضية تغيير شكل الملكية الزراعية وتصفية أسس النظام السابق. كما عززت الثورة من المواقع الاجتماعية للعمال والكادحين عموما وكذلك لشرائح المجتمع الوسطى والدنيا في مقابل ازاحة المرتبطين بالاستعمار من رجالات الدولة. ومن جهة اخرى تم تحرير الاقتصاد العراقي والعملة العراقية من ربقة كتلة الاسترليني وألغيت جميع المعاهدات الاستعمارية، واخرجت العراق من حلف بغداد، وحققت الاستقلال السياسي والسيادة الوطنية، واقامت علاقات واتفاقيات متعددة مع الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية، وتبنت سياسة عدم الانحياز في العلاقات الدولية. وفي تلك السنوات المعدودة ازدهرت الصناعة والاعمار وانتشر التعليم وبنيت المدارس والمعاهد والمدن والأحياء والبيوت واطئة الكلفة... الخ. وتوج نضال المرأة للتحرر والمساواة الحقيقية بإصدار قانون الاحوال الشخصية عام 1959.

يكاد قطاع واسع من المختصين والسياسيين والأكاديميين والباحثين وغيرهم ومن مختلف المشارب يتفقون على ان كل سنة من تلك السنوات المعدودة بمنجزاتها وإخفاقاتها، بوقائعها وأحداثها العاصفة يمكن ان تقارن عن حق بعقود بأكملها. وباستثناءات قليلة، فلا توجد طبقة او فئة اجتماعية لم تمسها عملية التغيير الثورية، وليس هناك جانب او ناحية من نواحي الحياة لم تتأثر بهذا التحول الثوري. ولكن الى هنا ينتهي اتفاق الآراء، ويبدأ التباين في تقويم الثورة وطبيعتها وتفسيرها وآثارها، ومن مرتكزات ومنطلقات ايديولوجية متناقضة، بين انصار الثورة وبين من ناصبها العداء.

لقد مضت 61 عاما على ثورة 14 تموز، وهو وقت كاف لتقويمها علميا ومنهجيا. لكن "نظريات" وأوهامٍ من ناصبوا ثورة 14 تموز العداء - ومعهم جميع المعادين لأي تغيير جذري - اذا ما محصت جيداً ستبدو قاصرة الى حد بعيد. فهي تغفل عمدا الاسباب الحقيقية الكامنة في البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حينذاك. وتهمل، عن قصد، البحث عن آليات نشوء وتطور الحراك الثوري لعدة عقود، وصولا الى نقطة الانفجار، وتتغاضى عن تاريخ الثورة الملموس وتناسبات القوى السائدة آنذاك. كما انها تضفي على الثورة طابعا ذاتيا مطلقا وارادويا، وتعتبرها خيارا تعسفيا كاسرا لمجرى الاحداث الطبيعي. ان ثورة 14 تموز لم تولد بمؤامرة عقدت خلف ابواب مغلقة، كما يعتقد البعض، بل هي نتاج صراع سياسي واجتماعي طويل.

ان اعداء الثورة - اي ثورة - لا يقيمون فرقا بينها وبين الثورة المضادة. فكلها بالنسبة لهم تجلب معها تكاليف غالية على المجتمع والأفراد. فأعداء ثورة 14 تموز يساوون بينها وبين ثورة الردة في 8 شباط 1963، ويماثلونها بانقلاب البعث الاسود الثاني عام 1968. نعم، ان هذه الانقلابات التي اتخذت مسمى "ثورة" لخداع الناس، بدأت وانتهت بدموية، وقلبت حياتهم الى جحيم. ولانسداد اي افق للتغيير نحو مستقبل افضل، نجدهم يسبغون على الماضي صفات وخصائص جميلة وخيالية، متمنين لو ان العهد البائد قد دام واستطال! ولا ينكر احد ان قسما من الاخطاء التي برزت في سنوات الثورة قد اثرت الى هذا الحد او ذاك بالكوارث اللاحقة، ولكن ان تربط كل هذه العقود الطويلة من التعاسة المتعاظمة والحرمان الواسع جزافا بثورة 14 تموز، فهذا امر آخر.

ان هؤلاء النقاد المعادين لا يدركون حقيقة ان التلازم والترابط الضروري بين التغيير السياسي الجذري والثورة الاجتماعية الاقتصادية - اي مسالة السلطة - لا يستلزم تطابقا زمانيا دائما او مستمرا ولا يشترط ابدا ثبوتا. فالتغيير السياسي قد يشهد تراجعا وتقهقرا بفعل طبيعة الصراعات والتناقضات الناشئة وطرق حلها. فيوم 14 تموز 1958 كان نهاية عهد طويل بتناقضاته وصراعاته متعددة الجوانب والمستويات وبداية لتناقضات وصراعات نوعية جديدة تتمثل بالتناقض ما بين قوى الثورة السياسية والاجتماعية والمدافعين عنها، وبين بقايا النظام الملكي والمتحالفين معهم من القوى الرجعية واليمينية - محلية ودولية - بالإضافة الى التناقض الاخر بين قوى الثورة المختلفة ومؤيديها انفسهم، وبالاسلوب الذي حلت فيه هذه التناقضات وضمن ظروف وعوامل موضوعية وذاتية متعددة، يكمن بالضبط بعض من اسباب كارثة 8 شباط الاسود، الذي حدد مسارا جديدا للصراع، اتخذ طابعا دمويا وقيامات وحروبا داخلية وخارجية لا تنتهي.

ان اهداف وشعارات وغايات اي تغيير جذري لن تجد تحققها الا بعد نضال طويل، متعدد الصُعد، قد يمتد الى سنين او عقود، تتخلله منجزات كثيرة وتراجعات متعددة وهزائم. كما ان دروس ثورة 14 تموز 1958 غزيرة سواء في اندلاعها وتطورها وأيضا في انتكاسها. وهذه الدروس مفيدة اليوم أيضا حيث تمر بلادنا في مرحلة انتقالية بالغة التعقيد والصعوبة واستثنائية، مرحلة تواجه فيها مهمات يندمج فيها الوطني متمثلا بتصفية مخلفات الدكتاتورية والاحتلال ومنتجاته، بالديمقراطي متمثلا باستكمال بناء العملية التي انطلقت بعد انهيار النظام الدكتاتوري في نيسان 2003 والتي يتعين ان تفضي الى بناء دولة مدنية ديمقراطية عصرية وعراق ديمقراطي فيدرالي موحد، بعيدا عن نظام المحاصصات الطائفية – الاثنية.

ستبقى ثورة الرابع عشر من تموز 1958 نقطة وضاءة في تاريخ العراق، ومعلما متميزا على طريق نضال شعبنا في الحرية والعدالة والمساواة والتقدم الاجتماعي والديمقراطية، برغم مآلها المأساوي، وما اكتنفها من اخطاء، وما واجهها من مؤامرات وضغوط.

المجد لثورة 14 تموز والخلود لقادتها وشهدائها الابطال.

أبو مخلص ... وداعاً

"أبُّو مخلص" .. أرح ركابك

ترى أي غمّ عميق ينقض علينا لفقد الاحباب. لقد أبت الايام الا ان تذكرنا، أنّ لغز الحياة يبقى أبداً ذئبا يترصدنا، وما نحن والاهل والرفقة الا مشاريع منية مؤجلة. في 14 أيار 2019 وصل إلينا الخبر الحزين، لقد غيّب الموت الشخصية الوطنية والشيوعية الرفيق (عبدالرزاق الصافي)، بعد ان تدهورت حالته الصحية قبل ذلك بأيام.''أبو مخلص'' ذاك الذي ظلّ مشدوداً لقيمه الوطنية والاممية، قابضا على جمرة مبادئه، وفيا لها عقوداً طويلة، في زمن عزّ فيه الالتزام. كان شيوعيا بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ سامية، كان شيوعياً بأخلاقه، بسلوكه، وبجوارحه. مستوعباً دوما في ذاته مُثل وقيم انسانِ المستقبل.

بتواضعه الذي طالما عهده الرفاق، غادرنا ''أبومخلص'' بهدوء وبلا وداع، وبرحيله فقدت الحركة الوطنية والشيوعية علما من اعلامها، وأحد كبار الحالمين بالوطن الحرّ والشعب السعيد، وخسرت الصحافة العراقية اعلاميا بارزا من الطراز الاول. عبدالرزاق الصافي شخصية مميزة بحقّ، مرّت بالكثير من التجارب، كانت حصيلتها تعميق التزامها فكرا، وتنظيما، وسلوكا اجتماعيا. لقد كانت شخصية متجددة دوما وبعيدة عن التكلس والجمود بالتزامها، بل كانت ملتزمة بروح الشيوعية الحقيقية وهي روح التجديد والتطور. كما انها كانت منفتحة في حواراتها وفي نقاشاتها وعلاقاتها وهذه ميزة ليست بالقليلة في ظروف شيوعيي البلدان شرق اوسطية، شخصية استمرت في ملاحقتها كل ما هو جديد وتعاطت معه بروح شفافة، مع وعي عميق لكيفية الاستفادة من النظرية في معرفة الواقع العراقي الملموس. فـ ''أبو مخلص'' لم يبتعد يوما عن قضايا وطنه وجماهير شغيلته وكادحيه.

''أبو مخلص'' ذلك النزيه والنقي بالصميم، عفيف اليد واللسان، الذي لا يتوانى ولا يتردد في مساعدة أي طالب. بل كانت له مكانة خاصة حتى عد خصومه الفكريين لاستعداده للحوار ولدماثة أخلاقه وتفاعله مع الافكار الاخرى. هو ايضا ذلك المتابع الدقيق بحرص شديد جداً. و الصريح الذي طالما أدخلته صراحته بمشادات مستمرة، فهو لا يتردد في نقد ما يراه يستحق النقد، متماديا فيه بإلحاح وعناد، فالحق عنده أحقّ أن يتبع. و شعوره العالي بالمسؤولية منعه دوما من الانكفاء امام أية مشكلة او قضية تواجهه، ومنعه دوما من النكوص مهما اشتدت العظائم.

ونحن نستذكر ''أبو مخلص'' نعرف أنّه مناضل مجرّب، وهذا ما برهنت عليه حياته فقناعاته خضعت باستمرار لامتحانات الزمن، ولمصاعب الحياة ودروبها الموحشة، وعنت

الانظمة الاستبدادية. لقد مرّ بامتحانات الفصل والمطاردة والاعتقال والتعذيب والسجن وأخيراً معاناة النفي والغربة. عاش أيام العمل السري والعمل العلني، كما انه عاش حياة النضال السلمي وكذلك كفاح الانصار المسلح. وقد اجتاز وتحمل هذه الاختبارات العسيرة بكل جدارة ونجاح.

كان الفقيد على الرغم من كونه خريج كلية الحقوق، وعلى الرغم من نشاطاته المتعددة والطويلة في جميع أشكال النضال الجماهيري، ذا حرفية اعلامية متقنة جعلت منه اعلاميا معروفاً بل ان ثقافته الموسوعية، والمنهجية الإعلامية الصحيحة صيّرته من اساتذة الاعلام ومن الرموز الثقافية العراقية. ولهذا عمل ''أبومخلص'' في المنابر الاعلامية المختلفة للحزب الشيوعي العراقي، حيث عمل في تحرير مجلة ''الثقافة الجديدة'' وجريدة ''الفكر الجديد'' وجريدة ''طريق الشعب''، والذي أصبح رئيس تحريرها منذ عام 1973 وحتى إغلاقها عام 1979. كما عمل محررا في إذاعة ''صوت الشعب العراقي'' الموجهة ضد انقلابيي 8 شباط.

ولكل هذا، وللخصائص الرائعة التي اثبتت جدارتها أمام كل معتركات العمل السياسي، احتل ''أبو مخلص'' موقعه اللائق في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، وتبوأ - عن جدارة - مواقع قيادية في الحزب لسنوات عديدة كعضو في اللجنة المركزية ومن ثم في مكتبها السياسي.

لقد ترك لنا الفقيد ارثا اخلاقيا، وسلوكيا، وثقافيا، وفكريا يمكن أن يفتخر به وجدير بأن يحتذى وأن يكون نموذجا في تربية الأجيال الجديدة.

رفيقنا العزيز ''ابو مخلص''، يا من كنت صوت شعبك وكادحيه ومثقفيه، وصورة حقيقية عن الوطن، وخير شاهد على ازمانه العاصفة، نحن احبابك واصدقاؤك، نودعك بأجمل الكلمات وأطيب الذكريات. لا نقول الا أرحْ ركابك يا رفيق، فكفاك أجيالاً محمولاً على الأخطار..

رفيقنا القدير..

نم هادئاً فنحن نعمل ونسهر..

(الثقافة الجديدة)

ايار 2019

الرفيق العزيز عبد الرزاق الصافي
(ابو مخلص) .. وداعا!

تنعى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي الرفيق العزيز عبد الرزاق الصافي، الذي كف قلبه عن الخفقان صباح اليوم عن عمر يناهز الثامنة والثمانين في احد مستشفيات لندن.

برحيل أبي مخلص يفقد حزبنا علما خفاقا من اعلام كفاحه الطويل، الحافل بصور الجسارة والتضحية من اجل قضية الشعب والحزب والطبقة العاملة وعامة الكادحين، ويودع رمزا من رموز مسيرته النضالية المضيئة، انضم اليها وهو لما يبلغ العشرين من العمر. وطوال سبعين سنة ظل منخرطا في حراكها المضطرم، ينهل من فكرها وتجاربها، ويخوض معاركها، ويشب ويتعلم ويتصلب في مدرستها الفريدة، ويكبر مناضلا وقائدا شيوعيا باسلا. وفي مجرى سنيّ الكفاح والعطاء والتفاني يصبح امثولة ملهمة في الصدق والوفاء والعفة والتواضع والامانة والنبل، وفي التزام المبادئ والقيم الشيوعية والاخلاقية السامية والاخلاص لها.

منذ اواخر اربعينيات القرن الماضي عرف الرفيق ابو مخلص النضال في ظروف العمل السري وانغمر فيه، وعاش حياة الملاحقات والسجون والمعتقلات. شارك في الحركة الانصارية، واحتل مواقع قيادية في الحزب – عضوا في اللجنة المركزية ثم في المكتب السياسي، وبقي سنوات طويلة مسؤولا عن اعلام الحزب وصحافته.

يغادرنا اليوم الرفيق عبد الرزاق الصافي، لكن مثله انسانا ومناضلا شيوعيا مقداما يبقى حاضرا معنا وفينا، ينير لنا الدرب ويلهمنا.

نقاسم العزيزة انسام زوجته واشقاءه واهله ورفاقه واصدقاءه الكثيرين أحزانهم.

ونبقى دائما نحفظ ذكراه العطرة ونستعيدها.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي
14 ايار 2019

عبد الرزاق الصافي في الذاكرة

مفيد الجزائري

لم اتذكر يوما الرفيق الصافي أبا مخلص إلا ووجدت نفسي ابتسم. هكذا.. تتسلل الابتسامة عفو الخاطر، على اطراف قدميها، وتتربع سعيدة على عرشها. ومعها يشيع الانشراح في النفس.

وهذا ما حدث حتى وقت كنا نتابع توديع جسد أبي مخلص أخيرا في مقبرة بلندن.

كنت جالسا في مكتبي بالجريدة، فتذكرت كيف رفعت رأسي مرةً قبل سنوات لأراه واقفا بطوله الفارع الى جانب كرسيي. مدّ نحوي بيمناه كتيبا صغيرا وهو يقول مبتسما: "صغير .. لكنه مفيد"!

القيت سريعا نظرة على الغلاف. لم يكن غريبا عليّ. تذكرت انني عثرت عليه أواخر التسعينات في دكان لبيع الكتب في سوق الحميدية بدمشق. تصفحته وقتها فلاحظت انه يضم الاساسيات الضرورية جدا في النحو والصرف، ووجدت ان سعره معقول جدا، فاشتريت خمس نسخ منه ، احتفظت بإحداها ووزعت البقية على رفاقي في الاذاعة (كنا حينها نبث يوميا من بلدة شقلاوة الكردية برامج اذاعة "صوت الشعب العراقي – صوت الحزب الشيوعي العراقي") وفي "طريق الشعب" التي كانت تصدر من هناك كذلك، مرة كل شهر.

اخبرته انني استفدت فعلا خلال عملي وغير مرة من هذا الكتيب البسيط والثمين. واخذت النسخة التي عرضها علي شاكرا وقائلا انني سأحتفظ بها: "فماذا لو ضاعت النسخة الوحيدة التي عندي او اصابها التلف؟". رد محتجا: "ولماذا تضيع او تتلف؟ احفظها جيدا وستبقى طوع بنانك". وابتسم من جديد وهو يمد يده مسترجعا النسخة (علمت لاحقا انه حملها الى رفيق آخر كان في حاجة الى مثلها).

***

كان ابو مخلص وهو يعيش معنا ويعمل حينا، او يقضي بعض الوقت بيننا في اعلام الحزب، زمن العمل الانصاري المسلح او في سنوات العمل الحزبي والسياسي والاعلامي في مقر الحزب في شقلاوة .. كان يتابع عملنا بدأب - قارئا ومستمعا ومناقشا وموجها.

حين تصدر الجريدة يقرأها من الألف الى الياء، ويؤشر كل ما يسترعي انتباهه من عناوين وعبارات وفقرات، وما تقع عليه عيناه من اخطاء لغوية او نحوية او املائية، ويسجل ملاحظاته على الصور وتصميم الصفحات .. الخ. وكان يحدث احيانا بعد انتهائه من ذلك، وبمبادرة منه، ان تبدأ "وليمتنا" المشتركة، هو ونحن المعنيين من الرفاق – نجلس على الارض او الى منضدة، ونفرش امامنا "صحن" الجريدة، ليباشر هو طرح ما لفت انتباهه، او أثار حفيظته، وينطلق التداول والنقاش.

وبالمثل كان يسعى للإنصات يوميا وبانتباه الى بثنا الاذاعي، بأخباره وتقاريره وتعليقاته واغانيه وبأصوات مذيعيه وإلقائهم وما يقعون فيه من اغلاط ، او ما قد يقع فيه المخرج أو

مهندس الصوت أو البث من عثرات فنية. ولم يكن نادرا ان يجري بعدها لقاء او جلسة استعادة مشتركة، تطرح فيها الملاحظات والانطباعات والافكار وتناقش، وصولا الى مقترحات وتوصيات للمعالجة.

كانت جلسات ولقاءات ممتعة. وكان الفضل في ذلك يعود اساسا الى أبي مخلص وملاحظاته وتعليقاته و"شقشقياته" والمعلومات الغزيرة المتنوعة التي يأتي عادة محملا بها، ويجود علينا بنثارها وهو يتحدث ويحاور ويعقب ويجيب ويسأل. كما يعود الى التوضيحات والتقديرات والاحكام في شأن القضايا السياسية المختلفة، التي نسمعها منه وهو من هو في قيادة الحزب.

كان ابو مخلص بالغ الحرص مهنيا، دقيقا في ملاحظاته بل و"دقداقيا" حسب تعبير بعضنا، يتابعنا ويلاحقنا منبها ومصوّبا في شأن كل خطأ نقع فيه. وحين كان بعضنا يتذمر من إلحاحه الزائد، كان يبتسم ويرد مذكرا بالتقليد الذي كان متبعا في الصحافة الامريكية في مراحل ازدهارها الاولى خصوصا، حين كان في كل صحيفة موظف يسمى "قرباج" لا مهمة له سوى متابعة العاملين وملاحقتهم لتأمين الانجاز المطلوب!

***

من أبي مخلص تعلمنا الكثير، ولعل من أهم ما تعلمناه ألا نكون راضين تماما عن عملنا وأدائنا حتى حين نحسنهما، وان نعود إليهما وندققهما مرة ومرة. ولا أنسى مثلا تحذيره المتكرر من ظاهرة تكاد تكون عامة عندنا حتى اليوم، ظاهرة العزوف بسبب الكسل او الاستعجال غير المبرر، عن مراجعة ما نكتبه حال الانتهاء من كتابته. فكثيرا ما ينجم عن ذلك مرور اخطاء غير مقصودة تسيء الى النص، بضمنها ما يتعلق باللغة والنحو والاملاء.

استرعى انتباهي واهتمامي شخصيا في أبي مخلص (وفي آخرين من قادة الحزب اتيحت لي فرصة التواصل معهم) انه بالكاد يفكر في نفسه، كان على الدوام مشغولا بغيره، بالرفاق الآخرين، بالحزب، بالناس، بالبلد ومستقبله، بالبشر، بالعالم.. وفي ما يخص البقية من الرفاق – خاصة من الشباب حديثي الالتحاق بالحزب، كان كمن يشعر انه مسؤول عنهم مباشرة. كان مثل الأخ الاكبر، الاكثر خبرة ومعرفة حزبية وحياتية، يتابع اخوته الاصغر فيسعد بجميل صفاتهم وتعاملهم ومبادراتهم، وينزعج حين يقصرون هنا ولا يجتهدون هناك ويجانبهم الانتباه والحذر في مقام ثالث او يتكاسلون في أمر ما.

واذا انزعج تحرك: فلا سكوت على ما هو سلبي!

وكان تحركه تحرك المنبّه، المبصر، الناصح، الموجه.

***

كان أبو مخلص محبا للحياة، مقبلا عليها وعلى متعها. لكن هذا الاهتمام لم يكن ليطغي على وعيه الضرورة الاولى، ضرورة حفظ الحياة اولا وإعادة بنائها بما يضع اوارها ومباهجها في متناول الجميع طرا.

كان في رؤيته وموقفه ايجابيا بمعنى الكلمة، عميق التفاؤل، دائم الاستعداد لاستقبال "عدوى" الفرح راسخ الايمان بأن في الحياة الكثير مما يمكن ان يسعد، وما يستحق ان يعيش الانسان لأجله. وان السعادة هي ما سيلوّن حال العالم اخر المطاف، طال الشوط ام قصر.

وتبقى ذكرى أبي مخلص الصافي "مبعث سرور"، وابقى شخصيا ابتسم عفو الخاطر حينما اتذكره.

معلّم القيم السامية !

رضا الظاهر

بينما بدا الأمل وهماً بالنسبة لكثيرين، حتى من غير اليائسين، ظل هذا الأمل سبيل عبد الرزاق الصافي الى ضياء ذلك النجم البعيد الذي واصل التطلع إليه طوال حياته، ومن أجله كرس كل طاقاته، منذ مطلع شبابه في كربلاء الحزن، مروراً بصعاب بغداد ومآثرها، وتحديات كردستان، حتى وحشة المنفى اللندني.

وبالنسبة لي، كما هو الحال مع كثير من رفاقي وأصدقائي من جيل السبعينات، كانت تجربة "طريق الشعب"، التي ترأس عبد الرزاق الصافي تحريرها منذ انطلاقتها علنية عام 1973 حتى اغلاقها عام 1979، تجربة متميزة. فنحن الذين بدأنا معاركنا من أجل الحرية والعدالة في ستينات القرن الماضي ، يوم كنا طلاباً نساهم بحماس وفاعلية في الاضرابات، كان العمل في "طريق الشعب" بالنسبة لنا مرحلة التأسيس الحقيقي لتاريخنا في الكفاح السياسي، والفكر التنويري، والابداع الأدبي والفني.

وكان المثال الذي قدمه أبو مخلص في محيط الجريدة وحياتها اليومية مثالاً ساطعاً، جسد سلوك القائد الشيوعي، والمثقف الألمعي، والانسان الرائع المفعم بالتواضع والود والأريحية والاهتمام بالآخرين والسؤال عنهم.

وهذا المعلّم، الذي كان يقدم لنا، نحن "شباب" طريق الشعب، خبرته في السياسة والثقافة والصحافة، خلق من سنوات "طريق الشعب" مرحلة لا أبالغ ان قلت أنها كانت الأهم في تاريخ حياتنا، وكان بيننا شعراء وكتاب وفنانون وصحفيون يسيرون بخطى واثقة في طريق الابداع، واحتل غير قليل منهم مكانة مرموقة ومؤثرة في الثقافة الوطنية العراقية. ولا ريب أن تأثيرات عبد الرزاق الصافي كان لها دورها المميز في هذه المسيرة.

ولم يكن أبو مخلص يكل من استعداده الدائم لـ "التدخل" في كل صغيرة وكبيرة، ولكن على النحو الذي كان يبهج العاملين معه، ويشعرهم بأنه المربي الذي يعلمهم بكل تواضع ومحبة، ويتعلم منهم هو الآخر !

وما أزال أتذكر، من بين أحداث كثيرة، يوم كلفني القسم الثقافي في الجريدة بكتابة مقال نقدي حول قصائد الشهر، حيث كان هناك تقليد نشر مقال (قرأت قصائد الشهر الماضي)، وكذلك (قرأت قصص الشهر الماضي)، وقد شعرت حينها بتردد من عظم المهمة، اذ لم أكن، بعد، قد امتلكت أدوات تعينني على أن أكون ناقداً لشعراء كان بينهم "كبار". غير أن أبا مخلص سرعان ما بدد مخاوفي، وحفزني على انجاز تلك المهمة. وبعد أن نشرت قراءتي لقصائد الشهر الماضي، وكان ذلك عام

1977، التقى بي "رئيس التحرير" في غرفته التي تشبهه في تواضع أثاثها، وهي غرفة صغيرة في الطابق الثاني من ذلك البيت الحميم الذي يقع في شارع السعدون، وناقش معي، بطريقة انتقادية محفزة، ما كتبته، وكان نقاشاً مليئاً بالحنو والمعرفة والحرص وروح الانفتاح.

واذ أشير الى هذا الحدث، فإنني أعرف ما فعله عبد الرزاق الصافي مع محررين آخرين في "طريق الشعب"، لا شك عندي في أنهم كان ينظرون اليه، كما كنت أفعل، باعتباره معلّماً ورفيقاً وصديقاً.

وما أزال أتذكر، أيضاً، من بين أحداث أخرى، اهتمامه الفائق بالمكاتب الصحفية (وقد كانت تجربتها مميزة في سنوات السبعينات)، حيث كان يناقش معي الكثير من الاقتراحات التي أقدمها (بحكم عملي مسؤولاً للمكتب الصحفي في منطقة الفرات الأوسط قبل تفرغي للعمل في الجريدة) ويضعها موضع التنفيذ، ويتابع، بقدرته النادرة على المتابعة، مسيرة هذه المكاتب وانجازاتها. وقد قمت بمرافقته في المشاركة في افتتاح كثير من الدورات الصحفية المنطقية، والاشرافات على المكاتب الصحفية المنطقية، حيث كان حضوره الفاعل عاملاً محفزا للمئات من العاملين في تلك المكاتب.

وبفضله، وبإسهام من الصحفيين المرموقين العاملين في القسم الثقافي (وكان معظمهم من الأدباء المتطوعين)، تحولت (صفحة الثقافة) في "طريق الشعب" الى محور من محاور الحركة الثقافية في العراق، وصارت، بمحرريها، العاملين (وعددهم الأقل) والمتطوعين (وعددهم الأغلب)، وبأفواج الكتاب والشعراء البارزين، ممن كان يسرهم ويشرفهم أن يجدوا ابداعاتهم وهي تحتل مكانتها اللائقة في صفحة الثقافة بـ "طريق الشعب". وكان أبو مخلص حاضراً في هذا، كما كان حاضراً في كل صفحات الجريدة ومفاصل عملها.

ويصعب على المرء أن ينسى تلك اللقاءات في "طارمة" حديقة الجريدة، أثناء تناول الغداء المتواضع، والأجواء المبهجة التي كان يشيعها رئيس التحرير. كما يصعب أن ينسى أيام الخفارات المسائية في مطبعة دار الرواد، الكائنة في بارك السعدون، حيث كنا (رئيس التحرير أو عضو من هيئة التحرير يرافقه سكرتير التحرير) نتابع المراحل الأخيرة من تحرير الصحيفة وتصميمها واعدادها للطباعة. ولم يكن يندر أن ينتهي بنا المطاف الى "همبركر" أبو يونان الشهير في الكرادة، حيث كان أبو مخلص "يعزمنا" على "لفة" من تلك الوجبة الشهية.

ولعل من بين الذكريات الطريفة جولات المشي على أبو نؤاس، خصوصاً بعد الظهيرة في الأيام الشتائية المشمسة، حيث البرتقال والخس والرمان، وكانت مما يفضله أبو مخلص، أما "الركي" فكان في موقع الصحيفة نفسها. وكانت تلك الجولات واللقاءات مليئة بأجواء المرح والحكايات الجميلة والنقاش الممتع.

وكان من بين ما اهتم به عبد الرزاق الصافي، أينما حل، سواء في سنوات الستينات، حيث عمل محرراً في اذاعة "صوت الشعب العراقي"، التي بدأت البث بعد انقلاب شباط 1963 الفاشي، أو

سنوات "طريق الشعب" في السبعينات، أو سنوات حركة الأنصار في كردستان في الثمانينات، حيث كان مسؤولا لإعلام الحزب المركزي، كان اعداده وتوزيعه كراسته الشهيرة في قواعد اللغة والإملاء.

أما سيرته التي أصدرها في كتابين، الأول حمل عنوان (من ذاكرة الزمن)، والثاني حمل عنوان (شهادة على زمن عاصف وجوانب من سيرة ذاتية) فقد كانت سرداً مشوقاً لأحداث هامة في مراحل تاريخية عدة. لكن يتعين القول إن الكتابين، على أهميتهما الفائقة، لم يتضمنا، على ما أعلم، العديد من تفاصيل التجربة الثرية لحياة أبي مخلص.

وعبد الرزاق الصافي، ابن العائلة الكربلائية الميسورة هذا، الذي كان بوسعه أن يعيش حياة مرفهة، كان يعود سراً، وبجواز سفر مزور، الى العراق، لينغمر في العمل السري، وهو يعيش حياة الكفاف لإنسان زاهد ..

أما بقاؤه، في أصعب ظرف، حتى اصدار آخر عدد من "طريق الشعب" في 31 آذار 1979، يوم الذكرى الخامسة والأربعين لتأسيس الحزب، وإفلاته من أيدي رجال الأمن الذين كانوا يلازمونه طيلة الوقت، فقصة من قصص بطولات الشيوعيين العراقيين، وهي ليست قصة البطولة الوحيدة في حياة أبي مخلص.

لقد كتب وقيل الكثير عن عبد الرزاق الصافي ومسيرة حياته .. وفي كل هذا الذي كتب وقيل صور موحية ملهمة، ودروس غنية، تجعل منه لا قائداً ورمزاً من رموز الحزب الشيوعي العراقي، ولا علماً من أعلام الصحافة في العراق حسب، بل، وقبل هذا وذاك: انساناً معلّماً.. فنحن الذين نشأنا في سنوات شبابنا على رفقته في مدرستنا الأولى "طريق الشعب" شهود على هذه الحقيقة الساطعة.

كانت مراحل حياة عبد الرزاق الصافي حركات تتنوع في سمفونية واحدة عنوانها: تجسيد القيم السامية..

ذكريات منعشة مع الرفيق الفقيد عبد الرزاق الصافي

كاظم حبيب

لم يأتِ خبر وفاة الرفيق أبو مخلص في لندن مفاجئاً لرفاق دربه النضالي، إذ كان في السنوات الأخيرة يعاني من أمراض عدة أنهكت جسده الذي تميز قبل ذاك بالعنفوان والرشاقة والقوة والحركة الدائبة. وكان من بين الرفاق الذين يعملون بصمت وهدوء دون إثارة الضجيج من حوله، وغالباً ما كان يجري اختياره من قيادة الحزب لإنجاز مهمات صعبة وخطرة يمكن أن تعرضه للاعتقال وما يرافق ذلك من تعذيب وإساءة وسجن بل وأحياناً الموت تحت التعذيب، كما جرى لعدد كبير من رفاق قيادة وكوادر وأعضاء وأصدقاء الحزب على مدى تاريخه في أعقاب الحرب العالمية الثانية حتى الآن. لقد كانت حياة الرفيق عبد الرزاق اليومية متحركة وسريعة لتنفيذ مهام حزبه وفي علاقاته الحميمة مع من حوله ومع الناس. كان يصغي لرفاقه والمحيطين به إذ كان يعتقد بأهمية ذلك لمعرفة ما يفترض أن يقوم به الحزب، إذ بدون مثل هذه العلاقة ينقطع حبل الحياة أو الحبل السُري الذي يربط الحزب بالشعب، وعندها يكون موت أي حزب دون حبل الوصل.

التحق عبد الرزاق الصافي بالحزب بعمر مبكر في مدينة كربلاء، وهي المدينة القديمة الناعسة على نهر الحسين وبين بساتين النخيل والبرتقال وأشجار التوت والتين والنومي حلو، مدينة الإله بعل ولهما اسم قديم أيضاً (نينوى). كان الصافي من أوائل الشيوعيين من رعيل الأربعينيات من القرن الماضي الذين التحقوا بالحزب في أعقاب الحرب العالمية الثانية، التي نشرت أجواء التفاؤل والديمقراطية في العالم لاندحار الفاشية على الصعيد العالمي. لقد ترك الصافي بالتحاقه بالحزب الشيوعي تأثيراً بيّناً وطيباً في نفوس عائلته وطلبة الثانوية والكثير من أهالي كربلاء ممن كانوا يهتمون بالحياة السياسية العراقية حينذاك. وكنت أحد الذين سمعوا به وتأثروا به أيضاً. ومازال في ذاكرتي حين كنت في الصف الأول المتوسط وكان أبو مخلص في الصف الخامس الثانوي، وكنا في مدرسة واحدة، أن رأيته يقفز من شباك غرفة مكتبة نادي الطلاب المطلة على الشارع العام ويركض بسرعة فائقة، ثم لاحظت خروج شخصين عرفتهما دون الحاجة إلى ذكر اسميهما، أحدهما من حزب البعث والثاني من حزب الاستقلال في المدينة، ولكنهما لم يلحقا به وعادا أدراجهما. كان ذلك عام 1951/1950. وكان سبب المطاردة، كما عرفت لاحقاً، نقاش حماسي دار بين عبد الرزاق والشخصين الآخرين، وحين لم يفلحا في إقناعه بضرورة معاداة اليهود

العراقيين، بل أكد معاداة الصهيونية وليس اليهود عموماً، لجئا إلى العراك ومحاولة الاعتداء عليه. هكذا حين يعجز الفاشيون عن إقناع الناس بالكلام يلجؤون إلى الاعتداء، كما حصل في بغداد حين تم تقسيم فلسطين وبعدها. وبعد فترة وجيزة من ذلك الحادث طُعنت أنا بخنجر من أحد القوميين الشباب في المدينة ذاتها رغم أني كنت للتو قد التحقت باتحاد الطلبة وبحركة السلم العالمية وكنت أجمع التواقيع للحركة ولم يكن الموت بعيداً عني بسبب تلك الطعنة بالقرب من الرئة. ومازلت أتذكر حين طلبت توقيعاً من أحد عمال السمكرة على بيان لحركة السلم العراقية، وكان بجواره شخص آخر رغب في التوقيع أيضا، طلب مني أن أكتب بجوار اسمه مهنته "عامل عاطل باطل"!

من الأمور المهمة في تلك الفترات إن أي شخص يلتحق بحزب ما يؤثر مباشرة على جميع أفراد العائلة ولاسيما الشباب فيلتحقون أو يقتربون من ذلك الحزب. ولهذا كان الرفيق فهد يوصي الشيوعيين بأن يكسبوا أولاً عائلاتهم على جانبهم ليكونوا حماية لهم أيضاً وعوناً عند الشدائد. في عام 1954 تنشطت حركة السلام في العراق وتوسعت، فدعاني الرفيق أبو مخلص إلى المشاركة في سفرة كانت تنظمها كليات بغداد ضمن حركة السلام إلى منطقة في أبي غريب. وكان الفنان المسرحي الكبير والكاتب الفقيد يوسف العاني مشاركاً في هذه السفرة والتي بدأ ارتقاءً فوق إحدى السيارات بنكاته المحببة. شاركت في تلك السفرة، وكنت أحمل في جنبي خنجراً تعودت أن أحمله بعد ضربة الخنجر الأولى وأخبرت الرفيق أبو مخلص بذلك، فعاتبني قائلاً: "رفيق أبو جواد احنه جايين نشارك بسفرة أنصار السلام وانت تحمل خنجر بحزامك". شعرت حينها بالخجل والندم، وفتشت عن أي مزبلة أرمي بها خنجري، ووجدتها فعلاً وتخلصت منه.

بعد خروجي من سجن بعقوبة بتاريخ 1958/06/07 ذهبت مباشرة إلى عائلة الرفيق عبد الرزاق أفتش عنه لألتحق بالحزب ثانية. وقد عرفت إنه في الاختفاء. ثم حصل اللقاء، وبعد الثورة مباشرة تم تنسيبي وعبر الرفيق أبي مخلص للعمل في المجال الطلابي وعقدنا أول اجتماع موسع في دار في الأعظمية قاده الرفيق جواد كاظم وكان الرفيق عادل حبة وضياء العگيلي ونعمان ومجموعة طيبة من الرفاق في هذا اللقاء.

لقد احتل الرفيق أبو مخلص ولعقود مكانة متميزة في قيادة العمل الإعلامي في الحزب الشيوعي العراقي التي كانت تستوجب منه امتلاك معارف فلسفية واقتصادية واجتماعية ونفسية من جهة، ومعارف بالنظريات الأخرى إلى جانب الماركسية من جهة ثانية، وإلى رؤية سياسية ثاقبة وحصيفة قادرة على التمييز، ومعرفة وخبرة غنية بالصحافة وباللغة العربية في آن. وكان الصافي صاحبها. ومع أن قيادة الحزب كانت تشخص مشرفا من المكتب السياسي على نشاط الحزب الإعلامي، إلا إن الرفيق أبا مخلص كان دوماً هو المسؤول عن العمل الإعلامي في الحزب وعن جملة من النشاطات الفكرية والثقافية. كان الرفيق كثيف القراءة قليل الكتابة والنشر باسمه. إلا إنه وما أن حطَّ الرحال في لندن حتى بدأ بالنشر العلني وباسمه وفي صحافة غير صحافة الحزب أيضاً، وهي التي أسهمت بصدور كتابين له أشبه بالمذكرات.

تميز الرفيق أبو مخلص بالحيوية والنشاط والجرأة في مواجهة المخاطر، والالتزام بقرارات الحزب وسياساته بشدة، كما اتسم بالتواضع والرغبة في المساعدة. كان حلو المعشر، حاضر النكتة وسريع البديهة. إلتحقتُ بالحركة الوطنية العراقية في العام 1952 والتصقت بسياسة الحزب، وكنت على صلة بأبي مخلص، وهو الذي سلمني شرف عضوية الحزب ومنحني الحزب الاسم الحزبي "مخلص" واللذين أعتز بهما. عملت معه في مدينة البصرة بعد خروجي من سجن الحلة والتحاقي الإجباري بالطلبة المجندين في الشعيبة عام 1955، وكان معنا الرفيق الشهيد مجيد حسن من أهالي كركوك. كما عملنا سوية في هيئة تحرير الثقافة الجديدة وفي اللجنة المركزية ومكتبها السياسي. في نهاية عام 1984 سلمته مسؤولية الإعلام المركزي للحزب الشيوعي العراقي في "وادي لولان" بكردستان العراق بعد أن انتدبني الحزب كممثل له في هيئة ومجلس تحرير مجلة قضايا السلم والاشتراكية (الوقت).

كان الرفيق في فترة السبعينيات مسؤولاً عن إعلام الحزب وصحافته وبإشراف من الرفيق زكي خيري، عضو المكتب السياسي حينذاك، وكان مسؤولاً عن "طريق الشعب" وبجواره الرفيق فخري كريم (أبو نبيل)، وكانا صديقين حميمين، رغم التباين في الكثير من الأحيان بين وجهات نظريهما، كما كان مشاركاً في عمل الثقافة الجديدة ومطلعاً على جميع ما كان ينشر في المجلة من مقالات. كنت حينها عضواً في هيئة التحرير، وكانت معنا مجموعة كبيرة من خيرة أساتذة الجامعة والكتاب والمبدعين، منهم على سبيل المثال لا الحصر صلاح خالص وصفاء الحافظ ورحيم عجينة وهادي العلوي وهاشم الطعان ونمير العاني وشخصية فلاحية مناضلة من مندلي وآخرون، وكان سكرتير التحرير في الفترة الأولى الرفيق الفقيد شمران الياسري (أبو گاطع) ومن ثم الرفيق الفريد سمعان. كان الرفيق أبو مخلص يحضر اجتماعات هيئة التحرير بين فترة وأخرى، كما كان الرفيق زكي خيري يحضر هذه الاجتماعات أيضاً، كما كان الرفيق أبو مخلص والرفيق هاشم الطعان غالباً ما يكتبان المقالات الافتتاحية للمجلة، إلى جانب رئاسته لهيئة تحرير جريدة طريق الشعب. لم يكن الرفيق أبو مخلص كثير الكلام في الاجتماعات، حتى في اجتماعات المكتب السياسي حين كنت عضواً فيه، إذ كان غالباً ما يساهم في كتابة المحاضر والتهيئة للاجتماعات مع الرفيق عزيز محمد، وغالباً ما كان يكلف بكتابة بعض مسودات تقارير اللجنة المركزية.

بموته فقدتُ، وكثيرون غيري، صديقاً عزيزاً ورفيقاً أميناً ومجرداً من المصالح الذاتية والأنانية، مثقفاً عضوياً ثابتاً وقارئاً نهماً، امتلك الكثير من المعارف والمعلومات والخبرات النضالية والحياتية، كان صديقاً صادقاً وناصحاً أميناً وودوداً. كان عبد الرزاق الصافي شيوعياً صافياً مقتنعاً بالحزب وبالمبادئ التي اقتنع بها وناضل من أجلها، وترك آثاراً واضحة في إعلام الحزب وصحافته ومنها جريدة "طريق الشعب" و"الثقافة الجديدة" وكان شخصية متواضعة ومحترمة.

برلين في 02 /06 /2019

عبد الرزاق الصافي، المثقف التقني

ياسين النصير

خلال معايشتي عملًا مع الأستاذ عبد الرزاق الصافي، في مجلة "الثقافة الجديدة"، وجريدة "طريق الشعب"، وفي الحياة اليومية مع العاملين في هاتين المؤسستين الثقافيتين، ومن خلال علاقاتي معه ببعض الأمور كالإستشارة في قضية ثقافية، أو البدء بتحقيق مشروع للجريدة، وخلال تواجدنا اليومي في "طريق الشعب"، ومن ثم في لقاءات مختلفة في بغداد، ودمشق، وهولندا، ولندن، ولقاءاتنا في عدد من المنتديات والفعاليات والمؤتمرات الثقافية والحزبية، كونت عنه جملة ثقافية مركبة، فهو مثقف من حيث امكاناته الأدبية واللغوية، وهو إنسان اجتماعي من حيث علاقاته اليومية مع العاملين، وهو كادر سياسي مرن في التعامل، واضح في الأفكار، وهو كائن عملي لايترك جانبًا من مهنته كمثقف وسياسي عمل في حقل الإشراف كرئيس تحرير لطريق الشعب، من ترك أي مفصل مهما كان صغيرًا أو كبيرًا دون أن يبدي فيه رأيًا ايجابيا منطلقا من قاعدة السؤال الجدلي هو أن تبدأ اسئلتك مع الخصم من خلال أجوبته.

كانت البداية لمعرفتي به، في أواخر عام 1969، حيث جئت بغداد بمعية مجموعة من فناني البصرة، لتقديم أوبريت "بيادر خير" في بغداد، وكانت السلطة الثقافية قد دعت مجموعة الأوبريت لتقديمه في بغداد، ونتيجة لحساسية سياسية، استشرت الرفيق عبد الرزاق الصافي في الأمر، فوافق من حيث المبدأ على تقديمه في بغداد، قائلا المهم العمل وليس الموقف السياسي لنا، وكان ذلك عملًا بحاجة هذه المجموعة إلى الظهور، وتقديم عمل استثنائي لجمهور بغداد، دون أن يباشر أية وصاية على العمل، بل طلب ان يشاهد تمارينه في البيت الذي خصص لسكن العاملين. ولما انتقلت إلى بغداد نهاية 1970، وعملت مباشرة في مجلة "الثقافة الجديدة"، ازدات علاقتي به، وتعمق احساسي بأني أمام قائد شيوعي لا يختلف عنا نحن البسطاء في المعرفة والعلاقات، فوجئت في أحد الايام، عندما شاهدته ينظف المجاري الصحية في مقر "الثقافة الجديدة" بيديه، تحسست أهمية أن يكون الإنسان، مهما كانت مراكزه وثقافته، أن يكون ابن بيئته وينجز مهام عمله كلها، موفرًا بعض المال لمؤسسة تعاني ماليًا، بما فيها تنظيف المجاري وتسليكها، وهي صورة بقيت مرافقة لذاكرتي عندما كنا نجتمع في "طريق الشعب" ونتبادل الاقتراحات والأفكار، وجدت فيه ذلك المعلم الذي يبدأ بنفسه أولًا، ثم بما يطرحه الآخرون كواقع ممكن العمل ضمن ظروف موضوعية ومادية بالكيفية التي يمكنها أن تسيِّر الجريدة بأقل ما يمكن من التكاليف العملية. بمعنى انه يعمل بالممكن، وصادف

أن يكون مرافقا له، شخصية لا تقل دهاء وعملا هو الإستاذ فخري كريم سكرتير تحرير ''طريق الشعب''، التي لولا خبرتيهما كل في مجال اختصاصه، لما انجزت هذه المؤسسة مهماتها في نشر الثقافة التقدمية، واستقطبت مجموعة كبيرة من المثقفين للعمل والمساهمة في مجلة ''الثقافة الجديدة'' وجريدة ''طريق الشعب'' و ''الفكر الجديد'' وغيرها من النشاطات. وللتاريخ، لم اجده يوما إلا وبمعيته مقترحات جديدة،لايبدأ بطرحها، قبل أن يستشير بها الآخرين، ومع أني لم أكن من هؤلاء الآخرين لمحدودية موقعي كمحرر في القسم الثقافي، لكن ما يصلني منه اثناء لقاءاتنا على مائدة الطعام الأرضية، يقدمها لي على شكل اثارة العمل بها، دون أن يمنعني من أن أبدي رأيًا فيها، هذه المرونة، امتداد للسياقات الحياتية التي يتعامل بها مع الآخرين، فالعمل في مهمة ثقافية سياسية، تتطلب قائدًا من نوع المشارك الفعال وليس المتعالي المتنكر لعمل الآخرين، وهو ما كان مدار أحاديث مع رفاق كانوا مسؤولين في القسم الثقافي ولكنهم كانوا يتعاملون معنا من مواقع فوقية، اذكر منهم للتاريخ، المرحوم مجيد بكتاش، والمرحوم هاشم الطعان، والأستاذ ابراهيم اليتيم، وأخيرا حميد الخاقاني، بينما لم يكن البقية من العاملين بالروحية الاستعلائية ذاتها. بينما لم يكن عبد الرزاق الصافي ولا المرحوم ابو كاطع، ولا الفريد سمعان، ولا فخري كريم، بمثل هذه الاستقطابات المتعالية.

لم يكن عبد الرزاق الصافي مجرد شخصية ثقافية أو سياسية، بل كان شخصية اجتماعية، فقد جاء من بلغاريا مصطحبًا زوجته الجميلة، التي شعرنا بأنه كان رجل يعشق الجمال، وثمة قصص ايجابية مذهلة عن علاقاته الأخرى مع النساء، الأمر الذي جعل البلغارية تهجر بغداد لسوء الحياة فيها، ويبدأ رحلته في البحث عن قرائن اخرى لم يهتد إليها إلا بعد استقراره في لندن، ومن ثم البدء بممارسة حياة المؤرخ والمراقب والمدون وكاتب المذكرات. وهي حياة مليئة بالجوانب التي لم يستطع تنفيذها يوم كان عضوًا في اللجنة المركزية وفي المكتب السياسي، هنا، ومن داخل مذكراته يطل عبد الرزاق الصافي علينا بشخصية مركبة، بين عمق ثقافي واحتراف مهني، وكادر مثقف متميز في رؤيته وتحليلاته.

لم يكن عبد الرزاق الصافي مجرد رئيس تحرير، بل كان معلماً في تنمية سلوك جماعي للعمل، كان يقول لنا دائمًا، وهو يبتسم، أن فلانًا سألني لماذا لم تنشر مادتي الثقافية في الجريدة؟ يقول لنا، قلت له يا أخي انا مجرد''خلك رئيس تحرير'' ،لا استطيع أن أفرض رأيًا على أي من العاملين في القسم الثقافي. بهذه السلوكية كان يتيح المجال للمشرفين ان يتصرفوا ليس بالقسم بل بالعاملين فيه ايضًا، وكانت من نتائج هذه المعاملة أن نشات استقطابات مميتة، أدت بالتالي إلى نشوء نزاعات وصلت إلى مديات مخجلة. ضمن هذا الإطار، كان الصافي يعالج الأمور بدراية وتفهم عميقين، يستجيب لمتطلبات العمل، اكثر من استجابته لمتطلبات الصداقة والرفقة. ضمن هذا التجاذب، وجدت نفسي أعمل في جريدة ''الفكر الجديد''، إبعادًا لي عن استقطابات القسم الثقافي، فكنت بمعية سيدة

مثقفة وكبيرة، هي الدكتورة سلوى زكو، التي أشير إلى أنها واحدة من أعمدة الثقافة العملية في العراق.

مهنية عبد الرزاق الصافي العملية، هي امتداد لمهنيته السياسية، كان يتحدث دائمًا عن أهمية المصطلحات الفكرية في أي عمل ثقافي أو سياسي، وكانت حماسته، وهو المشغول دائمًا، دفعته إلى ترجمة قاموس عن الفلسفة الماركسية، كان عوناً كبيراً ومهماً لنا في التعرف على مصطلحات ومفاهيم الفلسفة الماركسية، وكنت استشيره في زيادة المعلومة وشرح مصطلحات كلما وجدت صعوبة في ذلك. كانت ترجماته، ليست حباً في أن يقال أنه مترجم ، بل كانت الضرورة العملية للكوادر الحزبية والثقافية أن تفهم عبر مفاهيم ومصطلحات، معنى العمل السياسي والثقافي، فالمثقف الماركسي ليس هوية دون معرفة، بل تسبق المعرفة الهوية.

يطلق على صنف عبد الرزاق الصافي، المثقف التقني، أو المثقف الكوني، الذي يمارس النظرية والتطبيق معاً، وقد يطلق عليه المثقف الجماعي، أي الذي يتعامل مع الكون الجماعي، وهو هنا المؤسسة الصحفية، ومن يعمل فيها. وبالرغم من ذاتية المثقف الكوني، إلا أن هذه الذاتية كانت موظفة لصالح العمل الجماعي. الذي يتميز بوعي مكانته ودوره، اضافة لوعيه الطبقي ملغياً أي وعي طائفي أو ديني، فهو تقني المعرفة، ملتزم بنمط المثقف النقدي اليساري، المتخصص في نشاطه المعرفي، والقادر على صياغة نموذج القائد الميداني للعمل، "إذ يتجرد في أثناء قيامه بذلك كله – من المنفعة الخاصة، سواء أكانت شخصية أو طبقية، لأن المثقف لا يستمد شرعية تدخله في المجال العمومي من انتمائه الطبقي أو العرقي أو الطائفي، بل من ذاته: من كفاءته المعرفية ومن ضميره الأخلاقي، فهو ليس وكيلًا روحيًا لطبقة ضد طبقة، إنه ضمير المجتمع كله، بل الإنسانية برمتها."‘.. في سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين. وقد مارس عبد الرزاق الصافي، دورًا للحمة المثقفين العراقيين، سواء أكان منهم من يعمل في مؤسسات الحزب، أو خارجها، مستتبعاً في نظرته العامة شرائح المثقفين العراقيين على مختلف توجهاتهم، إذ كان يوصي دائمًا بسماع رأي الآخر ومحاورته، منطلقا من وضوح نظري ومنهجي. فهو مثقف يمكن القول عن كيفية تعامله، أنه يؤمن بأن الثقافة صناعة اجتماعية، وليست قدرات ذاتية فقط، فقد كان يركز على التدريب والمران والتنظيم، وتطوير الخبرات، وقد شهدت شخصيًا لأول مرة؛ الكيفية التي نظّم فيها ما سوف ينشر في جريدة "طريق الشعب" لمدة ستة أشهر مقبلة، بتفاصيلها اليومية، مرفقة بمخطط للصفحات كلها. مع ترك فراغات في الصفحات للمواضيع الطارئة والجديدة، ونظّم ذلك في سجل يومي وكان المرحوم "ابو كاطع" يتندر على هذا السجل ويصفه بـ"الأتمتة الثقافية". أن كل شيء يجب أن يكون منظمًا. وبإمرة قيادة مرنة، تملك رؤية شاملة لحركية الثقافة والمثقفين، وهو ما يعطي انطباعًا عن الكيفية التي تدار بها مؤسسة حزبية، ثقافية، سياسية، بمواجهة مؤسسات الدولة الثقافية والسياسية. وبالفعل، شهدت "طريق الشعب" تطورات كبيرة، كانت المبادرة بتأسيس صفحة لأدب الاطفال، ولقصصهم

وحكاياتهم، وصفحة للكاركتير، وصفحة للمسرح، وصفحة لأدب الشباب، وهكذا نجد الرئاسة الممثلة بعبد الرزاق الصافي والاستاذ فخري كريم، قد مهدت لجريدة "طريق الشعب" أن تكون الصحيفة الأولى في التوزيع خلال السبعينيات. ومن يستقرئ أسماء العاملين، فيها، يجدهم من خيرة الأدباء والمثقفين، الذي اجتهدوا في تطوير الصحافة وتنميتها.

مما يمكن رؤيته، أن مثل هذا المثقف الشامل والعضوي، هو نتيجة لتحولات جذرية في تعامل الحزب مع المثقفين وطروحاتهم الفكرية والعملية، فهو لا يأتي بالنظرية ليطبقها دون أن يجد لها أرضية قابلة للتطبيق، وهذه الميزة سياسية ونتيجة خبرة متراكمة من العمل السياسي، في مجتمع تكثر فيه النزعات الفردية والذاتية، ومن تصورات عملنا في تلك الفترة، يجد أن صوت الثقافة كان عالياً جداً بالقياس إلى أصوات سياسية أخرى، والسبب أن المثقفين وجدوا في صحافة الحزب والكوادر القائمة عليها، مجالًا للحوار وتبادل المعلومات، وتطوير القدرات الذاتية. وهي طريقة عملية توظف الأديولوجيا المرنة لسياقات أبعد من النتائج الآنية لها.

هل كان عبد الرزاق الصافي ينطلق من فكر حداثوي؟ يمكن القول بايجاب، لأن فريق الرئاسة كان على دراية بعمق المتناقضات السياسية والإجتماعية والثقافية، ولذلك تعمد في التطبيق المرونة والاستيعاب وخلق نوع ثالث من الطرق التي تغذي مسار الثقافة بشكل عام دون أن يكون هذا المسار شيوعيًا بالكامل، هو "الحداثة" معيارًا للجودة والنشر. كانت الرؤية العامة أن تكن الثقافة العراقية بكل تفاصيلها هي موضع العمل والمجال الذي يحقق الحزب منه رؤية شاملة للثقافة وللمثقفين. ولعل هذه الخصيصة المنهجية هي التي جعلت الثقافة وشرائح عديدة من المثقفين بتوجهات يسارية حتى وإن كان بعيدين عن الحزب الشيوعي العراقي. أقول ذلك، وربما هناك تأسيسات أبعد من المرحلة التي اتحدث عنها، مرحلة اشتغالي وعلاقتي بعبد الرزاق الصافي، اسسها الحزب، وأصبحت رؤية عملية لكوادره القيادية، ولكني أجد أنفسنا الآن شبه بعيدين عن مثل هذا التوجه الشامل للرؤية المتمعنة للثقافة وللمثقفين، أي ثمة عين حزبية كانت تبصر حركة الواقع الثقافي كله، أبعد من أن تبصر حركة المنتمين فقط، وهو ما نشهد بعض التراجعات التي من شأنها أن تضعف الثقافة والمثقفين قبل أي شيء آخر.

للحديث عن علاقاتي مع عبد الرزاق الصافي في بغداد، ودمشق،ولندن وهولندا، مسار طويل ومتعرج، عسى أن تكون ثمة فرصة أخرى للحديث عنها.

مقـــــالات

الانتفاضة الجماهيرية في السودان وآفاق تطورها

فتحي الفضل
عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوداني

استندت انتفاضة ديسمبر 2018 على التجارب الماضية لحركة الجماهير المقاومة للأنظمة الدكتاتورية في السودان ودول الجوار، بإيجابيات وسلبيات تلك الهبات الشعبية. وكان لتجربتي أكتوبر 1964 وأبريل 1985 وجودهما ودورهما الواضح في مواجهات الجماهير مع نظام حكم جماعة الاخوان المسلمين الذي اختطف الحكم عبر انقلاب سنة 1989.

ومنذ تسنم عمر البشير السلطة في عام 1989 الى ازاحته في 2019 لم تهدأ شوارع المدن من المظاهرات والمواجهات بين الجماهير وقوات الامن. وبالتالي وعبر التراكم المستمر لخبرات الحراك الشعبي، والتجارب المختلفة التي اختزلها شعبنا في مواجهة النظام الدكتاتوري القمعي، توصلت الجماهير وقواها الحية من الاحزاب والهيئات المعارضة ومن ضمنها حزبنا الى اتباع اساليب مجربة وتطويرها لتلافي اخطاء الماضي.

بالطبع، فان هذه النضالات كانت وما زالت تتم ضد نظام البرجوازية الطفيلية المحلية - اسلامية وغيرها والعاملة وكيلا للرأسمالية العالمية - التي صعدت للحكم بديلا للقوى التقليدية التي تراجع نفوذها المادي والجماهيري. وتتدثر القوى الطفيلية او تعمل تحت غطاء مدني وعلماني (العسكر) وترمي الى اقامة علاقة مشتركة بينهما تحت دعاوى مساومة تاريخية بين الثيوقراطية والعلمانية. وتزكيان انفسهما لدوائر رأس المال باعتبارهما اقدر على التعامل والمخاطبة، واكثر استعدادا لخدمة مصالح ومؤسسات العالم الرأسمالي. ولديهم المقدرة على تغبيش وعي الشعب بأطروحات تطمس حقيقة الصراع السياسي والاجتماعي، والترويج لاقتصاد السوق ونهب ثروات البلاد.

السؤال الذي طرحته جماهير شعبنا وحزبنا هو هل يمكن ان تتعايش بلادنا مع النهج التنموي التابع للرأسمالية العالمية، والاستمرار ضمن التقسيم الدولي للعمل في اقتصاديات زراعية متخلفة، أم النضال من أجل الانعتاق وفك التبعية والسير في طريق التحرر السياسي والاجتماعي، وبناء الدولة الحديثة العلمانية الديمقراطية التي تفتح الطريق أمام القوى المنتجة صاحبة المصلحة في انهاء مهام مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية وبناء دولة تمثل النقيض للطبقة والشرائح الطفيلية الخاضعة للمعسكر الرأسمالي؟ في رده على هذا السؤال رفع الحزب الشيوعي السوداني منذ الاستقلال في عام 1956 هدف تعزيز الاستقلال

السياسي والاقتصادي وعبر مؤسسات ديمقراطية تعزز من دور القوى المنتجة خاصة الطبقة العاملة والمزارعين والمثقفين الوطنيين. وظل يثابر على النضال وتطوير برامجه باتجاه تنفيذ مهام الثورة الوطنية الديمقراطية وبناء الاشتراكية في السودان.

إن الازمة التي عشاها وتعيشها البلاد هي نتاج سياسات السير في الطريق الرأسمالي وفي خطى الاستعمار الحديث بعد الاستقلال، واستمرار ان يكون السودان مصدرا للمواد الخام، وموفرا للأيدي العاملة الرخيصة، وسوقا لمنتجات البلدان الرأسمالية. وتمت عملية الانصياع التام والوقوع في قبضة المعسكر الرأسمالي بدخول البنك الدولي وصندوق النقد الدولي كمشرفين دائمين على الاقتصاد السوداني ولتنفيذ شروطهما بالحرف الواحد.

استغل المجتمع الدولي والامبريالية الامريكية على وجه الخصوص الاوضاع التي سادت في السودان، وضعف الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال، والتي ارتضت الاعتماد على توجهات المؤسسات الرأسمالية العالمية، وتفاقمت الازمة السياسية الاقتصادية والاجتماعية في السودان بتسلم جماعة الاخوان المسلمين السلطة عبر الانقلاب العسكري في يونيو 1989، واستمر استغلال الامبريالية العالمية ودول الجوار للبلاد، مستفيدين من ضعف النظام عبر التدخل المباشر في الشؤون الداخلية، وترويض النظام لخدمة مصالحها المباشرة محليا وإقليميا وعالميا، خاصة في المنطقتين الافريقية والعربية. وتم عقد صفقات مع النظام تحت سياسة الجزرة والعصا، نتج عنها تنفيذ مصالح طبقية متطابقة في الجوهر بين النظام والرأسمالية العالمية.

هكذا تحققت السيطرة الكاملة للرأسمالية العالمية والانصياع لمصالح الشركات المتعددة الجنسية، ثم التآمر لفصل جنوب السودان ووضع السودان كجزء من المنظومة العسكرية والاستخبارية الامريكية، حيث يستضيف السودان اكبر محطة CIA في افريقيا والمشاركة في قوات الافريكوم والسماح ببناء قواعد عسكرية لكل من روسيا وتركيا. كما تم الانضمام للحلف العسكري العربي الاسلامي بقيادة السعودية، والمساهمة في تحويل المنطقة العربية الى ساحة حرب عرقية ودينية ومذهبية وطائفية، تلبية لمخططات الادارة الامريكية والرأسمالية العالمية في اعادة ترسيم الحدود، وتقسيم دول المنطقة على ذات الاساس الذي تم في بعض بلدان شرق اوربا لتسهيل السيطرة على الدويلات وابقائها في فلك الامبريالية، ولطمس طبيعة الصراع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والهيمنة على موارد الطاقة – بترول السودان وجيرانه – والعمل على جعل السودان قطة ارتكاز للقفز على البلدان الافريقية. كما تمت سيطرة الحكومة الصينية والشركات الصينية على بترول السودان – شمالا وجنوبا – والتحكم في اراضي واسعة في البلاد. كما تم الاتفاق مع الحكومة الروسية على السيطرة على التنقيب، وتصدير الذهب السوداني. وكما قلنا سابقا فإن الازمة وصلت الى قمتها تحت حكم البرجوازية الطفيلية المتأسلمة.

من المهم الاشارة الى تجارب شعبنا السابقة بخاصة نجاحه في اسقاط نظامين عسكريين شموليين خلال عقدين من الزمن في انتفاضتي أكتوبر 1964 وأبريل 1985. هذه الانتصارات انجزت على درب التغيير الديمقراطي السياسي. وقد رفع شعبنا شعارات وطنية وديمقراطية لحل الازمة العامة، وحل قضايا القوميات المتعددة وايقاف الحرب والاتجاه نحو تنمية تعتمد على الذات والتوزيع العادل للثروة والسلطة. لكن هذه الاهداف الوطنية سرعان ما تم الالتفاف والانقضاض

عليها. وتمكنت القوى التقليدية (حزبا الامة والاتحادي الديمقراطي) من تصفية هذه الاهداف واستولت على السلطة عبر انتخابات عاجلة بعد فترة انتقالية فقيرة. والفوز مستندة على النفوذ الطائفي والقبلي ولم تطمئن حتى بوجود معارضة تقدمية وديمقراطية، فكان ان طردت نواب الحزب الشيوعي السوداني من البرلمان بتهم ملفقة حول الالحاد. وهكذا ساهمت الاحزاب التقليدية وجماعة الاخوان المسلمين في كل المنعطفات التاريخية في رفع السلاح بوجه الحركة الجماهيرية الصاعدة والحزب الشيوعي. فكان انقلاب نوفمبر 1958 العسكري بتدبير من قيادة حزب الامة، وانقلاب 1969 بتدبير المخابرات المصرية، وتنفيذ القوميين العرب، وانقلاب 1989 بتدبير جماعة الاخوان المسلمين.

واليوم وبرغم التخريب الذي حدث في مواقع القوى المرتبطة بالإنتاج - الطبقة العاملة والمزارعين - تغير المشهد السياسي بتوسع الوعي السياسي والاجتماعي بين قوى الريف والاطراف التي كانت تستخدم لإجهاض الحركات التقديمة. وارتفع صوت هذه القوى وازداد نضالها من اجل انتزاع حقوقها في الثروة والسلطة، وقد عبر هذا التغيير عن ظهور وبروز العديد من الحركات المسلحة والديمقراطية والسلمية التي رفضت القيادات التقليدية شبه الاقطاعية والاحزاب القديمة، وسارت في طريق العدالة الاجتماعية والمساواة السياسية والاقتصادية.

اشارت دورة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني في يوليو 2018 الى انه في تقديرنا ان الظروف الموضوعية قد نضجت للتغيير والخلاص من النظام الشمولي المعبر عن الفئات البرجوازية الطفيلية المرتبطة بتنظيم الاخوان المسلمين الدولي. وأكدت الدورة نفسها أن الصراع قد بدا واضحا بين مشروعين، وان هذا الصراع مستمر منذ ستة اشهر دون اقطاع. الاول هو مشروع "الهبوط الناعم" الذي يحاول فرضه المجتمع الدولي والاقليمي بقيادة الولايات المتحدة، والرامي الى اجراء تسوية تستند الى اصلاحات شكلية على النظام وقمته لفتح طريق لمشاركة اطراف من المعارضة التي تنسجم مصالحها مع النظام، ويؤدي ذلك الى توسيع قاعدة النظام الاجتماعية مع الحفاظ على الطبيعة الطبقية للنظام، وضمان مصالح القوى الامبريالية وأدواتها الاقليمية. وكانت اول خطوة عملية في هذا الاتجاه هي ازاحة رأس النظام، واعتباره المسؤول عن الازمة الطاحنة في السودان، وبالتالي محاولة جذب قوى من المعارضة.

المشروع الآخر هو الذي طرحه الحزب الشيوعي، وتبنته قوى الاجماع الوطني، وقُبل بتعديلات من كل قوى المعارضة، وانعكس بصورة وأخرى في اعلان قوى "الحرية والتغيير". ومنذ بداية الحراك الجماهيري في 19 ديسمبر 2018 فرضت الجماهير المبادئ الاساسية لذلك المشروع الذي يسعى لبناء اوسع جبهة للجماهير من اجل اسقاط النظام وتفكيكه وتصفيته واستعادة قومية اجهزة الدولة وتصفية الدولة العميقة. كما يستهدف تكوين حكومة مدنية انتقالية لفترة اربع سنوات، وعدلت الى ثلاث سنوات، لتنفيذ البديل الديمقراطي، وتأسيس الدولة المدنية الديمقراطية، وارساء مبدأ المواطنة على اساس الحقوق والواجبات، وانهاء الحرب وجبر الضرر واقامة محاكم عادلة لكل من أجرم بحق الشعب والوطن. ويشدد المشروع على ايقاف التردي الاقتصادي واستعادة قدرات النشاط الانتاجي ورفع معدلاته وتحسين الوضع المعيشي، وتوفير الخدمات الضرورية من صحة وتعليم وتغيير قوانين العمل، والمساواة بين الرجل والمرأة.

كما اكدت دورة اللجنة المركزية في يوليو، ان

هبة يناير 2018 وصعود الحركة الجماهيرية في نضالها لإسقاط النظام وما تلاها من تطورات قد قادت الى ترميم وحدة عمل المعارضة ونشاطها المشترك، ودخلت البلاد في خضم ازمة ثورية. واشارت اللجنة المركزية الى ان استمرار الحراك الجماهيري ووصوله الى اهدافه يتوقف على العديد من العوامل، والتي من بينها عمق الازمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للنظام، وفشله في ادارة الحكم بالأسلوب القديم وتفكك الطبقة الحاكمة. والعامل المكمل هو وحدة وتنظيم الجماهير لصفوفها، اثناء نضالها. وبقدر نجاحها في تنظيم صفوفها ورفضها النظام القائم تتوفر الظروف الموضوعية للانتصار على العدو. وتأتي عملية التعبئة وتأصيل الحركة الجماهيرية كواجب مقدم للقيادة وللحزب قيادة وقاعدة.

ان التقدم في طريق الثورة الشاملة يستدعي في المقام الاول تحقيق الوحدة الفكرية والتنظيمية للحزب، وتدعيم دور فروع الحزب وبناء التحالفات الاستراتيجية وسط العمال والزراع والمثقفين والطلاب والشباب والنساء. يتم تنفيذ هذه الواجبات ليس بمعزل عن الجماهير، بل من وسطها ومعها وبها، وذلك في معركتها اليومية ومقاومتها التي لا تهدأ.

وكان ذلك هو الأولوية في نشاطنا الحزبي، واصبح تصاعد النشاط الجماهيري عبر شهور الانتفاضة عاملا مساعدا في ارتفاع قدرات الحزب في الدفاع وحماية نفسه والمشاركة الفعالة في الحراك المتنوع لحركة الجماهير وبناء ادواتها الاساسية المختلفة في لجان المقاومة، وفي السكن ومكان العمل والدراسة. وتدعيم القيادات المدنية وربطها بشبكة مع كل المستويات لتصل في النهاية الى المركز الموحد لقيادة الحراك المتمثل في قوى الحرية والتغيير واللجنة التنسيقية.

دخل حزبنا وقوى المعارضة الجذرية معارك انتفاضة ديسمبر، وهم اكثر وضوحا وتنظيما. وساعد ذلك ان تمكنت الهبة العفوية في بداية الانتفاضة ان تلتقط تدريجيا الشعارات والاهداف الرئيسية التي طرحها حزبنا وحلفاؤه. وهكذا تحولت مطالب الانتفاضة من المطالب الاقتصادية البحتة: الحد الادنى من الاجور، وتوفير الخبز والوقود والدواء، الى المطالبة باسقاط النظام. وبمرور الوقت اصبح خط الحزب الجماهيري تعبيرا وقوة وسط الجماهير الثائرة. وكانت شعارات الانتفاضة الاساس: حرية، سلام. وكذلك الثورة ـ خيار الشعب ـ هي التعبير الشعبي للمشروع الذي تبنته قوى المعارضة.

في هذا الاطار يمكننا رؤية وفهم الصراع الدائر في السودان. انه صراع بين قوى التغيير الجذري (القوى الوطنية والديمقراطية داخل وخارج قوى الحرية والتغيير) وبين قوى الثورة المضادة. فما تريده الجماهير الشعبية وقواها الوطنية والديمقراطية هو السير في طريق مختلف عن طريق الثلاثين عاما الماضية. وبالتالي السؤال عن ما هي السلطة التي تقود البلاد في مثل هذا الطريق؟

انقلاب العسكر الذي ازاح رأس النظام، كان ولا يزال هدفه الرئيس هو تصفية الانتفاضة من محتواها، وتمهيد الطريق لتنفيذ مشروع الهبوط الناعم. فالمجلس العسكري والطغمة الحاكمة هي امتداد طبيعي للنظام السابق. لذا فالخلافات ليست حول اقتسام السلطة 8/7 أو 7/7 أو 5/5 او من يرأس المجلس الرئاسي، انما الخلافات هي حول مستقبل السودان وبناء سودان ديمقراطي مدني، يسع الجميع.

بالنسبة لنا نحن كحزب رفض التفاوض مع المجلس العسكري من ناحية المبدأ، باعتباره امتدادا للنظام القديم، ويسير في نفس الطريق. نحن نسمع ضجيجا، ولا نرى طحيناً منذ 11

ابريل 2019 من قبل قادة الانقلاب، فالمجلس العسكري رغم اشادته بـ"ثورة ديسمبر"، الا انهم يوجهون كل افعالهم واقوالهم لضرب المعارضة الجذرية وحزبنا.

افعال المجلس العسكري هي الدليل على موقفه المعادي للشعب والانتفاضة. فأعداد الشهداء منذ 11 ابريل ارتفع بشكل واضح، والجرائم التي ارتكبت ضد قوى المعارضة من ضرب وتعذيب واعتقال وقتل واغتصاب تزيد ولا تنقص. العداء ضد الحزب والاتجاهات الجذرية في قوى الحرية والتغيير في ارتفاع مستمر. تحولت العاصمة ومدن السودان الكبرى الى ثكنات عسكرية بوجود الاسلحة الثقيلة في الشوارع، وكأن المجلس العسكري في حالة حرب ضد الشعب.

ابرز جرائم المجلس العسكري ضد الانتفاضة كان في تخطيطه وتنفيذه لفض الاعتصام السلمي امام مبنى القوات المسلحة بالقوة المفرطة. ونتج عن ذلك استشهاد 118 شابا وشابة. وتم التقاط 38 جثة من نهر النيل، وتم اغتصاب 37 شابة و12 شابا في يوم 3 يونيو. ورغم اعتراف المجلس بالمسؤولية، إلا ان بعض اطرافه تحاول التملص، وتدعي ان تلك العملية كانت "فخا" وقع فيه المجلس! ورغم فض الاعتصام إلا ان قوى الحرية والتغيير قد رفعت من برامجها التعبوية، وبدأت من جديد مظاهرات الاحياء اليومية. وترمي القيادات الميدانية الى تصعيد النشاط، كيما يصل الى مستوى عال يوم 30 يونيو، يوم الانقلاب المشؤوم في عام 1989.

ان حزبنا يرى ان الطريق لاسقاط النظام يمر عبر بوابة التوجه الى الجماهير والتواجد بينها والالتصاق بها، وتمليكها كل الحقائق. فما زالت الامكانيات متوفرة لتحويل الوضع الثوري الذي تعيشه البلاد الى ثورة؛ ففي ظل التحولات العميقة التي صدعت وكسرت البنى السابقة، بنى الدولة، وبنى المجتمع السياسية تنشأ خطورة ظهور حالة فراغ يمكن ان تؤدي الى العودة الى الوراء في حالة تردد الثوار ومهادنتهم. بكلام آخر احتواء الانتفاضة، وبالتالي حصر النشاط السياسي في حدود معينة.

ان الوضع الثوري الذي نعيشه هو مخاطرة مفروضة موضوعيا، فرضها نضوج العامل الموضوعي وانفجاره. وعلى القيادة الحالية، ومن ضمنها حزبنا، ان تشحذ اسلحتها وتتصدى لقيادة الوضع الثوري وقيادته نحو اهدافه في التغيير الجذري. فللحركة الجماهيرية اسلحتها المجربة في شكل الاضراب السياسي العام والعصيان المدني لهزيمة النظام وتفكيكه وتصفيته.

كشف النهوض الجماهيري خلال الستة اشهر الماضية عن ضرورة تحسين الصلة مع الجماهير والالتصاق بها والتعلم منها والتفاعل الايجابي مع تطلعاتها المشروعة والتصدي لقيادتها عبر الاقناع والابداع. كما ظهرت قوى من الشباب الثائر خاصة من النساء في القيادات الميدانية ولجان المقاومة. من المهم مساعدتها وتقديم كل العون لها، كيما تلعب دورها كاملا في الانتفاضة وفي مستقبل البلاد. هذه المجموعة هي قلب الحراك وتساعد في تدعيم امكانيات الانتصار على اعداء الثورة.

الوضع الآن وإمكانيات تطور الانتفاضة الى ثورة ناجحة باستلام السلطة وتنفيذ برنامجها (برنامج الانتفاضة - المحرر) يعتمد على تدعيم وتمتين وحدة المعارضة وبناء التحالفات الاستراتيجية والديمقراطية وسط العمال والمزارعين، وتدعيم وحدتهم، كيما يلعبوا دورهم كاملا في بناء التحالف العريض وقيادته.

بجانب ذلك، الدعوة الى اوسع تضامن عالمي، تلعب فيه الاحزاب الشيوعية الدور الاساسي، في دعم نضال شعبنا وحزبنا، من اجل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسلام.

الوضع السياسي العراقي بعد عام من الانتخابات النيابية 2018

د. أثير ناظم الجاسور

د. أثير ناظم الجاسور، تولد كربلاء 1982. استاذ السياسة الخارجية في كلية العلوم السياسية/ الجامعة المستنصرية، ورئيس وحدة البحوث والدراسات الاستراتيجية في ذات الكلية. صدر له كتاب بعنوان (التصدع الكبير: استراتيجية حلف شمال الاطلسي تجاه البلقان).

قد يكون الحديث عن تقييم العمل الحكومي بعد عام من اجراء الانتخابات التشريعية في العراق عام 2018 يصاحبه الحديث عن الكثير من القضايا والموضوعات التي لها علاقة بما قد يتم استشرافه او استنتاجه للمراحل القادمة من العمل الحكومي، خصوصاً وان كل ما قد يتم انتقاده تحديداً هو نتاج السنوات السابقة التي حملت في طياتها عوامل عدم النجاح والتلكؤ في كل ما له علاقة بعملية ادارة وبناء الدولة، فمنذ العام 2003 ولغاية اليوم والمشهد السياسي العراقي يلقي بظلاله على كل المشاهد الامنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية حتى بات هذا المشهد هو المحدد الاساس او المحرك لكل العناصر الفاعلة في العراق، فلو عدنا إلى الوراء نجد ان الحكومات السابقة قد فشلت في ادارة اهم الملفات الحساسة، والذي ضرب العراق في الصميم، الا وهو الملف الامني، او كما يسميه البعض "المعضلة الامنية" التي فرضت نفسها كأكبر تحدٍ وعقبة امام تحقيق الاهداف التي من المفترض، قد تم الاعداد لها مسبقاً، حتى قبل احتلال العراق، لا بل راح هذا الخطر يهدد العراق في وحدته الوطنية ونسيجه الاجتماعي وسيادته، ناهيك عن التأثير على مجمل العملية السياسية. وهذا التخبط كان نتيجة الفوضى التي خلقها الاحتلال الامريكي، بعد ان كان يبشر بنظام ديمقراطي علماني، ذي توجه نحو السوق الحرة، لكن الواقع اعطى نتائج مختلفة، خصوصاً بعد ان تم تشكيل مجلس الحكم على اساس طائفي، عرقي وديني.

وكشيء بديهي: كلما كانت المقدمات صحيحة ومنسجمة مع الواقع العراقي السياسي والاقتصادي والاجتماعي، تكون النتائج واضحة ومستقرة وثابتة، لكن الذي حصل خلاف ما يمكن ان يحدثه العقل والمنطق؛ فالمقدمات خاطئة خارج اطار المنطق، لا بل ان التداعيات السلبية والخطرة التي ولدتها السياسات الامريكية الخاطئة وما تبعها من حكومات عراقية انتقالية ومؤقتة، اعطت صورة بشعة وضبابية عن مستقبل العراق؛

فقد وجد الشعب العراقي بين ليلة وضحاها يعيش في فوضى عارمة، اكتسحت كل شيء يخص حياتهم، فهم بلا سلطة مركزية، ولا قانون يمنع من حدوث اي ارباك واخطاء وشلل تام، في كل القطاعات، اهمها الخدمي وهياكل صناعية، اضافة إلى مؤسسات مدمرة ودوائر حكومية محترقة ومصارف وبنايات منهوبة. كل ذلك فتح الاعين امام كارثة حقيقية ستحصل خصوصاً والسلاح اصبح ملقى على قارعة الطريق وبمتناول اليد. كل هذا واكثر هو بعيد عن احلام مهندسي الحرب على العراق، على اعتبار ان المنطقة بعد احتلال العراق واسقاط نظامه ستتهاوى مثل احجار الدومينو، لان الحقيقة تقول ان الانظمة السياسية العربية وغير العربية المجاورة للعراق، تحديداً، لها سياستها واجنداتها التي تعمل على تحقيقها خصوصاً وان النظام الذي كان يُعد خطرا عليها، قد رحل.

في حقيقة الامر ان ما آلت إليه الاوضاع في العراق من زيادة في العنف إلى الصراعات الحزبية، إلى الفساد المالي والاداري وتفشي ظواهر انتشار السلاح والجريمة المنظمة، إلى جانب التدخلات الاقليمية والدولية جعلت من العراق ساحة لتصفية الحسابات والتنافس بين دول العالم وتحديداً الاقليمية، واكثر تركيزاً دول الجوار التي عملت طوال هذه السنوات على ان يكون العراق موحداً، لكن ضعيفاً، خوفاً من توجهات العراق السابقة والحفاظ على امنهم وسلامة اراضيهم. كما ان ما جرى في العراق لم يعد شأناً داخلياً محضاً وانما تجاوز حدوده، بالتالي اصبح العراق منتجا لعدم الاستقرار في المنطقة، فكان معرضاً لمجموعة من المشاريع والاستراتيجيات الدولية والاقليمية التي اثرت وبشكل كبير على كل مخرجات النظام السياسي منذ العام 2003 ولغاية اليوم.

ان الحكومات العراقية التي تعاقبت على حكم العراق منذ العام 2003 ولغاية اليوم تأثرت بشكل كبير بالصراع الاقليمي تحديداً، لا بل انجرفت خلف تلك الصراعات حتى انقسم الداخل السياسي العراقي لجبهات مدافعة ومنفذة لأجندات خارجية اقليمية ودولية افرزت صراعات القت بظلالها على الامن والسلم المجتمعي، إلى جانب تأثيرها على اعادة بناء الدولة وادارتها على وفق اسس علمية عقلانية، واتباع سياسة خارجية وسطية غير منحازة، رفعت الغطاء عن وضع اوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية بالغة التعقيد كان لها دور في ان يصبح العراق مسرحاً لكل الاحداث، لا بل اصبح يتأثر باي تحول حتى وان كان هذا التحول يخص العلاقة بين دولتين جارتين.

ان ما افرزته العملية السياسية من تحديات كبيرة قد يعدها الكثيرون كوابح وعقبات تقف حائطاً صلباً امام اي منجز قد يذكر، خصوصاً وان تبعات سوء الادارة والتنظيم اعطت مجموعة من النماذج التي ادت بشكل مباشر الى اضعاف الدولة ومؤسساتها على كل الاصعدة؛ فالفساد المالي والاداري كان له الاثر البارز في ان تقتل مسيرة هذه العملية التي اصبحت رهينة لمخرجات هذا الفساد، الذي اصبح عاملا سلبيا هداما. فعندما نتحدث عن بناء الدولة ومؤسساتها، فإننا نسلط الضوء على منظومة متكاملة، كما يفسرها "فرانسيس فوكوياما" بانها "تقوية المؤسسات القائمة وبناء مؤسسات جديدة فاعلة، وقادرة على البقاء والاكتفاء الذاتي، هذا ما يعطي صورة نقيض تحجيم الدولة، اي تقليص كل

من مدى وقدرة الدولة في آن معاً" (1)، لكن ما حدث في العراق، هو ان المؤسسات بقيت غير فعالة، بينما تواجه الدولة تحديات داخلية وخارجية كبيرة.

بعد عام من الانتخابات البرلمانية لا بد من ان يكون هناك ربط بين احداث قبل الانتخابات وبعدها، خصوصاً أن كل مرحلة، جاءت نتيجة المرحلة التي سبقتها، وما سبقت هذه الانتخابات من عوامل ساهمت بشكل واضح في وضع العصا في عجلة سير الحكومة الحالية. فقد سارت الحكومات السابقة على نهج بعيد عن العقلانية والمنطق في الادارة من خلال استخدام ادوات غير فعالة، اوصلت الجميع الى نفق مسدود، ما جعل الحديث الحالي هو العودة لكل ما تم ركنه في السابق. لم تول الحكومات السابقة اهتماماً بدراسة الواقع العراقي وتجلياته، بل انغمست في تعميق فكرتها واستمراريتها التي كانت عبئا عليها في كل مرحلة، تنتقل بها الدولة، لان وببساطة تكون محملة بتركة التي سبقتها، بالمحصلة تكون امام طريقين؛ اما ان تسير رغم الاخطاء والفساد، واما ان تعود للمربع الاول، او كما يسميه البعض مربع صفر، وبالتالي نحن امام خيارين خطرين يؤثران بشكل كبير على شكل ومستقبل الدولة. من جانب اخر لم تتمكن الحكومات السابقة من التحري من الاسباب التي سببت كل هذا الفشل، وهذا يعكس عدم قدرتها على ادارة الدولة. وكان واضحاً ايضاً من خلال عدم القدرة على ادارة ابسط الملفات. بالنتيجة تشير الاحداث الحاصلة إلى ان هناك مجموعة من الاخفاقات والاخطاء الجسيمة، ساعدت على ان يكون مستقبل الدولة في المنطقة الرمادية.

ايضاً هناك حدثان مهمان قد أثرا على طريقة ادارة الدولة: الاول، هو احتلال داعش للأرض، وهذا الحدث قد تكون له عدة اوجه في الدراسة والتحليل، بعد تبيان مجموعة من الاخطاء التي تم ارتكابها، حتى وصلت الحالة لما عليه في تلك السنوات، خصوصاً ان الازمات الداخلية قُبيل دخول داعش، كانت تنذر بحدوث كارثة، وبالتأكيد حدثت لكن هذه المرة بينت ضعف النظام السياسي والعملية السياسية التي لم تجد لها ارضاً صلبة، تستقر عليها، وبينت ايضاً انعدام الثقة بين المواطن واجهزة الدولة، التي لم تجد لها اي عون او سند، بعد ان ساهم المتحزبون في زراعة نمط معين من العلاقة بينهم وبين الدولة، كان اساسها الاتكال على مواردها والاخيرة، بدورها اعطت حافزاً كبيراً على ان يكون الفساد ـ أهم سمات العمل الحزبي داخل الدولة ـ قد انتشر بجسد الدولة.

اما الحدث الثاني، فهو حزم الاصلاح التي اطلقها رئيس الوزراء السابق حيدر العبادي التي تم تأييدها من خلال التظاهرات التي استمرت لمدة عامين بقوة وزخم كبيرين. ففي حقيقة الامر ان التأييد الذي حصل عليه العبادي في تلك الفترة لم يحصل عليه أي حاكم حكم العراق منذ تأسيسه وبمستويات مختلفة دينياً، بعد تأييد المرجعية، وشعبياً بعد ان توحدت كل الطبقات والشرائح، لكن عملية الاصلاح التي كان ينوي تطبيقها لم ترَ النور بعد ان صعب على العبادي التخلص من خصومه، والتخلص ايضاً من الحزبية التي يتمتع بها خصوصاً وهو غير قادر على مجاراة العدد من اعضاء حزبه الذين تبين فيما بعد انهم هم اصحاب القرار. هذا التماهي في تطبيق العبادي مشروعه الاصلاحي، احدث فجوة كبيرة بين السلطة والشعب. هذه

الفجوة اعطت صورة واضحة من خلال مقاطعة الانتخابات من قبل اعداد كبيرة من المواطنين.

من الضروري عند الحديث عن سياسة دولة، يؤخذ في الحسبان مجموعة من الاتجاهات التي تدرس بشكل كامل ومستفيض، فيما يخص عمل المؤسسات ودورها، والتفاعل فيما بينها، الى جانب صناعة القرار والوحدة القرارية المشاركة في صناعته، اضافة الى صانع القرار وشكل وكيفية القرار، ومدى تعاطيه مع البيئتين الداخلية والخارجية، بعد ان تكون كل الاجواء مهيأة لصناعته. وبالمحصلة فان تنفيذ القرار فيما بعد ودرجة الفائدة والتأثير منه ستعطي فاعلية وقدرة الوحدة القرارية المساندة. فالسياستان الخارجية والداخلية طيلة الست عشرة سنة الماضية، اعتمدتا على مزاج صانع القرار وميوله وانتماءاته السياسية والعقائدية، لدرجة اثرت على طريقة ادارته للدولة داخلياً وخارجياً، ما اعطى اشارات واضحة على ان الدولة باتت تدار من قبل شلل حزبية مصلحية ـ ان صح التعبير ـ تعمل وفق المكاسب الحزبية، وتعمل ايضاً ضمن اجندات معينة. وهذا ما افرز تنامي الهويات الفرعية التي ساهمت بإخفاء الهوية الوطنية الجامعة، سواء كانت هذه الهويات دينية او طائفية او قومية.

ايضاً تعكزت الدولة على اقتصاد احادي الجانب بعد ان اهملت الحكومات السابقة كل ممكنات التنوع في زيادة الدخل كالزراعة والصناعة، وبقي النفط هو المورد الوحيد الذي جعل من الدولة رهينة سعر البرميل، ما احدث عجزاً كبيراً في ترتيب الاولويات خصوصاً وان ميزانيات السنوات السابقة والعجز الظاهر فيها، كان يعطي الانطباع على ان الدولة بين الحين والآخر تشرف على الافلاس. ايضاً هذا التعكز اجبر الدولة على ان تخضع لشروط الدول المانحة، واصحاب القروض الذين باتوا المتحكم بعملية التوزيع. وبهذه الحالة اصبحت الدولة اسيرة لسعر الفائدة، بالتالي فان التحديات الكبيرة التي واجهتها وما زالت تواجهها الدولة، وأية حكومة هي الاعتماد على الخارج في كل شاردة وواردة، وهذا بدوره جعل كل من يتسنم مسؤولية، يجد العديد من العقبات التي تكبح اي طموح للعمل الايجابي، الى جانب اصحاب المصالح الذين خرجوا من رحم الاحزاب والقوى الحزبية، او كما يسميهم البعض بالمتنفذين الذين شكلوا دولة داخل دولة، أو ايضاً كما يسميها البعض بـ "الدولة العميقة".

ان الدولة العميقة او العمل على تأسيسها هو واحد من عملية السيطرة المباشرة من قبل الاحزاب على كل مفاصل الدولة، لا بل اسهمت في ان تجزأ القرار السياسي وتجعل منه حبيس الفكر الحزبي الضيق، بعد ان مارست كل انواع التشويه لعمل الدولة الفعلي من خلال السيطرة على القرارات المتعلقة بالجوانب المالية والتخطيط والقروض، وكل ما له علاقة بعملية ديمومة الدولة، إلى جانب مساندتها للمتنفذين الذين تمت زراعتهم في قلب الدولة، وعملوا على تنفيذ مصالح الحزب والاجندة المنتمين اليها، بالتأكيد عندما نتحدث عن هذا الشكل (الدولة العميقة)، فنحن لا نتحدث عن مثيلاتها في تركيا والولايات المتحدة على اعتبار ان التجربتين تختلفان من حيث الشكل والمضمون والنتيجة.

من المؤكد ان الخطوات التي تم اتباعها طيلة السنوات الماضية لا سيما تلك التي اتسمت بتعدد الاخطاء، جعلت من الدولة

رهينة للتفكير الحزبي الضيق، الذي رسم خارطة طريق تجافي العقل والمنطق؛ فكل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والامنية تعاني من خلل بنيوي واضح، جرّاء تلك التوجهات غير المدروسة، بالنتيجة ان كل ما تمت صناعته جاء من بنات افكار ذات توجهات ضيقة، تفتقر للعمل السياسي بالدرجة الاولى. فعملية الادارة السيئة التي مورست من قبل الكتل الحزبية المشاركة في العملية السياسية، استندت على مراجع فكرية، بعيدة عن التطبيق العملي. وبدورها رسمت صورة مشوهة عن الواقع الفعلي الذي كان من الممكن ان تكون عليه خارطة العراق السياسية. فلو اخذنا بنظر الاعتبار هيكل الدولة وما تعرض له من صدمات منذ احتلال العراق في 2003 مروراً بالفوضى وعمليات السلب والنهب وحرق المؤسسات، كانت لا تزال هناك فرص كبيرة لإعادة بناء دولة جديدة، وبصورة اكثر وضوحاً.

وهذا الترهل لا يقتصر على سياسة الدولة الداخلية، لا بل اجتاز ذلك، لتؤثر على سياستها الخارجية التي تشكلت بناء على التوجهات الداخلية، لتخلق مجموعة من سياسات المحاور المبنية على الدعم الخارجي. هذا إلى جانب المنطلقات الفكرية والايديولوجية لصانع القرار. ايضاً اثرت السياسات الاقليمية والدولية على الوضع العراقي السياسي بعد ان تحولت ارض العراق إلى ساحة للنزاع والتنافس الاقليمي، لإظهار القوة وفتل العضلات، ناهيك عن سياسة الولايات المتحدة الامريكية التي مارست هي ايضاً تلك السياسة، بعد ان فتحت الحدود، لتجعل من العراق ساحة لتصفية حساباتها مع خصوم من الدول وغير الدول، حتى جعلت منه منطقة مصدرة لعدم الاستقرار وتوجيه الاتهامات والتهديدات، ما اعطت اشارات واضحة لدول الجوار، تحديداً للعمل على افشال المشروع الامريكي المراد اقامته في العراق. والغريب في هذه المعادلة المعقدة ان دول جوار العراق لم تتعامل مع الوضع في العراق من زاوية واحدة او محاربة التوجهات الامريكية، بل انها عملت ايضاً على تحجيم قدرات العراق، خوفاً من ان يتعافى، وبالتالي يعود لسابق عهده للمطالبة بهذه الارض ومناصرة تلك القضية. وعليه عملت هذه الدول بمساعدة الداخل الحزبي على جعل العراق موحداً ضعيفاً ممزقاً افضل من ان يكون مجزأ قويا.

كل هذه الاحداث التي تم التطرق لها بصورة سريعة سارت ـ كما ذكرنا ـ وفق المرجعيات الفكرية والعقائدية للأحزاب المعنية في إدارة الدولة التي اثبتت بعد سنوات من حكمها العراق على انها غير قادرة على تلبية الطموح، لا بل كانت هي المنتج الاساس للأزمات التي اثرت في سلوك صانع القرار والمزاج الاجتماعي الساخط على سياساتها. فهي التي انتجت التحديات والاشكاليات، وهي ما احدث الشرخ الكبير بين طبقات المجتمع العراقي، وهي ما اسست للفساد الذي انتهى بدخول داعش الارهابي 2014 وهي التي تمت في عهدها اكبر عمليات تبديد للاموال، واكبر عدد من الضحايا بين المواطنين، وهي التي انتجت واقعاً اجتماعياً بائساً من خلال قتل الايمان بالهوية الوطنية الجامعة، واسهمت في تغذية وتعزيز الهويات الفرعية من خلال السيطرة على العقول والسماح لها بالتقوقع على ذاتها، والتي بدورها هددت النسيج الاجتماعي العراقي على مدار سنوات.

بالمحصلة، بعد كل هذه المآسي التي

مر بها العراق، لا بد من ان نجد الكثير من الاصوات التي تشكك وتعترف بعدم جدية القادم، مهما كان مشروعه وافكاره وتوجهاته، وهذا ما واجهه السيد عادل عبد المهدي حتى بعد المقبولية السياسية التي نالها من القوى الحزبية. فقد جاء عبد المهدي وهو محمل بالعديد من الملفات التي تثقل كاهله وكاهل الحكومة المشكلة من قبله، وبعيداً عن الانتصارات التي حققها العراق على داعش الارهابي وطرده من الاراضي العراقية، إلا ان هناك ملفات كثيرة لم يستطع رئيس الوزراء السابق حيدر العبادي ان يتعامل معها بعقلانية، وبالتالي اصبحت اليوم في ملعب عبد المهدي الذي سيجد صعوبة كبيرة في تنفيذها او ايجاد الحلول السريعة لها، على اعتبارها تراكمات مهلكة ومحملة بالألغام. ومع ذلك فهو الاوفر حظاً في تبديد المخاوف، اذا ما سار وفق اتجاهات صحيحة وعملية، بالرغم من انه محدد بمجموعة من الاجراءات. إلا انه بالمقابل لا بد من ان يعمل على تحديد الاخطاء السابقة والعمل ايضاً على ايجاد حلول منطقية بعيدة عن التمنيات والوعود التي لا يمكن تحقيقها، فان امام عبد المهدي مجموعة من التحديات التي لا يمكن تذليلها إلا اذا تعامل معها وفق رؤية رجل الدولة، الباحث عن الصالح العام دون الميل لتلك الطائفة او هذا الدين او القومية، وان يتعامل مع العراق على انه رقعة جغرافية واحدة دون تمييز او تقسيم او تحييد.

بالنتيجة وبعد مضي عام على تسنمه رئاسة وزراء العراق. بالبداية دار حديث عن ورقة الاستقالة التي لوح بها العديدون، والتي في جعبة عبد المهدي، والتي تم تداول قصتها في العديد من الصحف والقنوات التلفزيونية ومواقع التواصل الاجتماعي. ومن حسن حظ الرجل انه لم يتحدث عنها، وهو ماضٍ في عمله الجديد، لأنها - وبكل بساطة - ورقةً تدل على انهزامية صانع القرار. بالتالي ستساهم في ان يكون له خصوم يعملون على الضغط عليه من اجل استخدامها. بالمقابل هو بحاجة لمجموعة من الوسائل والادوات التي تعينه على العمل بشكل متوازن، بعيداً عن السياسات التي تم رسمها سابقاً والتي اثبتت فشلها وبجدارة.

وبالمحصلة، هو اليوم مطالب بتطبيق برنامجه الحكومي ليس بالكامل، لكن على اقل تقدير الجزء المهم منه، والذي يقتصر على فرض معادلات امنية جادة، همها الاول حياة المواطن وتوجهات خدمية، تسهم في اعادة القليل من الثقة بين المواطن والحكومة. بالتالي فهو مطالب اليوم بتحديد الاهداف والاستراتيجيات وبمديات مختلفة ومتنوعة ومتعددة، تبتعد عن التعقيد وتعكس اهتماما كبيرا من قبل الحكومة.

هنا سوف نستعرض اهم القضايا التي سلط عليها الضوء بعد عام من تسنم عبد المهدي رئاسة الوزراء وبالشكل التالي:

1 - السياسة الداخلية:

- استطاع رئيس الوزراء السيد عادل عبد المهدي، خلق نوع من التوازن الداخلي بينه وبين الكتل الحزبية، باعتماده على المقبولية التي حصل عليها. فقد شهدت الاشهر الاولى من توليه، انجازات بسيطة لكنها نالت استحسان المواطنين، اضافة إلى التحسن النسبي الملحوظ بالوضع الامني الذي عزاه البعض إلى التحالفات التي تم انشاؤها بين جميع الاطراف، لكن هذا لا يعني انه لا يزال يعاني من عدم قدرته على حسم قضايا مهمة

وجوهرية مثل قضية الوزارات الشاغرة التي اصبحت سنة الحكومات في عراق ما بعد 2003، فهي في ذات الوقت تحدٍ كبير له ولحكومته وديمومة عملها. بالنتيجة قد يكون متوازنا في قضايا معينة، لكنه لا يزال يعاني من عدم تحييد الخلافات الحزبية واثرها على عمل الحكومة. ايضاً عمل على أن يقلل من الخلاف بين المركز واقليم كردستان الذي يراه الكثيرون انه تعامل مع هذا الملف، بسلبية مقارنة بحيدر العبادي.

- ما زالت الازمات الاقتصادية تقف عائقاً في تنفيذ البرنامج الحكومي لعبد المهدي والتي تعمل ايضاً على عرقلة اي منجز مهما كان تأثيره، ناهيك عن الديون التي يعاني منها العراق، بسبب الازمات السابقة، وقد تهدد الوضع الاقتصادي بالقريب القادم، إلى جانب احادية الموارد العراقية، الاعتماد على النفط بالشكل الاساس، الذي كان عاملاً رئيساً في قتل القطاعات الاخرى، بعد ان طالها الاهمال. وبالنتيجة فهو مطالب بتفعيل القطاعين الاساسيين الزراعي والصناعي اللذين يسهمان بدورهما في جعل العراق يعيش حالة من الاستقرار النسبي الاقتصادي، واللذين يحققان انعاشا للاقتصاد من خلال التقليل من عمليات الاستيراد الضخمة التي تكلف العراق مبالغ طائلة بالمليارات سنويا من دول الجوار. فتطوير هذه القطاعات يجعل من البلد مكتفياً ذاتياً في بعض السلع التي تساهم في التقليل من الغلاء المعيشي على المواطن، والعمل على دعم القطاع الخاص الذي يعد احد اعمدة الاقتصاد في العالم، والذي بدوره يسهم في ارتقاء الاقتصاد العراقي.

- لا تزال قضية الفساد والمفسدين من القضايا الحساسة، التي لم توضع لها الحلول المناسبة، والتي تعد الشغل الشاغل لكل المعنيين خصوصاً وان العراق احتل مراكز متقدمة ضمن الدول الاكثر فساداً في العالم. وهذا يعكس ضعف العمل الحكومي الخاضع للتأثيرات الحزبية والكتلوية التي انتشرت في مختلف القطاعات والمؤسسات الحكومية، بالتالي فان على السيد عادل عبد المهدي ان يفعل دور القضاء والمفتشين العموميين من خلال فتح ملفات الفساد واحالتها للقضاء، لاتخاذ الاجراءات القانونية اللازمة وقطع الطريق امام المفسدين في التمادي في نشر هذه الآفة التي نخرت جسد الدولة.

- لم تعالج قضية السلاح والجماعات المسلحة التي تسيطر على المؤسسات والمناطق، بالنتيجة بقي السلاح خارج اطار الدولة، وهذا ايضاً يتنافى مع الفقرات الموجودة في برنامج عبد المهدي الحكومي.

- لا تزال قضية الخدمات الشغل الشاغل؛ فالمواطن ما زال يعاني من سوء الخدمات من الماء والكهرباء، وسوء الطرق التي تتسبب كل يوم بعشرات الحوادث التي تودي بأرواح العديد من المواطنين، ومع حلول فصل الصيف، سيعاني المواطن اكثر بسبب انقطاع التيار الكهربائي الذي لا يؤثر على معيشة المواطن، داخل بيته فحسب، انما ايضاً يهدد رزقه.

- بقيت قضية النازحين والمهجرين والمناطق المحررة المهدمة، مهملة بعد مضي سنة على تسنم عبد المهدي. كان من المفترض معالجة هذه القضية من خلال دراسة اوضاع تلك المناطق ميدانياً، والنظر في حال المناطق المحررة التي طالها الدمار والتخريب الذي لا يقتصر على بناء البيوت وتعبيد الشوارع، انما اعادة زرع الثقة بين

مواطني تلك المناطق والعمل الحكومي، وبين المواطن تحديداً والقوات الامنية، من اجل خلق حالة من التعاون والتشاركية في ما بينهم في سبيل غلق الطريق على حدوث احداث السابق.

- لا تزال المحاصصة والمحسوبية والقرابية تهيمن على مؤسسات الدولة والتي تغلغلت في الفكر المجتمعي والسياسي، واسهمت في تعزيز الانشقاق وعدم الثقة. بالتالي على عبد المهدي القضاء على هذه الحالة التي باتت تصبح ثقافة مجتمع ودولة من خلال الاعتماد على ذوي الاختصاص والكفاءة والخبرة من الاساتذة الجامعيين والخبراء في شتى الاختصاصات، إلى جانب ابعاد الجيش والشرطة عن هذه الظاهرة على اعتبارهما مؤسستين وطنيتين لكل العراقيين.

2 - السياسة الخارجية:

تعد السياسة الخارجية لأي دولة واحدة من مخرجات النظام السياسي وتدل على طبيعة صورة هذا النظام وتوجهاته من خلال تفاعله مع الوحدات الدولية التي تشكل النظام العالمي، بالتالي فإننا ندرس هنا تحديداً تأثير السياسة الداخلية على الخارجية من خلال العوامل الداخلية التي تشكل مجموعة من اللوبيات التي تطرح مجموعة من الافكار على وفق معايير تعدها هي مناسبة لإدارة العمل السياسي الخارجي، وايضاً تحديد بعض المسارات التي تنطلق منها الدولة المبنية على اتجاهين؛ الاول، تأثير البيئة الخارجية على الداخل. والثاني، دراسة سيكولوجية صانع القرار والبيئة التي نشأ بها إلى جانب معتقداته وانساق عقدية يتبناها إلى جانب انغلاق وانفتاح العقلية المبنية على تراكم الخبرة.

طيلة هذه الفترة من تسنم السيد عادل عبد المهدي لرئاسة الوزراء والسياسة الخارجية العراقية بالرغم من الضغوط الداخلية المستمرة على عرقلتها إلا انها تسير وفق نسق منضبط وخط مستقيم متوازن مستقر، اذا ما قورنت بسياسة الحكومة السابقة، سيما الانفتاح الواضح على جميع الدول، وفتح محاور دبلوماسية متعددة، في سبيل الوصول للحلول المنطقية التي تساعد العراق على الوصول لبر الامان، وتتيح للعراق فرصاً جيدة للتعامل مع القضايا بمرونة عالية، بعيداً عن العلاقات الصفرية التي كانت متبعة في السابق. بالنتيجة فالعراق بحاجة لان يتوازن في علاقاته، وان يترك سياسة المحاور التي اثرت وما زالت تؤثر على مستقبل علاقاته الدولية؛ فهناك العديد من القضايا التي يستطيع العراق ان يكون محور التلاقي والتفاوض فيها على وفق ثقافة استراتيجية، تعكس قوة العراق الدبلوماسية العقلانية. بالتالي من الممكن في هذه الفترة - تحديداً - ان يكون متعاطيا مع كل القضايا والاحداث الاقليمية والدولية، بدبلوماسية عالية، دون الميل لهذا الفريق على حساب الآخر.

الهوامش

1 - فرانسيس فوكوياما، بناء الدولة: النظام العالمي ومشكلة الحكم والادارة في القرن الحادي والعشرين، ترجمة مجاب الامام، العبيكان، المملكة العربية السعودية، 2007، ص 11.

مصلحة الطفل المحضون وحق الأبوين في الحضانة في ضوء الأحكام القانونية النافذة

القاضي سالم روضان الموسوي

القاضي سالم روضان الموسوي، باحث وكاتب في الشؤون القانونية والقضائية. يشغل وظيفة قاضي في سلك القضاء العراقي، عضو في العديد من المنظمات والجمعيات والمنتديات الثقافية والقانونية والقضائية. مساهم مستمر في الكتابة للصحف العربية والمحلية. صدرت له العديد من الكتب في الجانب القانوني والقضائي، منها: دراسات في القضاء الدستوري العراقي، جريمة اثارة الفتنة الطائفية.

ظهرت في الآونة الأخيرة احتجاجات عبر وسائل الإعلام مثلما ظهر تحرك برلماني لتعديل الأحكام القانونية النافذة التي تنظم الحضانة، وساق العديد من المحتجين أسبابا تدعم قولهم وآراءهم تجاه إلغاء التعديل الذي جرى على المادة (57) من قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 المعدل. وسأعرض الموضوع على وفق الآتي:

أولا/ القوانين التي تنظم عمل الحضانة:

فيما يلي عرض أحكام المادة (57) من قانون الأحوال الشخصية عند صدور القانون عام 1959 المعدل وكذلك قوانين التعديل التي جرت عليها لاحقاً وعلى وفق الآتي:

1. النص الأصلي للمادة (57) من قانون الأحوال الشخصية عند صدور القانون عام 1959م وجاء فيه الآتي:

(1- الأم النسبية أحق بحضانة الولد وتربيته حال قيام الزوجية وبعد الفرقة.

2- يشترط ان تكون الحاضنة بالغة عاقلة أمينة قادرة على تربية الولد وصيانته غير متزوجة باجنبي عن المحضون.3- اذا اختلف الزوجان في اجرة الحضانة ومدتها قدرها القاضي في مصلحة الصغير. 4- للاب وغيره من الاولياء النظر في امر المحضون وتربيته وتعليمه حتى يتم السابعة من عمره، لكنه لا يبيت إلا عند حاضنته، ما لم يحكم القاضي بخلاف ذلك. 5- للقاضي أن يأذن بتمديد حضانة الصغير إذا تبين ان مصلحته تقضي بذلك).

2. التعديل الأول على تلك المادة بموجب القانون رقم 20 لسنة 1978 وهو قانون التعديل الثاني لقانون الأحوال الشخصية النافذ رقم 188 لسنة 1959 الذي جاء فيه الآتي:

1 - الام احق بحضانة الولد وتربيته حال قيام الزوجية وبعد الفرقة ما لم يتضرر المحضون من ذلك.

2 - يشترط ان تكون الحاضنة بالغة عاقلة امينة قادرة على تربية المحضون وصيانته وغير متزوجة بأجنبي عن المحضون.

3 - اذا اختلفت الحاضنة مع من تجب عليه نفقة المحضون في اجرة الحضانة قدرتها المحكمة ولا يحكم باجرة الحاضنة ما دامت الزوجية قائمة او كانت الزوجة معتدة من طلاق رجعي.

4 - للأب النظر في شؤون المحضون وتربيته وتعليمه حتى يتم العاشرة من العمر، وللمحكمة ان تأذن بتمديد حضانة الصغير حتى اكماله الخامسة عشرة اذا ثبت لها بعد الرجوع الى اللجان المختصة الطبية منها والشعبية ان مصلحة الصغير تقضي بذلك، على ان لا يبيت الا عند حاضنته.

5 - اذا اتم المحضون الخامسة عشرة من العمر يكون له حق الاختيار في الاقامة مع من يشاء من ابويه، او احد اقاربه لحين اكماله الثامنة عشرة من العمر اذا انست المحكمة منه الرشد في هذا الاختيار.

6 - للحاضنة التي أنهيت حضانتها بحكم ان تطلب استرداد المحضون منها إذا ثبت تضرر المحضون خلال مدة وجوده معه.

7 - في حالة فقدان أم الصغير احد شروط الحضانة أو وفاتها تنقل الحضانة إلى الأب إلا إذا اقتضت مصلحة الصغير خلاف ذلك وعندها تنتقل الحضانة الى من تختاره المحكمة، مراعية بذلك مصلحة الصغير.

8 - إذا لم يوجد من هو أهل للحضانة من الأبوين تودع المحكمة المحضون بيد حاضنة او حاضن أمين، كما يجوز لها ان تودعه الى دور الحضانة المعدة من قبل الدولة عند وجودها.

9 - اذا مات ابو الصغير او فقد احد شروط الحضانة فيبقى الصغير لدى امه ما دامت محتفظة بشروط الحضانة، وان يكون لأقاربه من النساء او الرجال حق منازعتها فيه، لحين بلوغه سن الرشد.

ان الجديد في هذا التعديل كان على وفق الاتي:

أ. رفع كلمة الام النسبية وجعلها الام احق بالحضانة حيث يرى بعض الفقهاء ان الام النسبية هي التي تكون الصلة بينها وبين ولدها هي الولادة شرعاً، اما الام السببية هي الام التي تلد الطفل من فراش غير صحيح مثل ابن الزنا وغيره، لذلك رأى المشرع العراقي رفع عبارة النسبية وجعل الام بشكل مطلق سواء كانت نسبية او سببية والعلة في ذلك كما يرى اهل الفقه ايضا ان علة الحضانة هو توفر الشفقة لدى الام وتكون واحدة سواء كانت الام انجبت الطفل من فراش صحيح او غير صحيح، ودون النظر الى دينها او قوميتها. كذلك اضاف فقرة تتعلق باجرة الحضانة حيث منع الام من استيفاء اجرة عن حضانتها، طالما كانت الزوجية قائمة او انها في فترة العدة الشرعية، بعد الطلاق على اعتبار ان الزوج يبقى ينفق عليها خلال هذه الفترة، سواء كانت الزوجية قائمة عند الطلاق عبر نفقة العدة.

ب. ان التعديل جاء بأحكام أكثر تفصيلاً في إضافة فقرات تتعلق بسن الحضانة، حيث مددها الى عشر سنوات، بدلاً من سبع سنوات، ثم أعطى للمحكمة صلاحية تمديد حضانة الأم الى سن الخامسة عشرة على ان تكون هناك أسباب صريحة وواضحة، منها

حاجة الطفل للأم تكون اكبر، وكذلك صلاحية الزوجين من الناحية النفسية والعقلية، ومدى توفر السكن الملائم عند الطرفين. أيضا منح في فقرة جديدة الخيار للطفل المحضون ممن اتم الخامسة عشرة باختيار السكن والاقامة مع اي من والديه. وفقرات اخرى اضيفت اكثر تفصيلاً في ترتيب الحضانة عند فقدان الام لشروطها.

3. التعديل الثاني على المادة (57) من قانون الأحوال الشخصية النافذ حيث جرى تعديلها بموجب القانون رقم 65 لسنة 1986 حيث تم تعديل الفقرة (9) من المادة (57) والتي أضيفت بموجب قانون التعديل الأول عام 1978 وجاء فيها الآتي:

أ - اذا فقد ابو الصغير احد شروط الحضانة فيبقى الصغير لدى امه ما دامت محتفظة بشروط الحضانة، دون ان يكون لاقاربه من النساء او الرجال حق منازعتها لحين بلوغه سن الرشد.

ب – اذا مات ابو الصغير فيبقى الصغير لدى امه وان تزوجت بأجنبي عنه من العراقيين بشرط :

1 - ان تكون الام محتفظة ببقية شروط الحضانة.

2 - ان تقتنع المحكمة بعدم تضرر الصغير من بقائه مع الام.

3 - ان يتعهد زوج الام حال عقد الزواج برعاية الصغير وعدم الإضرار به..

ج - اذا اخل زوج الام بالتعهد المنصوص عليه في (3) من البند (ب) فيكون ذلك سببا لطلب التفريق من قبل الزوجة.

في هذا التعديل أضاف المشرع حكم الأب الذي يفقد شروط الحضانة اذا كان حاضنا للطفل فإنها تنتقل إلى الأم، او الى اي شخص اخر ممن ذكره النص، لكن أضاف فقرة جديدة تتعلق بوفاة الأب، وهو حاضن للطفل فان الحضانة تعود للام حتى وان كانت متزوجة باجنبي بمعنى ان الام تبقى فاقدة لشروط الحضانة عند زواجها باجنبي بعد الطلاق، لكن هذا الاستثناء فقط في حال بقاء الاب على قيد الحياة، اما عند وفاته فان الحضانة تعود لها دون منازع.

4. التعديل الثالث للمادة (57) من قانون الاحوال الشخصية بموجب القانون رقم 106 لسنة 1987 الذي جاء فيه الاتي:

(2 - يشترط ان تكون الحاضنة بالغة عاقلة امينة قادرة على تربية المحضون وصيانته، ولا تسقط حضانة الام المطلقة بزواجها، وقرار المحكمة في هذه الحالة احقية الام او الاب في الحضانة في ضوء مصلحة المحضون).

والجديد في هذا التعديل ان المشرع لم يجعل من زواج الام المطلقة برجل اجنبي سبباً لإسقاط حضانتها، إنما منحها الحق في حضانة المحضون حتى وان تزوجت برجل اخر طالما تحتفظ بسائر الشروط الاخرى.

ثانياً/ أسباب احتفاظ الأم بالحضانة:

ان القانون العراقي عند تنظيمه لأحكام الحضانة كان قد اهتدى بالأحكام الشرعية التي استقر عليها اغلب الفقه، وفي جميع المذاهب لكن توجد بعض الاجتهادات التي تتعلق بسن الحضانة بين مذهب واخر، وحتى بين فقهاء المذهب الواحد، الا ان من احتج على وجود هذه المادة، تعلل ببعض الاحكام الشرعية. لذلك سأعرض لها باقتضاب وعلى وفق الآتي:

أ. ان الاعتراض كان يتعلق بسن الحضانة، حيث نادى البعض بالعودة الى ان سن الحضانة سنتان للذكر، وسبع سنوات عند الانثى، على وفق ما يقرره المذهب الجعفري. غير ان هذا الامر لا يقف عند هذه الحدود من العمر، لان هناك من يرى ان الحضانة تبقى للام، حتى يتمكن الولد من الاستقلال بنفسه عن حاجة امه، كما ان هناك من يرى بان تبقى البنت عند امها حتى تتزوج، فضلاً عن ذلك ورد حديث لرسول الكريم (ص) بانه قال (من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين احبته يوم القيامة). وفيه نهي واضح. وهذا الحديث ذكره ابو ايوب الانصاري وعلى وفق ما ورد في (كتاب المبسوط للشيخ الطوسي الجزء الثاني صفحة 21) وهذا يقودنا الى ان سن الحضانة لم يتفق عليه الفقهاء في الشريعة الاسلامية، وهو ليس من الثوابت الاسلامية ويخضع لسلطة المشرع في تقدير سن الحضانة وشروطها، ولا يشكل تحديد ذلك السن أي مخالفة لتلك الثوابت والحضانة كما عرفها الفقهاء بانها تربية الطفل الذي لا يستقل بشؤون نفسه في سن معينة، ممن له الحق في ذلك من محارمه، وذكره القاضي الشيخ علاء الدين خروفه بكتابه (شرح قانون الاحوال الشخصية الصادر عام 1963 في الجزء الثاني الصفحة 220) بان البعض قد استشهد بواقعة حصلت في زمن الرسول الكريم (ص) عندما جاءته امرأة وقالت (انَّ ابْني هَذَا كَانَ بَطْنِي لَهُ وِعَاءً، وَثَدْيِي لَهُ سِقَاءً، وَحِجْرِي لَهُ حِوَاءً، وَإِنَّ أَبَاهُ طَلَّقَنِي، وَأَرَادَ أَنْ يَنْتَزِعَهُ مِنِّي. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ، مَا لَمْ تَنْكِحِي) وهذا الحديث أخرجه ابو داود في سننه ومعظم كتب الحديث البنوي الشريف، وهذا يعني ان الحضانة للام دون أن يحدها حد، بشرط ان لا تتزوج باجنبي، كذلك فان الشريعة قد أعطت للصبي المحضون حق الاختيار في البقاء مع من يرغب من والديه. وذكرت كتب الحديث ايضا ومنه في سنن ابي داود بان امرأة قَالَتْ (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ زَوْجِي يُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ بِابْنِي وَقَدْ سَقَانِي مِنْ بِئْرِ أَبِي عِنَبَةَ وَقَدْ نَفَعَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ''اسْتَهِمَا عَلَيْهِ''، فَقَالَ زَوْجُهَا: مَنْ يُحَاقِّنِي فِي وَلَدِي؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :''هَذَا أَبُوكَ وَهَذِهِ أُمُّكَ، فَخُذْ بِيَدِ أَيِّهِمَا شِئْتَ''، فَأَخَذَ بِيَدِ أُمِّهِ فَانْطَلَقَتْ بِهِ. لذلك نجد ان سن الحضانة ليست من الثوابت المقدسة عند المسلمين وانما تخضع لظروف المجتمعات والبلاد.

ب. مما لا شك فيه ان ظروف العراق الآن هي غير ظروف المجتمع قبل مئات السنين، عند صدور بعض الفتاوى أو الآراء الفقهية. ومن هذه الظروف على سبيل المثال ما حصل في العراق اثناء فترة احتلال داعش التكفيري لبعض مناطق العراق، وتزوج أعضائه من فتيات عراقيات، سواء برضاهن او بغير رضا، فان من الاثار وجود اطفال من ثمرة هذه الزواجات، فهل يصح ان نسلب النساء العراقيات اللواتي عدن الى حضن الوطن، ونعطي الحضانة للآباء الدواعش، ونسلمهم الاطفال، ومن ثم نسهم في قيام اجيال جديدة من الإرهابيين؟ لذلك أرى إن الأمر لا يتعلق بالجانب العقائدي او الديني، إنما بالجانب التربوي والاجتماعي، ولن نناقش الموضوع بهذا الإطار، وليس باطار ضيق ونتعلل بما لم نعتقد به أحيانا ونتقاطع معه في حالات كثيرة، لكن نتمسك به، لأنه يتفق ومصالحنا الشخصية.

ومن خلال ما تقدم عرضه، فانا ارى ومن خلال تجربتي في قضاء الأحوال الشخصية، ان المشكلة ليست في أحكام الحضانة، فإنها الآن تمثل النص الأفضل والأمثل الذي يتجاوب مع متطلبات المرحلة، التي يمر بها العراق. لكن ارى ان المشكلة تكمن في كيفية مشاركة الأب في تربية اولاده ورعايتهم على الرغم من ان المادة (57) من قانون الأحوال الشخصية قد منحت الأب حق الرعاية والتربية، لكن في ارض الواقع إن الأب غير قادر على ذلك، لان كل ما منحه القانون في سبيل الرعاية هو حق المشاهدة للمحضون، وما سار عليه العمل القضائي بان يمنح الأب حق مشاهدة المحضون لمدة يومين في الشهر، وعادة لمدة ثلاث ساعات، وتكون إما في مقر المجلس البلدي، او في مقر محكمة الاحوال الشخصية، واعتقد ان هذه لا تكفي لان يتولى الأب رعاية ابنائه او تربيتهه، خصوصا وهو مسؤول عن أفعال ذلك الصبي، ان وقع منه اعتداء على الغير، وعلى وفق أحكام المادة (218) من القانون المدني رقم 41 لسنة 1951 المعدل التي تنص على أن (يكون الأب ثم الجد ملزماً بتعويض الضرر الذي يحدثه الصغير)، وأحكام المادة (29) من قانون رعاية الأحداث رقم 76 لسنة 1983 المعدل، ومناط تحقق هذه المسؤولية هو الإشراف المباشر على تربية الأبناء، ونشوء الطفل في ظل رعايته. لذلك أرى أن يتم تعديل أحكام المشاهدة، ويتم ذكرها تفصيلاً في نص المادة (57) من قانون الأحوال الشخصية النافذ، وإلغاء جميع القرارات الأخرى، ومنها قرار مجلس قيادة الثورة المنحل، رقم 6 لسنة 1992 الذي كان ينظم أحكام المشاهدة في مقر الاتحاد العام لنساء العراق المنحل، واقترح الاتي:

أ. أن يكون التعديل بما يوفر للأب حق المصاحبة ومبيت الطفل المحضون عنده، لعدة أيام وليالي، وفي ضوء الحاجة إلى ذلك وخصوصا عندما يكون الطفل قد تجاوز عمر العاشرة، لان حاجته الى الام ليست كاملة وانما من الممكن ان يتولى امره بنفسه لعدة ايام.

ب. كما اقترح ان يتم تعديل المادة (57) على أن تتضمن حق الأب بالمصاحبة لان النصوص النافذة لم تتطرق إليها؛ فأصبحت محلا للاجتهاد ومعنى المصاحبة هو أن يتمكن الاب من مصاحبة المحضون خلال النهار إلى أماكن متعددة، دون المكوث في مكان المشاهدة، الذي غالبا ما يكون في دوائر التنفيذ، او مراكز الشرطة او مقر المحكمة، وهذه الأماكن لا توفر الفرصة الحقيقية للتربية، وأصبحت وسيلة لإيذاء أم المحضون، بينما حق المصاحبة يمكن الأب من التجول مع المحضون، والانتقال به إلى أماكن الترفيه او المتنزهات والأماكن الصالحة الأخرى، على أن تتم إعادته إلى أمه قبل غروب الشمس دون المبيت عند ابيه، لان التعديل المقترح لم يتطرق الى هذه الحالة، حيث حدد فقط المشاهدة والمبيت دون الالتفات إلى هذه الحالة، وارى ان تكون صيغة الفقرة المقترحة على وفق الآتي (للأب حق مصاحبة المحضون الذي بلغ السابعة من العمر على أن يبيت عند الأم) وتحديد العمر ببلوغ السابعة، لان الطفل يكون قادرا على الاستغناء عن رعاية الأم خلال النهار، وهو سن الدخول إلى المدرسة الابتدائية وفي ذلك فرصة اكبر للتوفيق بين الأب وولده في الرعاية والتربية.

الرأسمالية المعولمة والنزعة الوطنية الديمقراطية

لطفي حاتم

د.لطفي حاتم، كاتب وباحث عراقي، حاصل على شهادة الدكتوراه في القانون الدولي/ تاريخ ونظرية الدولة والقانون. عميد كلية القانون والسياسة في الاكاديمية العربية المفتوحة في الدانيمارك. له عشرات البحوث المنشورة في مجال العلاقات الدولية. صدرت له عدة كتب منها: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية؛ آراء وأفكار حول التوسع الرأسمالي، موضوعات في الفكر السياسي المعاصر، التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية الوطنية، المنظومة السياسية للدولة الوطنية والاحتجاجات الشعبية، العولمة الرأسمالية والكفاح الوطني الديمقراطي. كما نشر العديد من البحوث في (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة.

حملت الطبقة البرجوازية، ومنذ نشؤها ومراحل تطورها المختلفة، الكثير من الموضوعات الغنية للفكر السياسي، وانعكس ذلك الغنى على تطورها كأسلوب انتاج فاعل ومقرر في العلاقات الدولية برغم مرافقة تطورها كثير من النزاعات والحروب الداخلية ـ الخارجية، ناهيك عن قوانين الاستقطاب الاجتماعي المتمثلة في الفقر المدقع والغنى الفاحش وما نتج عن ذلك من اندلاع الثورات الاجتماعية التي توجت بانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى.

لضرورات البحث المكثف، نحاول الابتعاد عن الفوارق الاجتماعية والفكرية الكثيرة بين اسلوبي الانتاج: الرأسمالي ـ الاشتراكي. ونتوقف عند الفكر السياسي وتغيراته في حقب النزاعات السياسية ـ الاجتماعية الكبرى ولهذا نقف عند اهم الموضوعات الفكرية والسياسية التي تركت اثارها على مسار التطور التاريخي لكلا المعسكرين.

تأسيسا على ذلك النهج، نتوقف عند موضوعتين هامتين في الفكر السياسي المعاصر: الأولى، منهما تخص العلاقة بين الرأسمالية والقضية القومية. والثانية تتعلق بالرأسمالية المعولمة والكفاح الوطني ـ الديمقراطي.

استنادا الى تلك العدة المنهجية وموضوعاتها الفكرية ـ السياسية المثارة نتوقف عند المفصل الاول الموسوم بـ:

أولا- الرأسمالية والقضية القومية:

ـ ترافق تطور الرأسمالية وتنامي فكرها القومي مع تمتين وحدة تشكيلتها الاجتماعية عبر تعاون طبقاتها الاجتماعية ضد البعثرة الاقطاعية وبهذا السبيل، اندلعت الثورات البرجوازية الكبرى، جارة معها الطبقات الاجتماعية المنتجة نحو التحالف الهادف الى تعميم اسلوب الانتاج الرأسمالي، وتجاوز التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية، وبنائها السياسي المتسم بالفردية والانعزالية.

ـ حققت البرجوازية مع طبقات وفئات تشكيلتها الاجتماعية انتصارات كبرى بتعميم اسلوب الانتاج الرأسمالي برغم بشاعة جوهره الطبقي الهادف الى استغلال اليد العاملة, وبهذا المسار بلورت الرأسمالية المتسيدة طبقاتها الاجتماعية الكبرى، متمثلة بالطبقتين البرجوازية ـ العاملة المستندتين على شرعية ديمقراطية.

ـ خاضت البرجوازية الناشئة صدامات وحروبا داخلية وخارجية، لغرض ضمان تطورها السياسي الهادف الى هيمنة طبقية قادرة على المنافسة بين الرأسماليات الوطنية الناهضة في البلدان الاخرى، لغرض السيطرة على الاسواق العالمية وسيطرتها على مكامن الثروة الوطنية للدول الاخرى، حاملة نظامها الكولونيالي المتمثل بإقامتها دولا وطنية في البلدان المفتوحة، محاطة بسيادة وطنية وهمية، عنيت في الجوهر سيادة مصالح الرأسمالية، وتعزيز قوتها التسلطية في المرحلة الجديدة من حركتها الكونية.

ـ أثارت حروب الرأسماليات المتسيدة، موجة كبيرة من حركة التحرر الوطني، والتي توجت كفاحها باستقلال الكثير عن الدول الكولونيالية التي شكلت حكومات وطنية، ساعية الى تعزيز تنميتها الاقتصادية وصيانة استقلالها وسيادتها الوطنية.

ـ نهوض الدول الوطنية المستندة على الاستقلال الوطني وتنمية البرجوازية الوطنية، لم يمنع تبعيتها الاقتصادية والسياسية مع الدول الامبريالية.

ـ ساهمت الرأسمالية الاحتكارية بنهوض حركة التحرر الوطنية، فضلا عن توطد اسلوب الانتاج الاشتراكي الذي ألهم بدوره القوى القومية والحركات الشعبية الوطنية، وحثها على اقامة نظم سياسية، تتوخى الشرعية الوطنية والعدالة الاجتماعية.

ـ افضت الحرب العالمية الثانية التي اشعلتها الدول الرأسمالية الى اختلال مكامن النفوذ والهيمنة للقوى المتنازعة في البلدان الوطنية، ناهيك عن محاولات تخريب الدول الاشتراكية التي اصبحت عاملا دوليا فاعلا في العلاقات الدولية ـ الوطنية.

ـ ادى نهوض المعسكر الاشتراكي ومشاركته النشطة في العلاقات الدولية الى انقسام العالم الى نظامين اجتماعيين دوليين، الامر الذي شجع الكثير من الدول الوطنية على تبني التنمية الاشتراكية كخيار للتنمية الوطنية.

ـ أدى نجاح حركة التحرر الوطني الى نشوء دول وطنية مناهضة للامبريالية وأساليبها الاقتصادية، وما نتج عن ذلك من انقسام الدول الوطنية بين مناهض للتنمية الرأسمالية، ومساند للدول الاشتراكية، وبين نظم سياسية مناهضة لليسار والدول الاشتراكية.

ـ ادت هيمنة الفكر القومي في الكثير من

الدول الوطنية، ومنها بلداننا العربية، الى معاداة الاشتراكية وأحزابها اليسارية الفاعلة، وما افرزه ذلك من سيادة نظم ديكتاتورية مناهضة للتوجهات الديمقراطية.

ـ تراجع الفكر القومي في الدولة الوطنية بعد سيادته في الكثير منها، بسبب محدودية فاعليته الاجتماعية ومناهضته للمصالح الاساسية للقوميات والقوى الديمقراطية الاخرى، فضلا عن عجزه عن تنمية اقتصاد بلاده الوطنية.

ـ افضى تراجع الفكر القومي وقيادته للدولة الوطنية الى تحالفات كثيرة مع الخارج الامبريالي، مرتكزة على تشابك الرأسمال الاجنبي في الاقتصادات الوطنية.

ـ تلازم انهيار التجربة القومية وانهيار النظم الاشتراكية وسيادة الرأسمالية المعولمة ونهوض النزعة الوطنية الهادفة الى المساواة بين الدول في العلاقات الدولية والدعوة الى التحالفات السياسية في الداخل الوطني.

ثانياً ـ الوطنية الديمقراطية والعلاقات الوطنية:

ـ ادى انتقال الرأسمالية من مرحلتها الاحتكارية الى مرحلتها الاممية، الى حدوث تغيرات في الفكر السياسي الناظم للعلاقات الدولية، فضلا عن تبدلات في المهام الكفاحية للقوى الوطنية ـ الديمقراطية.

ـ تطور النزعة الكسموبولوتية لدى الرأسماليات المعولمة، افضى الى تراجع القضية القومية، الأمر الذي دفع القوى الوطنية ـ الديمقراطية، الى مسار آخر، يتلخص بالوطنية الديمقراطية.

ـ الوطنية الديمقراطية في الظروف التاريخية الملموسة تعني المساواة بين الدول في العلاقات الدولية والتوازن بين مصالح طبقات وفئات تشكيلتها الاجتماعية.

ـ تشترط الوطنية الديمقراطية بناء أنظمة سياسية ديمقراطية، تستند على تعاون الطبقات الاجتماعية الفاعلة في التشكيلة الاجتماعية بهدف صيانة الدولة الوطنية من الهيمنة الرأسمالية.

ـ اقامة علاقات في الداخل الوطني على اساس موازنة المصالح الاجتماعية ومكافحة ميول الطبقات الاجتماعية الساندة للكسموبولوتية في العلاقات الدولية.

ـ تعمل الوطنية الديمقراطية الوطنية في العلاقات الدولية على استبعاد التهميش والإبعاد اللذين تشترطهما الرأسمالية الكسموبولوتية في العلاقات الدولية.

ثالثاً ـ برنامج الوطنية الديمقراطية:

برنامج الوطنية الديمقراطية الذي تعتمده القوى اليسارية الاشتراكية والقوى الديمقراطية، بديلا عن برنامج المرحلة الانتقالية ينطلق من الموضوعات الفكرية والسياسية الآتية:

1ـ مناهضة نزعتي التخريب والإبعاد الرأسماليتين، وتعزيز التحالفات الطبقية بين الطبقات الاجتماعية الفاعلة في التشكيلة الوطنية.

2 ـ الطبقات الاجتماعية الفاعلة في التشكيلة الاجتماعية الوطنية، تتحدد بالطبقة البرجوازية بفصائلها الوطنية المناهضة للهيمنة الأجنبية والطبقة العاملة المتحالفة مع شرائح الفلاحين في الريف الوطني.

3 ـ اقصاء الطبقات الاجتماعية الموالية

للرأسمالية الكسموبولوتية في مقدمتها البرجوازية التجارية وأقسام من البرجوازية المالية، وإبعادها عن المشاركة في التحالفات الاجتماعية.

4 ـ بناء علاقات وطنية ـ دولية على قاعدة التوازنات السياسية المبنية على مراعاة المصالح الاساسية للطبقات الاجتماعية، فضلا عن مناهضة نزعة التطرف والطائفية السياسية في العلاقات الوطنية.

5 ـ تلبية مصالح الطبقات الفقيرة عبر بناء شبكة الضمانات الاجتماعية الضامنة لتطور الطبقات الاجتماعية وصيانة متطلباتها المعيشية.

يستمد برنامج الوطنية الديمقراطية المشار اليه، فعاليته السياسية من وقائع العلاقات الدولية الراهنة المتسمة بـ:

ـ اعتبار الثورة الاشتراكية هدفا استراتيجيا في الظروف التاريخية المعاصرة، واستبدالها بالتحالفات الوطنية ـ الديمقراطية الهادفة الى بناء الدولة الوطنية وصيانتها من التبعية والتهميش، عبر تعزيز مصالح طبقات تشكيلتها الاجتماعية.

ـ استبدال الشرعية الانتخابية الفاقدة لروح المنافسة الطبقية بشرعية انتخابية ديمقراطية، قادرة على بناء نظم سياسية ديمقراطية، تحمي السيادة الوطنية من الهيمنة الخارجية.

ـ بناء علاقات دولية على اساس توازن المصالح الوطنية ـ الدولية واستبعاد الهيمنة الدولية على مسار تطور الدول الوطنية.

ـ مكافحة ميول الهيمنة والتخريب التي تحملها الرأسمالية الكسموبوليتية وبناء علاقات دولية، تستند الى نمو وازدهار التشكيلة الاجتماعية الوطنية عبر تلبية مصالحها الطبقية.

ـ مكافحة التكتلات العسكرية الإقليمية ـ الدولية الهادفة الى مناهضة الدول الاخرى، والتأكيد على التعاون الدولي المبني على تنمية المصالح المشتركة.

ـ ان برنامج الوطنية الديمقراطية يهدف الى تحقيق تغيرات جوهرية في العلاقات الدولية ـ الوطنية، ينطلق من الرؤى الفكرية ـ السياسية التالية:

أولا ـ صيانة الدول الوطنية من نهوج العولمة المتسمة بالإلحاق والتفتيت.

ثانيا ـ توازن المصالح الطبقية بين الطبقات الاجتماعية الفاعلة في التشكيلات الاجتماعية الوطنية.

ثالثا ـ اقامة نظم سياسية ديمقراطية تعمل على سيادة الشرعية الديمقراطية المرتكزة على البرامج الوطنية، بدلا من سيادة شرعية انتخابية فاقدة لروحها الديمقراطية.

رابعاً ـ صيانة منظومة الدولة السياسية ـ وتشكيلتها الاجتماعية ـ من الحروب الداخلية والخارجية المباركة من العامل الخارجي والهادف الى اعاقة نمو وتطور الدولة الوطنية.

اخيرا، لا بد من الاشارة الى ان الدلالات المشار اليها، تشكل عوامل كابحة لميول الرأسمالية الهادفة الى الحاق الدول الوطنية بعجلتي التبعية والتهميش.

ابرز المعوقات التي تواجه قطاع التربية في محافظة ذي قار

الدكتور شهيد الغالبي

الدكتور شهيد الغالبي، تولد مدينة الشطرة عام 1952، خريج دار المعلمين في الناصرية، بكالوريوس علم اجتماع، ماجستير ودكتوراه في التاريخ الاسلامي. نائب نقيب المعلمين في محافظة ذي قار، وعضو مجلس محافظة ذي قار ورئيس لجنة التربية والتعليم العالي في المجلس المحلي.

في الاجواء المعتمة التي نعيشها في العراق، وفي ظل الخراب المجتمعي متعدد الصُعد الذي نستشعر وطأته يوميا، فإنا لا نمتلك غير التعليم وسيلة اساسية للمعالجة. اذ يؤمن الجميع ان اهم وسائل القضاء على الجهل والتخلف هي بالتعليم الناجح، وان الدولة المدنية - دول القانون والمؤسسات - تستدعي بالضرورة انشاء اسس تعليمية معاصرة، مستندة الى فلسفة تربوية معاصرة. لكن وعلى الرغم من تخصيص ما يقارب (22) مليار دولار امريكي على قطاع التعليم الاساس منذ العام 2003 لكن ملفات الفساد ابقت الحال على ما هو عليه، بل السير باتجاه الاسوأ. وبالتالي، نجد ان هناك شبه اجماع لدى مختلف الاوساط من مثقفين ومختصين بالشأن التربوي، والعراقيين عامة على ان قطاع التعليم في العراق يشهد تدهوراً مريعاً خلال الـ(16) سنة الاخيرة.

إن المتابع للشأن التربوي في العراق وبالأخص الباحث في قضية التعليم بحيادية وعلمية، يجد ان هذا القطاع المهم يعاني من مشاكل كبيرة وبصورة لا يمكن انكارها او التغاضي عنها، أوصلت التعليم الى مستويات متدنية وخطيرة. والعجيب ان مشاكل العام الدراسي الحالي هي نفسها مشاكل العام المنصرم، لكن لا حل يلوح في الافق وغالبا ستبقى هي وما سيستجد مشاكل العام المقبل. وهذه المشاكل تبدأ من اسلوب التلقين في طرق التدريس، الذي يستهين بقدرات الطالب العقلية، وازدواج الدوام واكتظاظ الصف الواحد بأعداد كبيرة من التلاميذ والتسرب من المدارس، ومرورا بتسييس النظام التربوي، والعشوائية الواضحة في السياسات التربوية، والعنف اثناء التعليم، وابتعاد قسم غير قليل من الكادر التعليمي عن المهنية وضعف التأهيل والتدريب والاعداد، وانتهاء بمعضلة التبديل

المستمر للمناهج الرسمية، وتجهيز اللوازم المدرسية والأثاث المدرسي والقرطاسية، وسطوة الطبقية في التعليم وانتشار التعليم الاهلي والخاص، وانتشار الفساد الاداري والمالي في بناء المدارس وأعمال الصيانة والترميم.

وللوقوف على ازمة التعليم في العراق ميدانياً، وكي نسبر اغوار العملية التربوية ومشاكلها، سنقدم سياحة ميدانية سريعة في الاحصائيات الرسمية لواقع التربية في محافظة ذي قار بالأخص من ناحية البنى التحتية، كشرط ضروري من اجل تحديد انجع الطرق لحل مشاكله مستقبلا.

ان احد اكبر التحديات التي تواجه قطاع التربية في محافظة ذي قار هو: قلة الابنية المدرسية مقابل التزايد المستمر في اعداد الطلاب. حيث يصل عدد الطلاب في المدارس الى ما يقارب (600000) طالب يتوزعون على مختلف المراحل الدراسية. والمدارس الحكومية تستوعب حاليا اضعاف طاقتها الاستيعابية حيث ان هناك اكتظاظا كبيرا في الصفوف الدراسية خصوصا في المناطق الشعبية، قد يصل العدد في بعض الاحيان الى حدود (100) طالب في الصف الدراسي الواحد. ولهذا السبب برزت بقوة ظاهرة الدوام الثنائي وحتى الثلاثي حيث هناك ما يقارب الـ (600) بناية مدرسية تعمل بنظام الدوام الثنائي او الثلاثي، وايضا ظاهرة إشغال جميع الصفوف وادى ذلك إلغاء المختبرات والمكتبة المدرسية وتحويلها الى صفوف، ناهيك عن اهمال دروس الرسم، والنشيد والموسيقى والتربية الرياضية. ان هذا الزخم الكبير في الصفوف انعكس سلبا بصورة كبيرة على المستوى الدراسي للطلبة، وعلى نسب النجاح، لأنه كان حائلا دون ايصال المادة العلمية لهم، وقلل بشكل كبير من متابعتهم؛ فالمعلم بالكاد يتمكن من شرح الدرس، ولا يمتلك الوقت الكافي ليهتم بتفاعل الطلبة او مشاركتهم، او حتى الرد على اسئلتهم واستفساراتهم.

يبلغ عدد المدارس الكلي الحكومي والاهلي في محافظة ذي قار (2163) مدرسة، حسب احصائيات عام 2018، بينما يبلغ عدد الابنية المدرسية (1310)، وبالتالي تحتاج المحافظة الى ما يقارب (800) بناية مدرسية، لكي يصبح الدوام احاديا في جميع أو اغلب مدارس المحافظة. لكن هذا من الناحية النظرية الحسابية فقط، التي لا تمثل سوى جزء يسير من واقع التعليم المأساوي. لأن هناك اعدادا غير قليلة من الابنية المدرسية قديمة جداً، وبعضها غير صالح حتى للتدريس. فما يقارب (570) بناية مدرسية بحاجة الى تأهيل وترميم شبه كامل، منها حوالي (270) بناية مدرسية، تم اخلاؤها لكونها غير صالحة للإشغال وآيلة للسقوط. وهناك ما يقارب (130) بناية تمثل المدارس الطينية او الكرفانات التي يجب استبدالها. ومدارس الطين تنتشر في المناطق الريفية والنائية، فيما هناك (690) بناية مدرسية تقريبا بحاجة الى ربط بشبكة المجاري العامة، وحوالي (540) بناية بحاجة الى ربط بشبكة المياه العامة، والى ايصال مياه صالحة للشرب. وهناك بحدود (80) بناية تعتبر مجاميعها ومرافقها الصحية غير صالحة وآيلة للسقوط، او لا تتوفر فيها هذه المجاميع اصلا. كما تنتشر الافاعي والحشرات في عدد غير قليل من الابنية

المدرسية، خصوصا حشرة الارضة، مما يستلزم مكافحتها بصورة فاعلة بالتعاون والتنسيق مع الجهات الرسمية المختصة.

وما زالت الكثير من المدارس تعاني شحا في الاثاث المدرسي خصوصا الرحلات، فهناك مدارس يفترش طلبتها الارض. هذا بالإضافة الى عدم توفر الوسائل التعليمية الحديثة في غالبية المدارس، ولا وسائل العرض أو السبورات الحديثة، ناهيك عن المختبرات، بسبب شح الموارد والتخصيصات المالية للمدارس. كما ان هناك نقصا في عدد القاعات المتعددة الاغراض، التي يمكن ان تستخدم كمراكز امتحانية للامتحانات العامة والمدرسية، لان عدد التلاميذ والطلبة يزداد باضطراد. بالإضافة الى ان توزيع القرطاسية على الطلبة، اقتصر على بعض المراحل الدراسية فقط وحرمان مراحل اخرى، مع التأكيد على ان القرطاسية الموزعة قليلة، ولا تتعدى غالبا تزويد التلاميذ بدفترين او ثلاثة. ولان اغلب تلاميذ المحافظة من ابناء الفقراء، فإن شح القرطاسية اثقل كاهل أولياء امورهم، وساهمت مع غيرها من المشاكل الاخرى بزيادة اعداد المتسربين، الذين وصل عددهم حسب الإحصائيات الى عشرات الالاف.

واذا كان للفساد الاداري والمالي دور مهم في وصول معضلة البنايات المدرسية الى ماهي هي عليه حاليا، بالإضافة الى عدم الجدية في متابعة المشاريع والعقود التي تنفذ سواء من الوزارات او من بعض المقاولين، فان الازمة الاقتصادية التي مر بها البلد في السنوات الاخيرة من جهتها قد فاقمت الازمة كثيرا، فقد تسببت بتقليل التخصيصات المالية الموجهة نحو صيانة وتأهيل المدارس، ضمن خطة الموازنة الجارية. كما ادت الازمة الى توقف العمل في الكثير من مشاريع بناء المدارس. مع ملاحظة ان العمل استأنف من اجل انجاز عدد منها نهاية عام 2018. طبعا لا يمكن ان نتغاضى عن مشكلة اساسية اخرى؛ فالمساحات المخصصة ضمن التصميم القطاعي لمراكز المدن لغرض بناء مدارس هي الاخرى قليلة، ولا تتناسب مع الزيادة السكانية.

من جهة اخرى، فإنه بمقابل تلك الاعداد الكبيرة من الطلبة هناك شح مطلق في الكادر التعليمي؛ فهناك تقريبا (32000) معلم ومدرس في عموم المحافظة فقط. ومن جهة اخرى هناك شح في بعض التخصصات الرئيسية بالأخص العلمية منها. وبينما نجد تكدسا ملحوظا للكادر التعليمي في بعض المدارس خصوصا في مراكز المدن، نجد ان المدارس في المناطق الريفية والنائية تعاني انخفاضا واضحا في اعداد المعلمين والمدرسين. وانفردت محافظة ذي قار بتعيين (3765) مدرسا ومعلما وموظفا إداريا، وتم التركيز في التعيين على الاختصاصات الدقيقة التي تعاني من الشح، منها اختصاصات الانكليزي والرياضيات والفيزياء. كما ان هناك عزوفا واضحا من قبل المعلمين والمدرسين عن اداء واجباتهم في مراقبة الامتحانات العامة. وأحد اسباب ذلك، تفشي ظاهرة الغش بين التلاميذ وحصول الكثير من المشاكل في المراكز الامتحانية، ليس مع التلاميذ فقط وانما مع اولياء امورهم ايضا، قد تصل في بعض الاحيان للتجاوز على الهيئات التدريسية والتعليمية.

أما المؤسسات التعليمية الأهلية في المحافظة، فتشمل رياض الاطفال وعددها (21)، والمدارس الأهلية الابتدائية بعدد (108)، والمدارس المتوسطة بعدد (7)، والاعدادية بعدد (2)، والثانوي بعدد (128)، ومعاهد التقوية بعدد (21). ان التعليم الأهلي جزء من العملية التربوية وساند للتعليم الحكومي، كما انه يخفف العبء على التعليم الحكومي ويستقطب أعداداً من التلاميذ والطلبة. وهو خاضع لتعليمات وقوانين وأنظمة وزارة التربية. ومن ابرز مشاكل التعليم الاهلي والاجنبي هو ارتباط عدة دوائر حكومية في عمل التعليم الاهلي مما يؤدي الى تأخر انجاز المعاملات (فتح – تجديد) وعدم دعم القطاع الحكومي في تطوير واقع التعليم الاهلي، كأن يكون (توفير فرص استثمارية) او تخفيض نسب الضرائب. كذلك صعوبة الحصول على مدراء متقاعدين او خريجين غير معينين (لديهم 5 سنوات) خدمة فعلية في المدارس الاهلية في الاقضية والنواحي، وعزوف البعض الآخر في حالة توفر الشروط لديهم. والتأخير من قبل الوزارة في الموافقة على المدراء وصدور الاوامر الادارية بعد شهر. دون ان نتغاضى عن أن عددا غير قليل من المؤسسات التعليمية الاهلية، ما زال دون المستوى المطلوب تعليميا وخدميا.

أما الاشراف التربوي - يسمى المشرف التربوي حاليا بالصديق الناقد - في محافظة ذي قار، فإنه يعاني مشاكل عديدة من ابرزها: قلّة عدد المشرفين الاختصاص، خاصة لمواد الانكليزي والرياضيات، قياساً بعدد المدارس. كما ان العدد الكلي للمشرفين لجميع المراحل الدراسية، قليل ايضا، فهو يقارب (400) مشرف. وان الدورات التي تتعلق بالاختصاص والامور التربوية الاخرى، ما زالت قليلة، وكثرة المهام التربوية المختلفة كالتحقيقات والنفقات، خاصة في الامور غير التربوية، والتقاطع بين توجيهات الوزارة والحكومة المحلية احياناً، والحاجة الى شعب قانونية وحسابية لكل قسم، لتتولى تنظيم العمل وصرف مستحقات المشرفين، والتدخلات الخارجية في العمل ومحاولة التجاوز على الضوابط والتعليمات. وأخيرا قلّة الدعم المالي للمشرفين حيث لم تصرف مخصصاتهم بالكامل لمدة (5 سنوات).

أما قسم شؤون المناهج والتقنيات التربوية، فإنه يضم اساسا عددا من الشعب المهمة مثل: شعبة المناهج والمكتبات، شعبة التقنيات التعليمية، شعبة التعليم الالكتروني. كما انه شكل العديد من اللجان التخصيصية. هناك معوقات تواجه عمل القسم، أهمها التخصيص المالي قليل جداً، ولا يفي باحتياجات القسم مثل تخصيص مبلغ (3300000) دينار، لشراء الكتب والمجلات لعام 2018. في حين في الاعوام السابقة كان المبلغ المخصص لشراء الكتب والمجلات اكبر بكثير. فمثلا في عام 2013 كان المبلغ (400) مليون دينار.

من التجارب المهمة في محافظة ذي قار هي انطلاق مشروع (محو الامية) سنة 2012، حيث سعى قسم محو الامية في مديرية التربية في المحافظة بجدية الى انجاح المشروع. حيث بدأ العمل بحث المواطنين من الاميين على الالتحاق بمراكز محو الامية، التي انتشرت في عموم المحافظة. فاستقطب

القسم في السنة الاولى (60 الف دارس) الى بنحو (700) مركز على الرغم من ان حصة المحافظة كانت (35 الفا)، لكن بسبب تزايد الاقبال على المراكز، تم استحصال موافقة الهيئة العليا لمحو الامية بزيادة الاعداد، ما اضاف جهداً آخر على موظفي القسم المعدودين آنذاك. ومع هذا الجهد والعمل المتواصل، وبالرغم من عديد المعوقات التي واجهت العمل، تم تقييم عمل اقسام محو الامية في العراق من قبل مفوضية حقوق الانسان في البرلمان العراقي، واختيرت محافظة ذي قار الاولى من حيث اعداد الدارسين والمراكز والعمل الاداري الجيد. وتم تكريم القسم في احتفالية حضرها عدد من مسؤولي المحافظة. وقد وصل الشروع الآن الى الدفعة السابعة. ومع تخرج اعداد كبيرة من الاميين وتعليمهم الكتابة والقراءة بدأت اعداد الاميين بالانخفاض نسبيا. وقد حظيت المرأة باهتمام كبير من قسم محو الامية؛ فعمل على توفير الاجواء المناسبة لتعليمهن. كما تبنى قسم محو الامية وضمن خطّة الهيئة العليا لحملة محو الامية على توعية الدارسين علمياً وثقافياً واقتصادياً، وفي سبيل ايجاد اكثر الطرق الكفيلة في ترغيب الدارسين والاميين في الالتحاق بمراكزنا، عمل قسم محو الامية في ذي قار على تطوير عمل المراكز المجتمعية التي تهتم بتعليم الدارسين القراءة والكتابة، بالإضافة الى تعليم المهن المختلفة مثل (الحاسوب – الخياطة – الصالون – الاعمال اليدوية – الاغذية .. وغيرها)، ولكلا الجنسين.

ان كل هذا النشاط جاء بجهود ذاتية من قبل قسم محو الامية، ومعه الكادر التعليمي في المراكز المجتمعية، ولم يكن هناك دعم من اي جهة في توفير معدات العمل او الاحتياجات الفنية واللوجستية للمراكز. وهناك الكثير من المشاكل والمعوقات التي واجهت مشروع محو الامية من اهمها: عدم صرف المخصصات للدارسين والمحاضرين والمدراء والمشرفين، بُعد بعض المراكز عن سكن الدارسين، عدم تثبيت المحاضرين الذين استمروا في التدريس لأكثر من دفعة، ضعف الدعم المقدم من وزارة التربية وكذلك من مجالس محو الامية.

أما معهد الفنون الجميلة فأقسامه هي قسم الفنون التشكيلية والتطبيقية وقسم الفنون المسرحية وقسم الموسيقى والانشاد وقسم الفنون السينمائية. ومعهد الفنون الجميلة في مديريتنا للدراسة الصباحية فقط، ومدة الدراسة في المعهد (خمس سنوات) بعد الدراسة المتوسطة او ما يعدلها. عدد المدرسين في المعهد (19)، وعدد العاملين (3) م. خدمة، أما عدد الطلبة فيبلغ (400) طالب وطالبة. المشاكل التي يعاني منها المعهد هي بناية المعهد التي تعاني الازدواج مع اعدادية صناعة ذي قار. كذلك عدم وجود صحيات للأساتذة وكذلك للطلبة، ونقص في الملاك التدريسي، ووجود شواغر في بعض الاختصاصات التي يجب سدها من قبل المديرية العامة.

قراءة في كتاب "الجيش والسياسة... إشكاليات نظرية ونماذج عربية"

د. هاشم نعمة

الدكتور هاشم نعمة أستاذ جامعي وباحث. حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه، التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

كثيرة هي الكتب التي عالجت موضوعة الجيش والسياسة في العالم العربي، ومنها ما صدر في العراق أو خارجه، خصوصا بشأن ثورة 14 تموز عام 1958، ولكن يندر أن نعثر على كتب تناولت الجانب النظري لهذه الموضوعة المفصلية. لذلك اخترنا تقديم قراءة عن الكتاب المذكور لمؤلفه الدكتور عزمي بشارة، الصادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2017. يقع الكتاب في 224 صفحة. يضم الكتاب ثلاثة فصول تناولت: الجيش والحكم عربيا: إشكاليات نظرية، وفشل بوتقة الصهر العسكرية وبروز الولاءات ما قبل الوطنية في الجيش، الحالة السورية، وتحولات الجيش المصري.

يذكر المؤلف في المدخل بأن الكتاب يبحث في العلاقة بين الجيش والسياسة، ويتناول هذه العلاقة، وتحديدا تدخل الجيش في الحكم، لا بوصفها خطأ أو عارضا من عوارض الابتلاء العربي، بل بوصفها نتاجا لمراحل تاريخية ولطبيعة الدولة العربية وصيرورة نشوئها وبنيتها وعملية التحديث فيها.

الإطار العام

تنطلق الدراسة من فرضية مؤداها أنه لا يوجد جدار فاصل بين الجيش والسياسة بحكم تعريفهما. وللجيوش في الدول النامية

والمستقلة حديث دور في بناء الدولة، وفي فرض تماسكها قبل أن تنجز مرحلة بناء الأمة. وتُظهر الدراسة نتائج استمرار الجيش في الحكم من دون أن تُنجز عملية بناء الأمة، إذ يتحول في هذه الحالة إلى قوة قمعية، تدافع عن النظام القائم، أي عن سلطتها وامتيازاتها، وتفرض الوحدة من الأعلى، أو خارج المكونات الاجتماعية، من دون إنجاز عملية بناء الأمة.

يصل منظرو التحديث في شأن حكم الضباط، من أمثال مانفريد هلبيرن (المتخصص بالشرق الأوسط) وشيلز وهنتنغتون، إلى درجة أنهم ينسبون إلى العسكر دورا تاريخيا نهضويا؛ إذ يشبههم هنتنغتون ببروتستانت غرب أوروبا من ناحية تقديمهم قيم الاستقامة والولاء الوطني، وهي التي يمكن تسميتها بمناقبية جيل الضباط في مراحل مبكرة من بناء الدولة الوطنية. أدى مثل هؤلاء الضباط دورا في البرازيل والمكسيك في نهاية القرن التاسع عشر، واعتمد حلفاؤهم من الإنتليجنسيا الفلسفة الوضعية في تنمية المجتمعات المتخلفة. فالانتقال من الملكية التقليدية إلى بريتورية (1) الطبقة الوسطى يتوسطه العسكر أيضا كأكثر القوى حداثة وتماسكا في بيروقراطية الملكيات المركزية. في هذه الحالة تقع الملكيّة عادة ضحية هؤلاء الذين قوتهم وعززت نفوذهم خدمة لأهدافها، ويؤدي الضباط دورا تحديثيا في البداية؛ إذ يقومون بإصلاح اجتماعي - اقتصادي وعملية اندماج وطني وتوسيع المشاركة السياسية، ليس بوسائل ديمقراطية، بل من خلال تعبئة الجماهير سياسيا، الأمر الذي جرى في بدايات حكم الضباط في العراق ومصر والجزائر، وحتى في سوريا في المراحل الأولى للانقلابات؛ إذ سمحت في مراحلها الأولى (قبل حكم البعث) بنوع من التعددية السياسية.

وبحسب هنتنغتون، يبدو تدخل الجيش في السياسة، جزءا لا يتجزأ من التحديث السياسي بغض النظر عن القارة أو البلد. ولا يقبل البحث عن أسباب الانقلاب في الجيش نفسه، أو في أخلاقيات الخدمة المدنية فيه وخلفيات الضباط الاجتماعية، خلافا لمجهود يانوفيتس في علم الاجتماع العسكري. ففي رأيه أن أسباب الانقلاب ليست عسكرية، ولا يجدر بالباحث أن يحاول تشخيصها في المؤسسة العسكرية ذاتها. فالأسباب، في رأيه، سياسية وكامنة في "بنية المجتمع المؤسسية". التدخل العسكري في السياسة عنده تعبير عيني عن ظاهرة عامة في المجتمعات غير المتطورة. ففي هذه المجتمعات تفتقر السياسة إلى الاستقلالية والتماسك والقدرة على التكيف، وتصبح جميع القوى الاجتماعية والمجتمعات متورطة مباشرة بالسياسة العامة. والمجتمعات ذات الجيوش المسيسة، مصابة بالتسييس في مكوناتها الاجتماعية كلها. ولهذا يظهر الجيش البريتوري في التاريخ. حيث لا تهتم قطاعات المجتمع المختلفة بالسياسة المتعلقة بمهماتها، أو بمصالحها مباشرة فحسب، بل أيضا بالسياسة بشكل عام. ويرى بشارة ربما يُتكأ على هذا التحليل من دون تمحيص لتبرير

تدخل الجيش بالسياسة بصفة عامة وبالحكم بصفة خاصة، في كثير من دول العالم وفي البلدان العربية. ويشير الى أن هذا التحليل ليس صحيحا ولا محايدا. وإن سبب تورط الجيش في السياسة هو هشاشة بنية الدولة ومؤسساتها وضعف الوحدة الداخلية في كيان لم يستقر كدولة حديثة بعد. وتتجلى الهشاشة هذه في العزوف عن السياسة.

ويذكر المؤلف أن الجيوش العربية بُنيت في ظل مراحل الاستعمار القصيرة نفسها، حيث تحكمت ببنيتها مقاربات دول الانتداب وفهمها لبنية المجتمعات العربية، ولا سيما بنيتها الطائفية والقبلية. ويستثنى الجيشان العراقي والجزائري من ذلك إلى حد بعيد؛ إذ استقل العراق مبكرا، ونشأ تواصل فعلي بين ضباطه وضباط الجيش العربي، أما الجيش الجزائري (2)، فظل حتى حكم الرئيس الشاذلي بن جديد استمرارا لجيش التحرير. وقام الشاذلي بمحاولة بنائه على أسس عصرية.

إن المشكلة في حالة البلدان النامية، ولا سيما البلدان العربية، هي أن تطبيق "الاستقلالية المهنية" للجيش قد يكون مجرد زعم، لتحقيق استقلالية جيش فعلا عن المؤسسة السياسية، حيث يكون وزير الدفاع نفسه عسكريا، ويتصرف الجيش بميزانيته من دون رقيب أو حسيب، ويدير علاقات حتى مع الخارج من دون المرور بالحكومة، ويصبح جل همه الحفاظ على امتيازاته التي ربما تتسع لتشمل إقرار سياسات الحرب والسلم. وهي ظاهرة عرفتها مصر في ظل حكم حسني مبارك.

معلوم أن قيادات الجيش في الدول الديمقراطية غالبا ما تكون مطلعة على قضايا السياسة الخارجية والداخلية، وقادرة على إجراء تقويمات وتوقعات، ربما يُطلب رأيها المتخصص بهذه القضايا، لكن الجيش يأتمر بأوامر مؤسسات منتخبه، تمثّل سيادة الدولة. والفرق بينه وبين الحكومة أنه يخدم سيادة الدولة بغض النظر عمن انتُخب للحكم، أي أن الحكومة بالنسبة إليه لا تتغير بتغير الحزب الحاكم. إذ ليس الموضوع تسييس الجيش بقدر ما هو خضوعه لحكومة منتخبة، سواء أكان مسيسا أم لا. ومن المفترض التمييز بين تسييس الجيش وتحزبه؛ فمن الممكن أن يكون الجيش مسيسا، بفعل تسييس قادته، أو أفراده بوصفهم مواطنين، لكن لا يجوز أن يكون متحزبا، حيث يسمح للعمل والتنافس الحزبيين في داخله.

إذا كان خطر الدولة الثكنة، أي عسكرة المجتمع قائما في الدول المتطورة، فإن الخطر في الدول ذات البنية المتخلفة معكوس، ويتجلى بضعف المؤسسات وعدم تمكن المجتمع من إنتاج وحدته بالتفاعل الجدلي مع مؤسسات الدولة، إلى درجة فرض النظام عليه من خارجه. فالتماسك الوطني ليس بنيويا داخل المؤسسات، ولا ينبع منها. هنا يُفرض فرضا عبر تمثله بواسطة الجهاز الأكثر تنظيما وهو الجيش؛ أي يصبح الجيش التجسيد الحقيقي للدولة، وليس ذلك كونه عسكريا، بل لأنه المؤسسة الوطنية الأقوى والأكثر حداثة وتنظيما. وهي تظهر كذلك خصوصا

بعد حصول تطورين: الأول، إضعاف البنى والمؤسسات التقليدية؛ والثاني، فشل المؤسسات السياسية الحديثة مثل الأحزاب والبرلمانات الحديثة التكوين في ملء فراغ الشرعية، والحفاظ على تماسك المجتمع والدولة الحديثة التكوين، والتي نشأت قبل عملية بناء الأمة.

في رأي بشارة يخلق الميل إلى التدخل منذ تأسيس الجيوش الحديثة وارتباطها بفكرة الدولة؛ إذ بدت كأنها تمثل الدولة في مقابل الجماعات والفئات، والواحد في مقابل التعدد، والنظام في مقابل التشتت والمصلحة العامة في مقابل المصالح الجزئية للقوى الاجتماعية والسياسية. وهي فوق كل هذا، تملك القوة. والحقيقة أن هذا قد كون صحيحا إذا كانت مهمة الجيش مؤقتة لتحقيق السلم الأهلي، حيث يضع نفسه في خدمة الدولة بعد تنفيذها. ومن دون ذلك يفصل خيط رفيع بين ادعاء الجيش أنه يمثل المصلحة العامة، وأن يصبح هو المصلحة العامة، وبين ادعائه أنه يُجسد الدولة وأن يكون هو جسدها، وبين تمثيل الوحدة الوطنية في مقابل التعددية، أو أن يدّعي أنه هو "الواحد الأحد".

الأمر مرتبط إلى حد بعيد بتماسك الدولة ووحدتها في تركيبها وتعدد وظائفها ومؤسساتها. فالدولة الهشة غير المستقرة والضعيفة المؤسسات، تدفع الجيش إلى أن يجسد كيانها من خارجها لفرضه بالقوة.

ارتبطت انقلابات الضباط الصغار الراديكاليين المتأثرين بالأيديولوجيات التي افتتحتها ثورة 1952 في مصر بأزمة المرحلة الليبرالية وهشاشتها، وعدم تمكّن النظام التعددي الحزبي من الاتفاق على السقف الوطني المتعلق بطبيعة البلد ونظام الحكم، كي تُدار التعددية في إطار الاتفاق الدستوري، والعجز عن حل المسألة الزراعية وقضية الفلاحين، والفشل في مواجهة الاستيطان الصهيوني في فلسطين الذي تجلى في هزيمة عام 1948. المشكلة هي أن حتى في حالة الإخلاص فعلا لقضية بناء الدولة الوطنية والتحديث، كما في حالتي عبد الناصر وهواري بومدين، ونضيف نحن هنا عبد الكريم قاسم، يصعب جسر الفرق بين الطموح والواقع، وبين حجم الأهداف غير المحددة ومستوى القائد وكفاءته والقدرات المحددة لأي إنسان، بين شعبيته الحقيقية وتمثيله للعموم وضيقه بأي منافس، بين الواحدية المزعومة والنزعات الفردية مثل الميل إلى الشعبوية وحب الظهور وتقديس الشخصية والارتياب والشك برفاق الدرب. ص 73 - 74.

يرى المؤلف انه يصعب التوصل إلى نظرية وقانون يضبطان علاقة الجيش بالحكم وتصرفه فيه؛ فالجيوش تختلف باختلاف المراحل التاريخية ودرجة تطور المجتمعات والعقائد السائدة وبنية الجيش الاجتماعية وغيرها. وعلى الرغم من إعجاب أمثال بكر صدقي وحسني الزعيم وحتى جمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم، وأديب الشيشكلي وإن كان بدرجة أقل، بأنموذج أتاتورك وتقليده في بعض الأمور، فإن الفرق شاسع بين قيادة جيش تقود حملة عسكرية ضد الاحتلال وتؤسس

جمهورية حديثة قوامها نخب حديثة صاعدة داخل النظام نفسه كما في حالة أتاتورك، وأخرى مؤلفة من ضباط راديكاليين من الرتب الوسطى والدنيا في انقلابها على النظام الملكي ثم في سلسلة منازعاتهم وتنافسهم على القيادة والرئاسة.

نماذج عربية

في البريتورية الأوليغارشية، حين تحكم البلاد طغمة من أصحاب النفوذ، الضباط أو غيرهم، يأخذ الصراع على السلطة شكل انقلابات بلاط يُستبدل فيها حاكم من الطغمة نفسها بحاكم آخر (3). ويأتي التهديد الأكبر لهذه الطغمة من نشوء فئة الضباط المتعلمين المدرّبين، وتوسع الفئات الاجتماعية التي يتحدرون منها، لتشمل فئات اجتماعية لم يصل أبناؤها إلى هذه المراتب في الماضي. الضباط في هذه الحالة هم أكثر الفئات حداثة في المجتمع، إضافة إلى المثقفين، ويتحالفون مع الإنتليجنسيا ضد الأوليغارشيا. هنا يجري الانتقال من انقلابات البلاط إلى الانقلابات الراديكالية أو الإصلاحية. هكذا يمكن، على سبيل المثال، صوغ الفرق بين الصراعات النخبوية في العراق قبل ثورة 14 تموز عام 1958 وبعدها.

لقد ارتبط الانقلاب الأول في تاريخ العسكرية العربية الجديدة بعد انهيار الدولة العثمانية، ونشوء نظام الدول المستقلة (سياسيا بموجب معاهدات)، أو الواقعة تحت الحماية والانتداب في المنطقة، بالعسكرية العراقية. إنه انقلاب بكر صدقي عام 1936 (4) الذي تلقى دعم جماعة "الأهالي". حيث بعد وفاة الملك فيصل الأول عام 1933 حصل فراغ في الحكم، وازدادت قوة رؤساء الوزارات، فاحتدم الصراع على هذا المنصب في الوقت ذاته. كان هذا حال صراع ياسين الهاشمي على النفوذ مع الملك غازي وحكمت سليمان.

يمثل انقلاب بكر صدقي أول محاولة من النخب السياسية العراقية للزج بالجيش في خلافاتها والاستعانة به لحسمها. فالأحزاب السياسية في العهد الملكي مثال مهم لنخب سياسية غير ناضجة، ولا تتحلى بالمسؤولية الوطنية للقيام بدور تحديثي؛ فقسم كبير من أفرادها لم يكن سوى روابط مصالح وشخصيات اجتمعت في أحزاب لغرض المشاركة في الحكم، وليس بهدف تنفيذ برنامج أو مشروع. وهو سلوك الأعيان السياسي بعد الاستقلال. هذا في مرحلة كانت فيها الأحزاب الحقيقية أيديولوجية الطابع، ومُنعت من العمل. ويأتي في مقدمتها الحزب الشيوعي العراقي.

في حالة ضباط ثورة 14 تموز 1958 (5)، يمكن القول إنهم جميعهم اتفقوا بدرجات متفاوتة على الدعوة للقومية العربية. وكان عبد السلام عارف أكثرهم حماسة للوحدة، أما عبد الكريم قاسم ومحيي الدين عبد الحميد، فمالا إلى قومية أكثر ليبرالية وإلى التشديد على الوحدة الوطنية العراقية. ويبدو من مذكرات عبد الوهاب الأمين تحديدا أن مجموعة ضباط 14 تموز كانت تؤمن فعلا بحكم ديمقراطي برلماني، وبالحاجة إلى الانتقال إليه بعد

القضاء على النظام الملكي وإقامة حكومة مدنية مؤقتة. كما أن تلك المجموعة أيدت سياسة عدم الانحياز خارجيا، وفي الواقع تشابهت إلى حد ما مع الضباط الأحرار في مصر، سواء في إيمانهم (أو للدقة ادعائهم الإيمان) بالديمقراطية، أو في تنكرهم لها لاحقا. لم يكن للضباط أيديولوجيا محددة، فبعضهم كان متأثرا بفكر الحزب الوطني الديمقراطي الليبرالي التوجهات، كما في حالة عبد الكريم قاسم ومحيي الدين عبد الحميد، وبعضهم بالفكر القومي العربي المشرب بالإسلام، مثل عبد السلام عارف وناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري الذي كان معارضا لتأثيرات الحزب الشيوعي العراقي على عبد الكريم قاسم. وكان وصفي طاهر وإسماعيل علي قريبين من الشيوعيين، ووسيطين بينهم وبين عبد الكريم قاسم. أما صالح مهدي عماش فكان متأثرا بفكر البعث. وكذلك في حالة الضباط الأحرار المصريين، كان الصراع بينهم صراعا على الزعامة.

في سوريا، استند حزب البعث في انقلابه عام 1963 إلى نخب عسكرية تنتمي في جذورها إلى الريف السوري. وكانت هذه النخبة التي يحصرها حنا بطاطو في ضباط اللجنة العسكرية البعثية الذين تقلدوا مناصب قيادية في الحزب والدولة بين عامي 1968 و1969 من طوائف مختلفة، ومن محافظات مختلفة، لكن أغلبيتها من أصول ريفية، أكانوا ملاكا كبارا أم متوسطين أم فلاحين صغارا.

وبشأن الجيش العقائدي يُمكن تقسيم هذه المرحلة إلى مراحل فرعية عدة متداخلة. لكن المؤلف ركز علي فترتها التكوينية والمؤسسية نظرا إلى ما لها من دور مؤثر في التطورات اللاحقة للمؤسسة العسكرية السورية وعلاقتها بالمجتمع، ونظّر لها التقرير العقائدي للمؤتمر القومي السادس لحزب لبعث عام 1963 تحت اسم "بعض المنطلقات النظرية"، بعد حسم الصراع مع الناصريين واحتكار السلطة. وجرى تجسيد هذه الصيغة النظرية بشكل مؤسسي في ما عُرف بـ "تبعيث الجيش" وفق عقيدة رسمية قومية. أما الضباط المهنيون الذين رفضوا الانتماء الحزبي، فاعتُبروا "رفاق سلاح" لا "رفاق عقيدة". وسرعان ما فُككت مجموعات "رفاق السلاح"، أو أُحيلت إلى مواقع مكتبية وتدريبية هامشية. وبحلول النصف الأول من الثمانينيات، لم يبق منهم إلا عدد محدود للغاية.

في بلاد الانقلابات العسكرية، مثل العراق وسوريا، لم يحكم الجيش الدولة في العقود الأخيرة. والضباط الذين قاموا بالانقلاب الأخير في كل من العراق (1968) وسوريا (1970)، جعلوا نصب أعينهم أن يكون انقلابهم آخر الانقلابات، وذلك ببناء جيش مستقر ذي تراتبية هرمية واضحة وموال للنظام، ويخضع لرقابة أجهزة استخبارات حديثة ومتطورة، وتتغلغل فيه منظمات الحزب الحاكم. ويشرك النظام ضباط الجيش الكبار في بعض المشاورات، ويُعيّن بعضهم في مناصب سياسية بعد إنهاء الخدمة، أو خلال خدمتهم كما في عضوية القيادة القطرية لحزب البعث في سوريا، المهم أنه يشركهم

في حصة من الثروة والنفوذ، ويُغدق عليهم ويمنحهم امتيازات كثيرة تضمن ولاءهم، كذلك يُفسح المجال للرتب الأدنى (يصح هذا في حالة سوريا) للاستفادة من شبكات الفساد، والتهريب وغيره.

في مصر لم يهدف جمال عبد الناصر إلى إقامة دكتاتورية عسكرية، بل أراد حكما جمهوريا شعبويا مسنودا من الجيش. ولأنه أدرك من تجربته الخاصة أهمية الجيش السياسية ودوره الانقلابي المحتمل، رغب في إبعاد الجيش عن التدخل المباشر في السياسة. أما الضباط الذين انتقلوا إلى العمل السياسي من مجموعة الضباط الأحرار، فطلب منهم خلع بزاتهم العسكرية. لكنه خلافا لمحمد نجيب، لم يرغب في عودة كاملة للجيش إلى الثكنات وإقامة حكم مدني تمثيلي. ويلخص هذا الموقفُ المركّب التناقض التاريخي الرئيس لعلاقة الجيش بالسياسة في مصر منذ ثورة يوليو (1952). إذ بقي السياسيون في عهود يوليو عسكرا بثياب مدنية، لكن الجيش كمؤسسة يفترض ألا يتدخل في السياسة، بل يبقى على ولائه لهؤلاء العسكر السابقين، فهو الضامن الرئيس لاستقرار النظام. وانعكس هذا التناقض في شكل صراعات قادت العسكريين السابقين في الحكم إلى محاولة تأسيس قواعد شعبية من خارج الجيش تشبه الحزب السياسي للنظام. فأقام الضباط الأحرار الاتحاد الاشتراكي العربي عام 1962. وفي الحالتين السورية والعراقية، كما في الحالة المصرية، يمكن القول إن الجيش كان خاضعا للحكام المدنيين من أصول عسكرية، لكنه في العراق وسوريا مسيس وحزبي.

لاحقا قام أنور السادات بمتابعة تعزيز مكانة مؤسسة الرئاسة وصلاحياتها على حساب الجيش، فغير قادته بشكل متواتر لم تعرفه مصر من قبل. وما لبث النظام أن احتاج الجيش في ضبط المعارضة بعد اتفاقيات كامب ديفيد، أو ما سُمي ناصريا "بالجبهة الداخلية"، وهي تسمية تشي بأن البلاد في مرحلة حرب في الداخل والخارج.

في عهد مبارك جرت تسوية كبرى صار بموجبها وزير الدفاع الرجل القوي داخل الجيش فحسب. ونشأ كيان سياسي للضباط غايته الحفاظ على الامتيازات التي تتعلق بالجيش واقتصاده ومواقع ضباطه المتقاعدين الذين يُعينون في مناصب رسمية. في المقابل، تُرك للرئيس شؤون حكم مصر، وإدارة البلاد بالتعاون مع المخابرات والمؤسسة الأقوى في الداخل، أي الأجهزة الأمنية التابعة لوزارة الداخلية. ولم ينف هذا للحظة أن الجيش ظل القوة الرئيسة، وصاحب المقدرة إذا أراد تفعيل قوته (6)، كذلك ظل الأكثر شعبية لدى الجمهور لابتعاده عن السياسة. هذا البعد، إضافة إلى الانغلاق الذي يمنع عين الجمهور الفاحصة من نقده، سمحا له بالحفاظ على صورة "طاهرة" خلافا لصورة أجهزة الأمن الأخرى، ودوائر السلطة في الحزب والعائلة الحاكمة، الملطخة بالحقائق والشائعات عن ممارستها، ذلك لأنها في تماس مباشر مع الشعب.

الهوامش:

1 - التسمية تعود إلى المصطلح الروماني في وصف الحرس البريتوري المرابط في روما، الذي كان يتدخل في السياسة فيُنصب القياصرة ويعزلهم. راجع الهامش في الكتاب نفسه، ص 56.

2 - كان لموقف الجيش الجزائري دور حاسم في استقالة عبد العزيز بوتفليقة في 2 نيسان 2019، بعد احتجاجات شعبية واسعة رفضت ترشيحه للرئاسة لفترة خامسة.

3 - يمكن عد الانقلاب العسكري الذي أطاح بعمر البشير في 11 نيسان 2019، بعد احتجاجات شعبية حاشدة طالبت برحيل النظام وإقامة دولة مدنية ديمقراطية، من هذا النوع من الانقلابات.

4 - حول انقلاب بكر صدقي وموقف الحزب الشيوعي العراقي منه، راجع: حنا بطاطو، العراق، الكتاب الثاني، الحزب الشيوعي العراقي، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت، 1992، ص 93 - 98.

5 - للمزيد حول ثورة 14 تموز 1958، راجع: حنا بطاطو، العراق، الكتاب الثالث، الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار، 1992.

6 - ما يؤكد هذا أن الجيش فعل دوره وعزل محمد مرسي عام 2013، بعد مظاهرات حاشدة طالبت برحيله، وأنتخب عبد الفتاح السيسي رئيسا عام 2014، وكان قائدا عاما للقوات المسلحة ووزيرا للدفاع في عهد مرسي.

نصف قرن على رحيل الدكتور عبد الجبار عبد اللّه

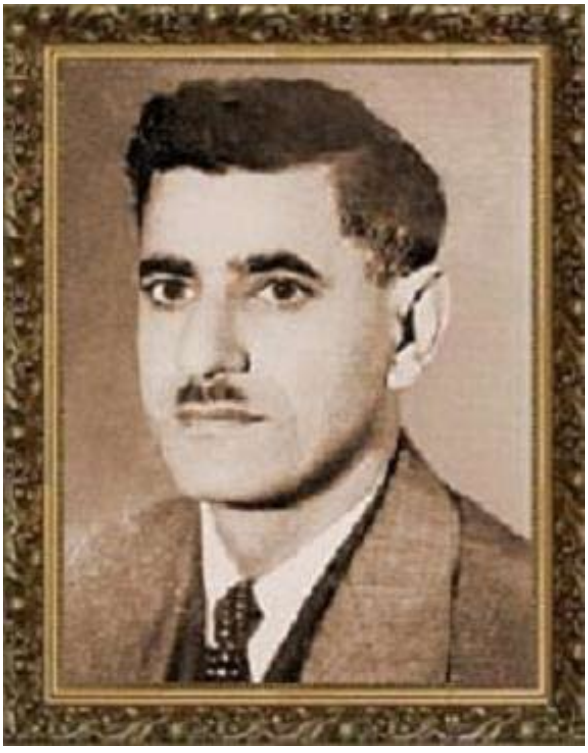

في هذا العام، 2019، تحل الذكرى الخمسون لرحيل البروفسور الدكتور عبد الجبار عبد الله، عالم الفيزياء الكبير، وأول رئيس لجامعة بغداد بعد ثورة 14 تموز 1958.

ولد الدكتور عبد الجبار عبد الله في قلعة صالح التابعة لمحافظة ميسان عام 1911. أكمل دراسته الإعدادية في بغداد عام 1930، ونال شهادة البكالوريوس في العلوم من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1934. حصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الطبيعية (الفيزياء) من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT Massachusetts Institute of Technology).

خلال 1948 – 1949 عُين د.عبد الله استاذاً ورئيساً لقسم الفيزياء في دار المُعلمين العالية في بغداد. وفي هذه الفترة رُشح استاذاً باحثاً في جامعة نيويورك بين سنتي 1952 و1955. بعد قيام ثورة تموز 1958 عين الدكتور عبد الجبار عبد الله امينا عاما لجامعة بغداد، وكيلاً لرئيس الجامعة. واستمر في هذين المَنصبين حتى عام 1959، حيث عُين عندها رئيساً لجامعة بغداد.

بعد قيام ثورة الردّة في 8 شباط 1963 تعرض البروفسور عبد الله مثله مثل الالاف، بل عشرات الالاف من الوطنيين والديمقراطيين وأنصار السلم والحرية من العراقيين والعراقيات للاعتقال والتعذيب وعومل معاملة مهينة عند اعتقاله، فقد سُجن لمدة عام تقريباً ولَكن أُطلق سراحه فيما بعد، وسَمح له بالسفر إلى الولايات المتحدة. هُناك شغل منصب أستاذ في جامعة كولورادو في بولدر، وجامعة نيويورك، وتوفي في احد مستشفيات نيويورك في 9 تموز/ يوليو عام 1969 بعد اصابته بمرض عضال عن عمر ناهز الـ 56 عاماً.

للفقيد الراحل الكبير العديد من النظريات والبحوث وخاصة في مجال الأنواء الجوية، حيث يعود له الفضل الكبير في العديد من الاعمال بمجال الأعاصير والزوابع من فيزياء الجو. وله العديد من المؤلفات في مجال الفيزياء والعلوم باللغة العربية. كما ترجم العديد من الكتب العلمية الأجنبية إلى اللغة العربية. كما له العديد من البحوث العلمية التي نشرت في ارقى المجلات العلمية الامريكية والاوروبية، وشغل عضوية العديد من الجمعيات العلمية العالمية مثل الجمعية الملكية البريطانية للأنواء، والجمعية الأكاديمية للعلوم في نيويورك، وجمعية الفيزياء الأمريكية.

وبسبب انجازاته العلمية الواسعة ادخل اسمه في الموسوعة الانجليزية الخاصة بالعلماء (who is who science).

وإذ رحل البروفسور الدكتور عبد الجبار عبد الله، بعد هذا العمر القصير، ولكنه الحافل بالعطاء في ميادين المعرفة العلمية، فإنه ترك لنا تراثا ثريا سيظل يتحدث عنه، ويذكر به، ويبقيه حياً دائم الحضور بيننا باعتباره عالما عبقريا ووطنيا كبيرا ومربيا راقيا وابا وانسانا بكل ما تعنيه الكلمات من معنى.

لقد كانت حياة الأستاذ الدكتور عبد الجبار عبد الله درسا كبيرا لأجيال عديدة من زملائه وطلبته وكل محبيه وهم كثر. وعزاؤنا ان فقيدنا الكبير ترك لهؤلاء، وغيرهم أيضا، إرثا طيبا من المنجز العلمي الأصيل والسلوك الإنساني الرفيع والروح الشفيفة والتي لا تساوم على القيم والمبادئ الكبرى للرعيل الذي انتمى إليه الفقيد.

مرة قال المفكر المصري الراحل محمود أمين العالم إن الذين يحتفظون بشموخ القامة الإنسانية في وجه العواصف والمحن، وينسجون الدفء والطمأنينة والاستمرار المضيء في تاريخ الإنسان، بتواضعهم ونزيفهم الصامت.. هؤلاء هم صناع الحياة بحق، بهم يتحرك المجتمع متطلعا إلى العدالة والسعادة والمحبة والحرية والسلام. ومن المؤكد ان هذا الوصف ينطبق على استاذنا الجليل د.عبد الجبار عبد الله فهو احد النماذج الأصيلة لقامات لم تنحن أمام العواصف والمحن ولم تساوم، فقد كان احد الصناع المهرة للحياة بما قدموه من منجز علمي أصيل. وسيظل منجزه هذا محفورا في الذاكرة الجمعية، فما أكثر الأبطال الذين لم تدون أسماؤهم على مسلة، أو على ورقة بردي، أو على أثر من الآثار التاريخية الباقية ولكنهم باقون معنا على الدوام.

ووفاء لما قدمه الراحل الكبير د.عبد الجبار عبد الله من منجز علمي أصيل، وبمناسبة مرور 50 عاما على رحيله المبكر، يسرّنا ان نكرس في هذا العدد من المجلة ملفا خاصا بهذه الذكرى، نسعى من خلاله الى تعريف الاجيال الجديدة بما انجزه الاسلاف، وما قدموه من منجزات علمية اصيلة، وما زرعوه من قيم تبقى حية على الدوام رغم عواتي الزمن.

استاذنا الكبير عبد الجبار عبد الله.. ستبقى حيا في الذاكرة الجمعية لشعبنا وبلدنا الذي قدمت له الكثير.. نم مغردا في واحة الوطن الذي احببته واحبك.

(الثقافة الجديدة)
تموز 2019

مساهمات د. عبد الجبار عبد الله العلمية (1911 - 1969) *

برنارد هوروتز
جيمس أوبراني

المساهمات العلمية للدكتور عبد الجبار عبد الله هي في حقل الأنواء الجوية الديناميكية، وهو فرع من فروع علم الجو، ويهدف الى فهم وتفسير ما يجري بتطبيق قوانين الفيزياء. وقد استفاد دكتور عبد الله في ابحاثه فائدة جيدة من دراسته المبكرة للرياضيات في الجامعة الامريكية في (بيروت)، ومن عمله التطبيقي في الأنواء الجوية في مطار البصرة (العراق) ما بين 1937 و1941 وأبحاثه المنشورة تظهر درايته بتقنيات الفيزياء الرياضية ومعرفته بالظواهر الطقسية التي كان يدرسها.

من ابحاثه العلمية الاولى اطروحة الدكتوراه في جامعة (ام اي تي [1] MIT) وقد عالجت نظرية الامواج الجوية، والفت مناقشة شاملة لتزايد طاقة مثل هذه الامواج بواسطة سرعة مجموعتها. ثم وجه اهتمامه نحو مشكلة تكوّن الاعاصير الحلزونية المدارية** وتحرّي التأثير الميكانيكي لاندفاع هواء بارد في تكرار الاعصار الحلزوني [6]. وأظهر ان اندفاع هواء بارد ضد هواء اقل برودة يعطي الاخير مقدارا من الطاقة مساويا لتلك الطاقة التي توجد في اعصار حلزوني نموذجي. وقارن نتائجه ببعض حالات الاعاصير الحلزونية

الواقعية. والملاحظ انه حصل على مقاربات جيدة للجو الفعلي بنماذج رياضية مبسطة تبسيطاً عالياً. وهذا ما تميزت به كذلك اعماله اللاحقة. وافترض على الخصوص ان الجو يمكن اعتباره غير قابل للانضغاط. وان انخفاض الكثافة الجوية مع الارتفاع الى الاعلى يمكن ان يحاكى تماما بافتراض طبقات متجانسة من كثافات مختلفة. ان هذا العمل مهم، على وجه الخصوص، لأنه يدل على التطبيق الحقيقي لأسلوب الاعداد البيانية في اللوغاريتمات على قضايا الانواء الجوية. وفي بضع سنوات فقط حذت ابحاث عديدة حذو ما توصل اليه د. عبد الله. واستخدمت هذه الاداة الجبارة في حل معادلات تفاضلية جزئيا زائدية المقطع في معالجة القضايا الجوية.

في مجرى تحليله الرياضي لقضية الإعصار الحلزوني لاحظ د. عبد الله ان فعل الهواء البارد على الهواء الأقل برودة (اي الأدفأ) يحدث في الحدود العليا للهواء الأقل برودة ما يعرف في علم القوى المائية بـ ''الموجة المنعزلة''. وخمن ان مثل هذه الظواهر قد توجد في الجو ودرس تأثيراتها الجوية في بحثين من أبحاثه [17، 19]. واستخلص من دراساته انها تتماثل والأعاصير المضادة*** المتنقلة الصغيرة التي شخصها فاويش وميلر في 1954 (نشرة جمعية الأنواء الجوية الأمريكية - العدد 35) بالارتباط مع تكون الإعصار القمعي واسمياها بـ ''الفقاعات'' وكانت هاتان الدراستان طليعة الحقل الخاص من العلوم الجوية الذي يعرف بـ'' Mesometeoro-ogy ''. والذي ازدهر، وغدا فرعا مهما من علم الأنواء الجوية.

الإعصار القمعي وفيما كانت الموجات المنفردة او المنعزلة تدرس حتى ذلك الحين على السطح الحر لطبقة سائلة واحدة، رأى عبد الجبار عبد الله ان هذه الموجات المنفردة تحدث على السطح البيني، الذي يفصل بين طبقتين سائلتين لكل منهما كثافة مختلفة، وان من الأفضل الى حد ما الاستعانة بنموذج مرن مقارب للجو الفعلي. وقد دلت دراسة هذه الموجات المنفردة البينية المقترحة انها يمكن ان تحدث، في ظروف معينة اضطراباً، بل وتسهم في تكوين الأعاصير القمعية – Tornedo.

في عام 1955 اجرى د. عبد الله دراسة تفصيلية [16] حول ديناميكيات الأعاصير القمعية المتطورة تماما على اساس نموذج رياضي بسيط يتألف من pure vortex, pure sink بالمعنى الهايدروديناميكي. وكما اشار هو، فأن نموذجا رياضيا كهذا قد بسط تبسيطا شديداً. اذ انه وضع جانباً تأثيرات الحركات العمودية والاحتكاك والحرارة الكامنة للتكاثف في المنطقة الخارجية للإعصار القمعي. ومع ذلك فقد نجح في حساب الضغوط المركزية الواطئة والسرعات العالية التي تتولد عنها الآثار المدمرة للأعاصير القمعية – Tornedos. وفي بحث آخر [23] اجراه بعد احد عشر عاما عاد الى مشكلة الإعصار القمعي، وأظهر ان الابتعاث الصوتي للأعاصير القمعية الذي اشار إليه كثير من المراقبين ربما يرجع الى الذبابات الحرة لدوامة الإعصار القمعي، شرط ان تكون الدوامة الصغيرة بما فيه الكفاية، وهو استنتاج يتفق مع التقارير التي افاد بها المراقبون والتي تقول بأن الأنغام الموسيقية لا تسمع إلا بالارتباط مع الأعاصير القمعية ذات القطر الصغير بينما لا يسمع من الدوامات الواسعة سوى الضجيج.

استخدم د. عبد الله ايضا نماذج رياضية بسيطة مماثلة لدراسة القوى المحركة لاضطرابات جوية اوسع، ونعني بها الأعاصير الحلزونية الدائرية [11-12-14]. وكان قادرا ان يبين كيف انه حتى في افتراضات مبسطة جدا، اي بإحلال الجو المضغوط في ثلاث طبقات افقية ذات كثافة ثابتة ولكن مختلفة، واغفال تأثيرات الاحتكاك وتأثيرات دوران الأرض على التحركات الجوية، يمكن حساب المنطقة الداخلية الهادئة او القريبة من الهدوء او ما يدعى بعين الإعصار على اسس هايدروديناميكية محضة. وفي ذات الوقت درس التذبذبات

المحتملة التي تتركب او تطبق على الأعاصير الدائرية المتناسقة المصحوبة بالأمطار والرعود وأظهر ان هذه التذبذبات التي تزيد فتراتها على نصف قشرة دوران نواة الاعصار قد تؤدي الى تركيبة على شكل حزمة تطبق على الحركة الدائرية المتناسقة. ان هذه التركيبات المشابهة للحزم التي توجد في الأعاصير المصحوبة بالأمطار والرعود قد وثقت توثيقا جيداً بصور جديدة وحديثة لهذا النوع من الأعاصير من الأقمار الصناعية المخصصة للأنواء الجوية.

قضية اخرى كرس لها د. عبد الله مزيدا من الوقت والفكر [9، 15، 22] هي ما يدعى بخطوط قفز الضغط. فطبقا للمشاهدة يتغير الضغط البارومتري عمليا دون انتظام على طول خطوط قفز الضغط التي ترافقها اضطرابات شديدة محلية في الطقس كما هي الحال مع الريح القاسية المصحوبة عادة بالمطر او الثلج. ان العمليات الهايدروديناميكية التي تحدث على هذه الخطوط، والأساليب الرياضية لدراستها هي مشابهة جدا لتلك العمليات التي استخدمها في دراسته للأعاصير القمعية وتلك المصحوبة بالأمطار والرعود.

ربما كان من الخصائص البارزة في البحث لدى عبد الجبار عبد الله انه كان قادرا في كثير من الأمثلة على توضيح العديد من الصفات الملاحظة في الظاهرة التي يحللها بنماذج رياضية مجردة تجريداً عالياً. كان يدرك، بالطبع، ادراكا جيدا انه بسبب هذه التبسيطات قد لا تفصح تخطيطاته عن كامل القصة، ولكن هذه التبسيطات من الجانب الآخر تشير في كل مثال الى تلك الأوجه الخاصة في الظاهرة الجوية التي ينبغي ان تأخذ عوامل اضافية في حسابها للتوصل الى تفسير كامل.

هناك صورة لإعصار من الفضاء، كانت من الأبحاث البارزة التي توضح قدرته على استنباط سلوك الجو من تخطيط رياضي بسيط هو بحثه [26] فقد اقترح جواً منضغطاً ذا طبقتين تكون الطبقة السفلى ذات درجة حرارة، تميل الى الانخفاض بشكل ثابت. والعليا ثابتة الحرارة. وفرضيته الرئيسية هي ان الطبقات المنتجة للغيم تنشأ عن موجات جذب داخلية. يعطي نموذجه ثلاثة مستويات في الطبقة السفلى التي ربما يتكون الغيم فيها عن موجات الجذب الداخلي، يكون مقياس سرعتها المرحلية، عشرة أمتار في الثانية. هذه المستويات تقع ضمن حدود خطوط الارتفاع المشاهدة للغيوم في الطبقة السفلى من الغلاف الجوي. ووجد في ذات الوقت ان هناك مستويين في الطبقة العليا، ذات الحرارة الثابتة، توحي بأن موقع الغيوم ذات العروق اللؤلؤية هي في القسم الأسفل من الجزء الأعلى للغلاف الجوي، وموقع الغيوم المضيئة الرقيقة **** قريب من المنطقة الانتقالية التي تقع بين طبقتي الميزوسفير والأكسوسفير من الغلاف الجوي (المترجم).

ان القائمة الملحقة، والتي تتضمن الأبحاث المنشورة، تظهر ان ما المحنا إليه هنا لا يعالج سوى جزء من اعمال د. عبد الله. ان اهتماماته الواسعة وقدراته العلمية مكنتاه من ان يسهم في كل جانب من جوانب علم الأنواء الجوية بمساهمات مهمة.

ان معظم العلماء الأمريكيين على دراية بمساهمته المهمة في علم الأنواء الجوية

في نهاية الأربعينيات ومطلع الخمسينيات في الـ(MIT) اولا، وفي جامعة نيويورك من بعد. وقد لا حظوا مساهماته الكثيرة في عام 1966 حين عاد الى الولايات المتحدة كعالم أقدم في برنامج الدراسات المتقدمة للمركز الوطني للأبحاث الجوية في بولدر كولورادو، ومن ثم كأستاذ للعلوم الجوية في جامعة ولاية نيويورك (الباني). ومع ذلك فإن كثيرين من علماء الولايات المتحدة لم يطلعوا على جهوده التعليمية المتفانية في وطنه الأم (العراق). فمنذ عام 1947 حتى عام 1962 وضع وترجم خمسة كتب للتدريس في الفيزياء، وعلم الأنواء الجوية باللغة العربية لكي تستخدم في بلاده، ومنذ 1959 حتى عام 1963 شغل منصب رئيس جامعة بغداد الفتية. وفي الفترات التي يزور فيها الولايات المتحدة الأمريكية كان زملاؤه يعرفون ان بغداد هي الوطن بالنسبة له، وحتى في الوصف الأخير الذي ادرجته عنه نشرة "رجال العلم" جاء ان بغداد هي وطنه مع مكتب له في (المركز الوطني للبحث الجوي في بولدر كولورادو).

لقد فقد وطنه العراق بموته واحدا من أبرز علمائه. ان زملاءه الذين أسعدهم الحظ للتعرف إليه شخصيا كزملاء في المهنة وكأصدقاء سيذكرون ليس فقط مساهماته في علم الأنواء الجوية وانما ايضا خصاله الإنسانية الرفيعة.

الملاحظات والمراجع

* هذا النوع من الأعاصير يحدث في المناطق المتوازية، ويتميز برياح تدور بسرعة 75 ميلاً او اكثر بالساعة – المترجم.

** نوع من الرياح العاصفة تدور حول مركز ذي ضغط جوي عالي باتجاه عقرب الساعة في نصف الكرة الشمالي، واتجاه مضاد لعقرب الساعة في نصف الكرة الجنوبي، وهو يندفع بسرعة 20-30 ميلاً في الساعة, وهو ذو قطر يمتد ما بين 1500 - 2500 ميل في العادة – المترجم.

*** غيوم رقيقة مضيئة وملونة في العادة وهي ترى في الليل على ارتفاع 50 ميلا تقريبا – المترجم.

1. Group velocity of atmospheric waves. Sc.D. Thesis, submitted at M.I.T., 1946.
2. Billow groups. Ann. of the N. Y. Acad, of Sci., 48, 1947, p. 744.
3. Wave motion at the surface of a current which has an exponential distribution of vorticity. Ann. of the N. Y. Acad, of Sci., 49, 1949, p. 425.
4. A problem in the rotation of fluids. Bull. Amer. Meteor. Soc., 28, 1947, p. 469 (Abstract).
5. On the wave theory of cyclones. Bull. Amer. Meteor. Soc., 29, 1948, p. 284 (Abstract).
6. Cyclogenesis by a purely mechanical process. J. Meteor., 6, p. 86, 1949.
7. Effect of friction on atmospheric disturbances. Bull. Amer. Meteor. Soc., 30, 1949 (Abstract).
8. The band-like structure of hurricanes. Bull. Amer. Meteor. Soc., 34, 1953, p. 86 (Abstract).
9. A proposed mechanism of squall lines, the pressure jump line. J. Meteor., 10, 1953, p. 298.

10. A note on the periodicity of some frontal precipitation. J. Meteor., 10, 1953, p. 228.
11. The eye of the hurricane. N.Y.U. Meteor. Papers, 2, no. 2, Part I, 1953.
12. The vibrations of a hurricane. N.Y.U. Meteor. Papers, 2, no. 2, Part II, 1953. 13. A note on the tilted trough model. J. Meteor., 11, 1954, p. 249.
14. A proposed mechanism for the development of the eye of a hurricane. J. Meteor., 11, 1954, p. 189.
15. The meridional growth of a squall line. J. Meteor., 11, 1954, p. 301.
16. Some aspects of the dynamics of tornadoes. Mon. Wea. Rev., 83, 1955, p. 83.
17. The atmospheric solitary wave. Bull. Amer. Meteor. Soc., 36, p. 511, 1955.
18. A severe duststorm in Iraq. Beit. z. Physik d. Atmosph., 29, 1956, p. 21.
19. A note on the atmospheric solitary wave. J. Meteor., 13, 1956, p. 381.
20. The rate of transport of mechanical energy by waves of the Westerlies. Proc. of the Iraqi Sc. Soc., No. 1, 1957.
21. The atmospheric breakers, First Scientific Congress of the University of Baghdad, 1961.
22. Head-on collision between two pressure jumps. J. Geo- phys. Res., 71, 1966, p. 1953.
23. The musical sound emitted by a tornado. Mon. Wea. Rev., 94, 1966, p. 213.
24. The spiral bands of a hurricane a possible dynamic explanation. J. Atmos. Sci., 23, 1966, p. 367.
25. A note on the square cloud. J. Atmos. Sci., 23, 1966, p. 495.
26. The stratification of cloud layers in a stable atmosphere. Mon. Wea. Rev., 95, 1967, p. 189.
27. Reply to Rodger A. Brown on [25]. J. Atmos. Sci., 24, 1967, p. 305.
28. Reply to Raymond Wexler on [24], J. Atmos. Sci., 24, 1967, p. 441.
29. Internal gravity waves of finite amplitude in a stratified incompressible atmosphere, a quasi-characteristic method. NCAR Manuscript No. 218, 66 pp. plus 33 figs. (with J. O'Brien), 1966.
30. The pre-warm front pressure jump (with J. O'Brien) (in preparation).
31. The dynamic stability of a vortex-column; the tornado funnel. Structure and Modification of Clouds and Fogs, by Vonnegut, Blanchard and Cudney, Themis report, SUNY, January 1969, 33-49.
32. A gravity wave of elevation overtaking a stationary warm front. Structure and Modification of Clouds and Fogs, by Vonnegut, Blanchard and Cudney, Themis report, SUNY, January 1969, 50- 52.

* (الثقافة الجديدة)، العدد ٢٦١/ تشرين الاول ١٩٩٤ - كانون الثاني ١٩٩٥، ص ١١٨ - ١٢٣.

من أجل جامعة زراعية عراقية متطورة في الذكرى الخمسين لرحيل عبد الجبار عبد الله هنا بعض من الحلم الذي أراده الفقيد الكبير لجامعاتنا

د. إبراهيم اسماعيل

د. إبراهيم اسماعيل من مواليد 1952، حاصل على بكالوريوس علوم زراعية من جامعة الموصل 1974 وعلى دكتوراه فلسفة (PhD) من أكاديمية العلوم المجرية 1990، وعلى دكتوراه علوم(DSc) من جامعة (SLU) السويدية 2006. ترك الوطن عام 1978 وعمل في الجزائر واليمن الديمقراطية، والتحق بفصائل الأنصار الشيوعية في كردستان، قبل أن يستقر به المطاف باحثاً ثم استاذاً لفسلجة النبات في الجامعة السويدية للعلوم الزراعية. نشر أكثر من 70 بحثاً علمياً في فسلجة الثمار ومشاكل حفظها وعلاقة التغذية بالصحة والبيئة وغيرها. كما أصدر ثلاثة كتب في مجال إختصاصه. وكتب العديد من المقالات في الشؤون السياسية والاجتماعية في الصحف العراقية والعربية.

للمرة الثالثة على التوالي، تتبوأ الجامعة السويدية للعلوم الزراعية، الموقع الثالث لأفضل جامعة في العالم، حسب تقييم منظمة (QS) بعد جامعة (Wageningen) الهولندية وجامعة (Davis) الأمريكية. وقد دفعني ذلك الى كتابة هذا المقال بغية التعريف بهذه الجامعة، التي عملت فيها لأكثر من ربع قرن، باحثاً ومدرساً وأستاذاً مساعداً وأستاذاً، أملا أن يخدم هذا التعريف المساعي المخلصة والهادفة تطوير جامعاتنا، لتحتل مكانة مرموقة في العالم، لا سيما بعد التدني المريع الذي تعاني منه ومنذ عقود مضت.

من اشتراطات التقدم

تّعد المقدرة على تطوير المعارف العلمية حول الموارد الطبيعية والبيولوجية، الشرط الأساسي الذي يمّكن أية جامعة زراعية من تحقيق مستوى عالمي رفيع. وترتكز هذه المقدرة على رؤية طموحة وواقعية في آن واحد، تستند اليها إستراتيجية طويلة الأجل، واستثمار راقِ لجهود جميع العاملين، وقيادة فاعلة وناجحة، واستخدام عقلاني للموارد. ولكي يتم بناء هذه الركائز الأربع لا بد من توفر عدد من الاشتراطات المهمة، والتي من أبرزها:

• وجود رؤية علمية تتجرأ على التشكيك في المعرفة السائدة، وتعمد الى تفكير نقدي ونظرة طموحة ومنفتحة، تثمر عن بحوث علمية محترمة على الصعيد العالمي.

• توفر رؤية عملية تصل بها الجامعة الى حلول نظرية وتطبيقية للكثير من المشاكل التي تواجه البلاد في ميدان نشاطها.

• مواجهة محكمة لمجموعة التحديات البيئية، تستهدف خلق المستلزمات المطلوبة لعالم أفضل، مستقر ونابض بالحياة، وذلك من خلال دراسة الأسئلة الكبيرة حول الطبيعة والحياة والإجابة عليها.

• تطوير متواصل لجودة التعليم والبحث العلمي والتحليل البيئي، بما يضمن حماية جودة الحياة والصحة البشرية والحيوانية وتحسين سبل إدارة البشر للموارد بشكل يحفظ دوام المنفعة منها.

• تحديد القيم المشتركة للجامعة، والملزمة لكل منتسبيها، بأربع قيم أساسية هي العلمية والإبداع والإنفتاح والشعور بالمسؤولية. واعتماد ركائز ثمان، تقوم عليها هذه القيم، وهي الديمقراطية وسيادة القانون والموضوعية والمساواة والاحترام والرأي الحر والكفاءة والخدمة. على أن تعمل هذه الركائز كإرشادات يومية عن نقطة الانطلاق، سواء فيما يتعلق بالعمل الداخلي أو الإتصال مع العالم الخارجي، أو شكل سلوك منتسبي الجامعة تجاه بعضهم البعض وتجاه الآخرين.

• تحديد السبل التي تجعل الجامعة جذابة للطلبة، ومكان عمل محفِّز للموظفين.

• توفير كل الإمكانيات والمستلزمات المطلوبة للباحثين من أجل زيادة فرص تحقيق بحوث مبتكرة وممتازة.

• تعريف العاملين والطلبة بكل تفاصيل عمل الجامعة وتعزيز شعورهم بالمسؤولية تجاه تطوير هذا العمل باستمرار.

• خلق فوائد اجتماعية متميزة للمجتمع المحيط، من أجل تعزيز التعاون المثمر معه ونيل ثقته واحترامه.

وينبغي أن تمثل هذه الإستراتيجية الشاملة، سلسلة من حلقات مترابطة، تعد كل منها خطة قصيرة الأجل محددة بمدة زمنية (3، 4، 5 سنوات)، تبدأ بالبناء على ما إنتهت اليه سابقتها، وتكون نتائجها قاعدة لإنطلاق الخطة التي تليها. وفي كل خطة من هذه الخطط المفصلية، لا بد من توضيح دقيق لعلاقتها مع الرؤية الشاملة والأهداف النهائية المتوخاة، ولا بد أيضا من تحديد الحلقة المركزية في العمل ومجموعة النشاطات والفعاليات في مجال البحث والتعليم والتحليل البيئي التي يجب إنجازها خلال المدة الزمنية المحددة لهذه الخطة، ما يوفر فهماً مشتركاً للأهداف الآنية المراد الوصول إليها والسبل الأنجع لتحقيق ذلك، ويؤمن منهاج عمل لكل المفاصل القيادية والإدارية في الجامعة.

كما يجب أن تصف الإستراتيجية بوضوح، دور الجامعة في المجتمع وتأثيراتٍ الظروف الخارجية على عملها ونشاطاتها. وكي تتبوأ الجامعة موقعاً إستراتيجياً في حياة الناس، وطنياً ودولياً، لا بد أولاً من معرفة دقيقة بكل الموارد الطبيعية (البشرية والحيوانية والنباتية

والبيئية والصحية) ومن ثم اعتماد المعارف العلمية في أقصى درجات تطورها في التعامل مع تلك الموارد. ويجب أن تلعب الجامعة دوراً مهماً في تطوير قدرات ومعارف العاملين في القطاعات الإنتاجية ذات العلاقة، من خلال دعوتهم لدورات تدريبية ولملتقيات ومؤتمرات وأسابيع أو أيام علمية تقيمها الجامعة بشكل دوري. وأن تتعاون مع هذه المؤسسات الإنتاجية في حل ما يواجهها من صعاب في عملها، حيث سيساعد هذا التعاون على تطوير الاقتصاد الوطني والمسيرة العلمية للبلاد، ويدر موارد مالية جيدة للجامعة.

كيف تحقّق التقدم

بقيت الجامعة السويدية للعلوم الزراعية في ذيل التصنيف المحلي للجامعات حتى تسعينات القرن الماضي، حيث حدثت تغييرات كبيرة في إستراتيجيتها، مكنّتها من تحقيق تطور كبير في جميع أنشطتها، وصولاً للموقع الثالث في التصنيف العالمي للجامعات.

وقد اسُتهلت هذه التغييرات بتطوير الهيكل الإداري، فللجامعة اليوم قيادة ترسم إستراتيجيتها الشاملة وتتابع مستويات التنفيذ، تتكون من رئيس الجامعة وممثلي وزارتي التعليم العالي والتموين وممثلي نقابات كل من الصناعيين والعاملين في التموين والتدريسيين والباحثين والطلبة، إضافة الى عدد من كبار الأساتذة السويديين والأجانب الذين تختارهم الحكومة كمراقبين ومستشارين للإدارة الجامعية. وتنتخب هذه القيادة رئيساً ونائباً لها مرة كل اربع سنوات. كما توجد إدارة للجامعة، تقودها وتنفذ إستراتيجيتها وتضع الخطط الدورية اللازمة لذلك، وتهتم بكل شؤونها، وتكون مسؤولة أمام قيادة الجامعة. وتتكون الإدارة من رئيس وأربعة مساعدين للشؤون الإدارية والبيئية والعلمية والعلاقات الخارجية، إضافة الى المسجل العام ومساعديه. وهناك عميد لكل كلية ولكل معهد من المعاهد، وله مساعد واحد أو أكثر وإدارة خاصة به. ويتم اختيار كل أعضاء هذه الإدارات بالانتخاب المباشر، الذي يحق لكل منتسبي الجامعة المشاركة فيه، بعد أن يرشح للموقع من يجد في نفسه الكفاءة، وتقدم لجنة الإنتخابات كشفاً تفصيلياً عن كل مرشح الى المنتسبين، في وقت مناسب قبل موعد الانتخاب، لمساعدتهم في اختيار الأكفأ للموقع من بين المرشحين.

وتمثل المتغير الأبرز الآخر في تطوير الموارد المالية، حيث تُشكل مداخيل المشاريع البحثية التي تنفذها الجامعة لصالح الشركات ومختلف المؤسسات الإنتاجية ومداخيل الخدمات التي تقدمها للمجتمع ما يزيد على 60% من ميزانيتها، فيما يتم تمويل الباقي من الإعانات الحكومية ومن الدعم الذي تقدمه مؤسسات الدولة المعنية بالتقدم العلمي والتابعة للبرلمان. وتحصل الجامعة من الحكومة على دعم لكل خريج منها، وعلى أساس الشهادة التي يحصل عليها ذلك الخريج (البكالوريوس والماجستير والدكتوراه)، كما تحصل

على دعم من الدولة عن كل بحث علمي تنجزه، وينشر في مجلة علمية ذات مستوى مرموق (High Impact factor). ويمكن الاستدلال على التطور الذي حققته الجامعة في ضوء إستراتيجيتها الجديدة، في مجال البحوث وعدد الخريجين، بالزيادة التي حدثت في ميزانيتها، حيث بلغت ما يعدل 20 مليون دولار عام 2005 و40 مليون دولار عام 2015 و50 مليون دولار عام 2016 و76 مليون دولار عام 2017 و80 مليون دولار عام 2018.

وفي إطار التحديث جرت عملية إعادة هيكلة للكليات والمعاهد، حيث تضم الجامعة اليوم أربع كليات هي:

1. كلية البستنة والمحاصيل والتخطيط الحضري: وتضم خمسة معاهد هي إقتصاد العمل والتكنولوجيا الحيوية والتخطيط الحضري والوراثة والوقاية البيولوجية.

2. كلية الموارد الطبيعية والإنتاج الزراعي: وتضم أحد عشر معهداً للموارد البيولوجية المائية وبيئة البحار والبحيرات والاقتصاد وتقنية الطاقة والتربة وعلوم الجزيئات وزراعة المناطق الباردة والأمراض النباتية والمياه والبيئة والإنتاج النباتي والإنتاج البيئي.

3. كلية البيطرة والإنتاج الحيواني: وتضم سبعة معاهد هي التشريح والفسلجة والكيمياء الحيوية، صحة الحيوان، البيطرة وعلاقتها بصحة الإنسان، الإنتاج الحيواني، الوراثة، الطب البيطري، مستشفى الحيوانات.

4. كلية علوم الغابات: وتضم ثمانية معاهد هي البيئة والغابات، تكنولوجيا الغابات، الإدارة البيئية للغابات، أمراض الغابات، البحوث الحقلية، الوراثة والفسلجة، إدامة الغابات واقتصاد الغابات.

التغييرات في النشاط البحثي

عمدت الجامعة الى تطوير متواصل للنشاط البحثي، مشترطة تنفيذ أبحاث متميزة، يتم التركيز فيها على الحلقة المركزية لعمل الجامعة، المتمثلة بتبوء موقع متقدم في التصنيف العالمي للجامعات وبتقديم أفضل المعارف الحديثة للمجتمع. وقد ارتفع عدد الأبحاث المنشورة في الدوريات العلمية العالمية بنسبة 267% خلال الفترة 2005 - 2017، كما تضاعف تأثيرها (impact factor) ثلاث مرات خلال نفس الفترة. وقد أصبح بالإمكان إنجاز ذلك عندما اعتُمد التكامل بين الإنتاج والبيئة والصحة وجودة الحياة، بحيث تحققت أبحاث متخصصة في مجال محدد واخرى تتكامل مع مجالات أخرى، تكون قابلة للتطبيق العملي في حياة المجتمع واقتصاد البلاد. ولعل أهم حافز لتطوير النشاط البحثي تمثل في الربط بين تمويله مالياً وبين توفر أمرين فيه هما الجودة العلمية لمشروع البحث، التي تقيّمها لجنة من أساتذة مختصين يعملون في جامعات أجنبية مماثلة، والمنفعة الاقتصادية منه والتي تحددها شركات منتجة محلية أو دولية.

كما أطلقت الجامعة برنامجاً خاصاً حول المستقبل، يهتم بالأسئلة الكثيرة والمعقدة

التي ستطرح في مختلف الميادين. وينفذ البرنامج هذا فريق عمل متخصص، يجري حوارات متواصلة مع المهتمين بهذه الميادين، لتحديد احتياجات المستقبل وتحدياته والحلول العلمية لمشكلاته.

وإدراكاً من الجامعة بأن تقدمها إنما يعتمد على إبداع باحثيها وقوة اندفاعهم في النشاط العلمي، عمدت الى تبني الأفكار الجيدة ومكافأة الباحثين المتميزين وسعت دوما لتحسين مداخيلها المالية بما يمّكنها من الوفاء بمسؤوليتها هذه. ووضعت آلية ناجحة لتقييم البحث، تتمثل في تقييم سنوي يمنح فيه الباحث أو التدريسي نقاطاً على ضوء ما ينشره من بحوث، عددها، مستواها العلمي، مستوى الدورية العلمية التي نشرت له، نشاطه التدريسي، الواردات التي حققها للجامعة من خلال تعاونه مع المنتجين، إمكانياته في مجال التربية وطرق التدريس، المقترحات التي طرحها وحقق تبنيها نجاحاً للجامعة، إبداعه في مجلات عمل الجامعة المختلفة. ويتم على ضوء هذه النقاط منح المكافآت وزيادة المرتبات والترشيح للمشاركة في المؤتمرات والنشاطات الدولية أو للسفرات الترفيهية والسياحية. ويلعب الباحثون اليوم بأنفسهم دوراً في تطوير النشاط البحثي والبنية التحتية له، حيث يحددون الإحتياجات التي يتطلبها أي تطوير مستقبلي في وقت مناسب، ويتم تبادل المعلومات حول المختبرات والأجهزة الحديثة المتوفرة في الجامعة وذلك لتسهيل التعاون بين الكليات في مجال إستخدامها المشترك، أو في شراء وتجهيز الجديد منها. كما تُقام ملتقيات داخل الجامعة لتنسيق هذا الإستخدام المشترك أو التطوير المطلوب. وتُشرك في هذه الملتقيات بعض الجامعات المحلية لمزيد من التنسيق والاستثمار الأقصى لمكونات البنى التحتية.

وأخيراً، يمكن الإشارة الى أن مسؤولية النشاط البحثي، إنما تقع على الكليات التابعة للجامعة، حيث تحدد كل كلية أولوياتها في ميدان عملها على ضوء الإستراتيجية الشاملة للجامعة، فيما ينشّط باستمرار التعاون بين الكليات في هذا المجال.

تطوير الاقتصاد الوطني

ولعل من أهم الميادين التي حققت فيها الجامعة إنجازات متميزة كان ميدان الانتقال الى اقتصاد يتبنى بشكل أكبر برامج الحماية البيئية. فمنذ أن اكتسب هذا الميدان أهمية كبيرة جراء البدء بإستخدام الطاقة البديلة، سعت الجامعة لتصبح شريكاً جذاباً لمنتجي التقنية النظيفة، ولتقديم المعارف التي يحتاجها المجتمع في استغلاله للموارد الطبيعية بشكل يحافظ على دوام الاستفادة منها، مع الأخذ بنظر الاعتبار العوامل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية والإثنية.

وتشارك الجامعة في البرامج الخاصة بتحقيق تطور بيئي مستديم، من خلال التأثير الإيجابي المباشر وغير المباشر الذي تؤدي اليه نشاطاتها التعليمية والبحثية والتحليلية. كما تعمل على تقليل التأثيرات السلبية لبعض نشاطاتها على البيئة. وتدّون

وتوثق جميع النتائج والفعاليات في قسم مختص بذلك.

وتتعامل الجامعة بفعالية مع ما يواجه المجتمع من تحديات كبيرة تتعلق بالعولمة والتحضر والهجرة وقضايا الاستدامة وتغير المناخ. كما تسعى للاستجابة الى ما تتطلبه هذه التحديات من حلول للمشاكل المتعلقة بالتنمية المستدامة وباستهلاك الموارد الطبيعية وبتلبية احتياجات البشر من الغذاء والطاقة والمياه النظيفة، إضافة الى الحفاظ على التنوع البيولوجي والحد من الفقر وتحسين الخدمات الصحية والتعليمية. وبغية تحقيق فهم أفضل للتأثير المتبادل بين البشر والموارد الطبيعية واقتصاد البلاد، تعمل الجامعة على تطوير البحوث المتعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية أيضاً.

كما أنجزت الجامعة عشرات البحوث النظرية والتطبيقية المتطورة في مجال التسويق الزراعي (الحبوب، الثمار، اللحوم، منتجات الألبان، منتجات الغابات والخ)، وفي إعداد عاملين متميزين في هذا الميدان الحيوي من جهة وباحثين يجمعون بين ميادين الإنتاج والتخزين والتسويق من جهة مكملة.

الغذاء الآمن

ساهمت الجامعة بقسط مهم في الإستراتيجية الوطنية للأغذية من خلال البحوث الخاصة بإنتاج الغذاء وتطوير نوعيته وضمان سلامته وتحسين مفرداته بشكل يستجيب لنتائج البحوث المتعلقة بعلاقته بصحة البشر وكفاءة اجسادهم وعقولهم، وتواصل العمل على التعاون مع الشركات المنتجة أو المّسوقة للغذاء من جهة ومع المستهلكين من جهة أخرى.

ولأن الإنتاج البيئي الذي لما يزل في بداياته، يمتلك طاقات كامنة هائلة لتوفير غذاء آمن وتقوية الاقتصاد الوطني، فإن زيادة إنتاج المواد الأولية البيئية يعد أحد التحديات المهمة، التي تتصدى لها الجامعة، عبر تشخيص المشاكل ووضع المعالجات والتعاون المثمر مع المنتجين والمؤسسات الحكومية والخاصة المهتمة بذلك.

التعليم في المرحلة الجامعية

تنفذ الجامعة مجموعة من برامج التعليم الجامعي المتميزة، في علوم التربة والغابات والبستنة والتخطيط الحضري والطب البيطري. وتهيئ معظم هذه البرامج الطلبة للحصول على شهادة جامعية في مهنة محددة. وهناك مجموعة من برامج التعليم على مستوى الماجستير في مجالات بحثية متقدمة.

يُشترط أن يكون نصف برنامج التعليم الجامعي على الأقل للجانب العملي، كالمختبرات والحقول والسفرات العلمية والمشاركة التدريبية في المعامل والحقول الإنتاجية وغيرها. وتخصص الأموال الكافية لتحقيق الشقين النظري والعملي للبرامج. كما يتم أثناء وضع البرامج الاتفاق مع الأطراف الخارجية (الشركات، الحقول، المعامل، المؤسسات الحكومية)

التي ستشارك في توفير فرص التطبيق العملي والتدريب للطلبة أثناء إنجازهم للبرنامج المحدد.

وفي مجال التعاون العلمي مع الجامعات الأجنبية، يدرس في الجامعة على مستوى البكالوريوس أو الماجستير العديد من الطلبة الأجانب. كما تنفذ العديد من مشاريع التعاون المشترك في هذا الصدد مع الجامعات المحلية والعالمية، ويشارك ما لا يقل عن 20% من طلبة الجامعة حالياً في برامج تبادل الطلبة، حيث يقضون فصولاً من دراستهم في جامعات أجنبية، فيما تستقبل الجامعة طلبة من تلك الجامعات ولنفس الفترات، وهناك مساعي لمضاعفة هذه النسبة في السنوات القادمة. وتلعب الجامعة دوراً متنامياً من خلال نشاطاتها وأبحاثها في تطوير البلدان ذات الدخل المحدود والدول الفقيرة، وتساهم في تعزيز التعاون التعليمي والتدريبي معها.

وأخيراً، تشترط الجامعة في كل هذه البرامج التعليمية، توفر مستوى علمي وتربوي يناسب حاجة المجتمع لمختصين في العلوم التي تقع في دائرة اختصاص الجامعة، وأن تكون البرامج متعددة الأهداف وتغطي ميداناً معرفياً أو أكثر في ذات الوقت، وذلك لتكون الجامعة جذابة للطلبة، فيختارون الدراسة فيها ويكون للطلبة قدرة تنافسية لاحقاً في سوق العمل. كما تشترط الجامعة في توسيع برامج التعليم، إبقاء الأبواب مفتوحة للخريجين للعودة الى رحابها في فترات معينة لتعزيز خبراتهم والإطلاع على ما هو جديد في ميادين المعرفة.

الدراسات العليا

يعد التعليم ما بعد الجامعي، من الميادين المهمة جداً، فأطاريح الدكتوراه والنشاط البحثي لطلبة الدراسات العليا مصدر أساس للبحوث التي تنشرها الجامعة في الدوريات العلمية العالمية. ويتم التأكيد دوماً على أن تستجيب هذه البحوث للاحتياجات المستقبلية لسوق العمل والمجتمع من جهة وأن تتمتع بجودة وسلامة تتبوأ من خلالها مستويات دولية عالية. وعادة ما يتم تمويل المشاريع العلمية لطلبة الدراسات العليا كليا أو جزئيا من قبل الشركات والمؤسسات المنتجة، مما يجعلها ذات منفعة اقتصادية وعاملا مساعدا على التطور العلمي. كما لا يحصل بحث الطالب على أية معونة من الجامعة أو الدولة، إلا بعد منافسة شديدة تؤدي الى تمويل أفضل البحوث المقدمة، بحيادية ومهنية عالية.

ويتوجب على طلبة الدراسات العليا اجتياز المنافسة الشديدة مع أقرانهم في الجامعات السويدية أو العالمية وإثبات مكانتهم العلمية من خلال المؤتمرات والسيمنارات والملتقيات وغيرها (والتي يشترط المشاركة الفعالة في ثلاث منها على الأقل)، والتي يتم تقييم الطالب على ضوء تفوقه في هذه المنافسات. وتلعب دروس ودورات التربية دوراً في إعداد الباحثين وبرامج الدراسات العليا، حيث لا يُمنح الطالب شهادة الماجستير أو الدكتوراه، إلا بعد اجتيازه للاختبارات النظرية والعملية المتعلقة بالتربية وطرق التعليم.

وللجامعة ملتقى خاص بطلبة الدراسات العليا، يتواصلون من خلاله ويتبادلون الأفكار حول مواضيع تخصصهم أو برامج البحث أو الأنظمة المتبعة والبيئة البحثية وتوفر المستلزمات وغير ذلك، مما تستمع له الإدارات بدقة، وتأخذ بكل المقترحات والأفكار المفيدة التي تناقش في هذا الملتقى. كما توفر الجامعة لطلبة الدراسات العليا دخلاً ثابتاً يؤمن لهم ظروفاً حياتية مناسبة. وهناك ملتقى سنوي في الجامعة لتحديد المواضيع التي تصلح لطلبة الدراسات العليا على ضوء حاجة المجتمع والاقتصاد الوطني والتطور العلمي، تساهم فيه نخبة من العلماء والأساتذة من الجامعات السويدية والأجنبية وممثلي الحكومة والبرلمان والشركات والمنظمات الاجتماعية والأحزاب ومنظمات الطلبة وغيرها.

خدمات وأنشطة الجامعة

تقدم الجامعة عددا كبيرا من الخدمات للطلبة والباحثين والعاملين، فهناك إدارة خاضعة لنظام تحديثي متواصل، ومكتبات (ورقية وإلكترونية) تضم عشرات الآلاف من الكتب والدوريات الصادرة خلال قرن كامل، وفي جميع بقاع الأرض، إضافة الى خدمات الانترنيت المتطورة، وعشرات المختبرات والمعامل (قسم منها يكون إنتاجياً لحد ما كمعامل التعليب وإنتاج العلف). وتوفر الجامعة سكنا ومطاعم بأسعار مناسبة للطلبة، الذين يحصلون على قرض دراسي، يعيدون 70% منه بعد حصولهم على عمل وبأقساط مناسبة، علما أن جميع مراحل الدراسة مجانية. وتخضع كل هذه الخدمات والأنشطة لرقابة دورية من الإدارة والطلبة والعاملين، حيث تعقد ملتقيات دورية لمناقشة هذه الجوانب واتخاذ القرارات المشتركة لمعالجة ما يعترض العمل من مشاكل وصعاب.

أسس اختيار العاملين في الميادين المختلفة

تشترط الجامعة في منتسبيها الخبرة النظرية والعملية من جهة والقدرة الواضحة على الإبداع في العمل، وذلك من أجل أن تحقق تعليماً متميزاً وبحوثاً متقدمة وتحليلاً سليماً وفعالاً للمتغيرات البيئية. ولكي يمكن للجميع أن يتطور وأن يقدم أقصى ما يستطيع لتحقيق أهداف الجامعة، وكي تستطيع الجامعة الاحتفاظ بالعاملين المتميزين وتجنب تسربهم لجامعات أخرى، تعمل على تحسين أجواء العمل وفاعلية الإدارة. كما تعمل على استثمار إستراتيجي للموارد وميزانية مستقرة، تضمن تفوقاً في المنافسة الشديدة في النشاط الأكاديمي. ومن هنا تعتبر القدرة على تحقيق موارد مالية جديدة، عبر النشاط البحثي، ميزة أخرى للعاملين في الجامعة ومؤشراً تتحدد من خلاله مكانتهم ومداخيلهم الشهرية.

وإضافة الى ذلك، تشترط الجامعة في التدريسيين خبرات تربوية متقدمة، تم

إكتسابها من كورسات وملتقيات ومؤتمرات خاصة بطرق التعليم، إضافة الى الخبرة العملية في التدريس الجامعي والبحث العلمي، فكل تدريسي في الجامعة هو باحث في الأصل، تدّرج ليصبح تدريسياً. وتقيم الجامعة عشرات الأنشطة الخاصة بتطوير الجانب التربوي وتحسين طرائق التدريس. ومن الأمثلة على ذلك غداء عمل تربوي لمدة ساعة كل يوم أربعاء، ولقاء شهري لكل المشرفين على طلبة الدراسات العليا في ميدان معرفي محدد، وتقييم لأي كورس من قبل الطلبة الذين شاركوا فيه، وملتقى سنوي لتطوير المناهج، وآخر لتحديث الكورسات وغيرها. ولعل من المفيد الإشارة الى أن جميع العاملين والقيادات الجامعية خاضعة أيضاً لدورات خاصة تنمي قدراتها والى تقييم دوري لعملها، لا يساهم فيه رؤساؤها فحسب بل وحتى مرؤوسيها.

استنتاجات مفيدة

يمكن تلخيص أهم منجزات الجامعة السويدية للعلوم الزراعية، والتي يمكن الاستفادة منها في جامعاتنا الزراعية بالنقاط التالية:

• تجميع الاختصاصات الزراعية والبيطرية في جامعة واحدة، بغية تكثيف مجالات التخصص وتحسين التكامل بينها وتطوير اليات العمل.

• توسيع الخطط الزمنية باستمرار بحيث تشمل قطاعات جديدة وتقوم بتغطية مجالات التنمية الريفية والمدينية وموارد المياه والحياة البرية والحيوانات الأليفة والرياضة، والتكنولوجيا الحيوية والطاقة البديلة وكل ما يتعلق بحماية البيئة.

• اعتماد بعد عالمي لهذه الخطط، من خلال الربط بين مهام الجامعة والتحديات المجتمعية كالتغير المناخي والأمن الغذائي والمائي وقضايا الاستدامة والرفاهية الاجتماعية وغيرها. ويجب أن يشكل التعاون الدولي جزءاً مهماً من أبحاث الجامعة، وأن تتزايد أهميته باستمرار.

• أن يتنامى النشاط البحثي في الجامعة في خطوط متوازية مع التعليم باختلاف مستوياته، الأساس والمتقدم والعالي، وفي الحقول العلمية العديدة، التربة، البستنة، التخطيط الحضري، إنتاج الأغذية، حماية الطبيعة، الغابات، تطوير وتحسين الأنواع، الثروة السمكية، المياه، البيطرة ورعاية الحيوانات الأليفة.

• أن تتضمن برامج التعليم الأساسي والمتقدم إعداد المهنيين المطلوبين في البرنامج الوطني لإعداد الكوادر العلمية.

• أن توضع خطة استثمارية لتوفير كل المستلزمات التي تتطلبها البحوث، كالأجهزة والمختبرات والمكتبات وخدمات الانترنيت والمستشفى البيطري وغيرها.

• أن تتحمل الجامعة مسؤولية خاصة فيما يتعلق بالتحليل المتواصل للبيئة، من خلال الربط بين مراقبة المتغيرات البيئية واستخدام الخبرات العلمية في حل المشاكل التي تواجه المجتمع في هذا الميدان المهم.

• تواجه الزراعة في العالم، ومنه العراق، تحديا كبيرا يتمثل في التطور السريع الذي

تشهده التكنولوجيا، وما يرافق ذلك من حاجة لصيانة وتحسين القدرة التنافسية لمنتجاتها وتحقيق الأرباح المناسبة من جهة، والحد من التأثير السلبي على البيئة وعلى الغذاء وعلى صحة الحيوانات من جهة مكملة. ولهذا لا بد من زيادة في عدد ومحتوى البحوث التي تتعامل مع هذه التحديات. ومن المهم هنا الإشارة الى ضرورة اعتماد مجاميع بحثية متعددة الإختصاصات والخبرات، وإشراك المستفيدين من نتائج البحث في العديد من مراحله أو جميعها، بغية تحسين وتطوير مباشر للقطاعات الإنتاجية المختلفة في المجتمع، وتعزيز روح الإبتكار وإدخال التكنولوجيا الحديثة وتحسين إستخدام هذه التكنولوجيا.

• في نظام التعليم العالي لا بد من فرض اشتراطات جديدة، تتعلق بجودة التعليم في جميع مستوياته، ارتباطاً مع الزيادة المضطردة في مستلزمات الجودة على الصعيدين الوطني والدولي. وينبغي ربط التخصيصات المالية للبحوث بتقييم نوعيتها وجدواها على أساس مقياس وطني للتقييم. وضمان تكافؤ الفرص بين الباحثين وتأمين تقييم موضوعي لنشاطهم يضمن هذا التكافؤ. كما يمكن زيادة مساهمة المؤسسات الإنتاجية في تمويل البحوث جزئياً أو كلياً لاسيما إذا ما ساهمت هذه البحوث في تطوير إنتاجية وأرباح هذه المؤسسات.

عبد الجبار عبد اللّه
دور ريادي في إرساء وتطوير البحث العلمي في العراق

د. إبراهيم الخميسي

د. إبراهيم الخميسي من مواليد 1946، تخرج من قسم الفيزياء بجامعة البصرة عام 1969، وعمل في نفس القسم ثلاث سنوات. حصل على شهادة الدكتوراه PhD في الفيزياء والرياضيات من جامعة موسكو في 1979. عمل باحثاً ومشرفاً على طلبة الماجستير في قسم الفيزياء النظرية بجامعة موسكو لمدة عام ونصف تقريبا. كما عمل رئيساً لقسم الفيزياء في جامعة عدن، ورئيساً للجنة تقييم البحوث العلمية في كلية التربية. تركز عمله على البحث النظري في فيزياء النواة والجسيمات الأولية، ونشر في هذا المجال حوالي عشرين بحثاً وتقريراً علمياً في أشهر المجلات العلمية السوفيتية والأوربية، كما نشر أيضا العديد من المقالات العلمية العامة في بعض المجلات العراقية والعربية والمواقع الإلكترونية. ترجم كتاب بعنوان (الكواركات...البروتونات... الكون) عن الروسية، وصدر له كتاب عن العالم العراقي عبد الجبار عبد الله في الذكرى المئوية لولادته.

ليس من السهل الكتابة عن العلماء الذين يقضون جلّ أوقاتهم في المختبرات أو مراكز البحث العلمي، سواء النظرية منها او العملية. علماً أن العديد منهم لا يحب الظهور أو لا تسنح له الفرص لتقديم نفسه والحديث عن أعماله أو بحوثه أو نظرياته. فمن النادر جداً أن نشاهد مقابلة تلفزيونية أو مادة إعلامية أخرى لمبدعي بلادنا في مجال العلم. ولعل أحد أسباب ذلك هو الافتقار لفهم دور العلم ولتقدير جهود العلماء في مجتمعاتنا، إضافة إلى أنه يصعب في أحيان كثيرة أن يتحدث الباحثون العلميون عما يقومون به بلغة يفهمها عامة الناس. وتكون معظم أعمالهم العلمية عبارة عن مقالات وبحوث يجري نشرها في مجلات علمية متخصصة لا يفهمها غير العاملين بنفس المجال. ونفر قليل جداً منهم من ينشر كتباً يُبسّط فيها ما يتوصل إليه من نتائج، مبيناً أهمية ذلك للعلم وللناس.

ولم يكن عبد الجبار عبد الله، في هذا السياق، استثناء. فحين كتبتُ أول مقالة عنه بعنوان "عين الأعصار"، بمناسبة مرور

ربع قرن على رحيله. لم أستطع الحصول على مصادر ضرورية وكافية للبحث. لا توجد مراجع وافية عن د. عبد الجبار، فحتى الوثائق الخاصة بعمله وتقاعده قد اختفت من الدوائر المعنية رغم خدمته لسنين طويلة فيها.

في هذه المقالة أتناول أهم أعماله العلمية وبحوثه التي نشرها في أشهر المجلات المتخصصة في فيزياء الجو والأنواء الجوية وغيرها، وريادته في بعض تلك المجالات. وكذلك إشارات إلى إسهاماته الكبيرة المتميزة في مجمل عملية التربية والتعليم، ودوره البارز في تأسيس جامعة بغداد وجامعات ومعاهد أخرى في أرجاء العراق المختلفة. أعتمد هنا على مقالاته العلمية المنشورة باللغة الإنكليزية والتي زودني بها طيب الذكر المرحوم الأستاذ عزيز سباهي، إضافة إلى بعض المصادر القليلة جداً.

إن من يطلع على الأعمال والأبحاث العلمية التي قام بها د.عبد الجبار عبد الله ، وكذلك على كتبه وترجماته ومقالاته العامة، ونتاجه وآرائه وأفكاره في العملية التعليمية والتربوية، يدرك القيمة الحقيقية لمكانته كعالم مرموق في مجال فيزياء الجو، ويعرف إنه ريادي في بعض فروع هذا العلم، وأستاذ جامعي ومربي وتربوي قلَّ مثيله.

تدل مقالاته العلمية على انه كان في قلب الجبهة الأمامية لعلم الأنواء الجوية وفيزياء الجو عموماً، في ذلك الوقت. إن أبحاثه تشير إلى خيال خصب، وأفق واسع، وإطلاع وفير لهذا العالم الجليل في مجال تخصصه. كان في بداية كل بحث من بحوثه معتاداً أن يوجز أهم ما توصل إليه الباحثون الآخرون، ومن ثم يبيّن أهمية الموضوع ألذي يتناوله هو أو النموذج الجديد الذي يضعه، يدخل بعد ذلك في صلب البحث نفسه، ليصل أخيراً إلى ألنتائج النهائية، مقارناً إياها بالنتائج العملية المتوفرة.

معظم أبحاثه كانت حول الأعاصير والرياح القوية والزوابع. درس أسباب وطرق تولّدها والعوامل التي تساعد على نموها وأخذِها أشكالها النهائية. كان يصف ذلك بشكل مذهل حتى يخيل إليك أنه راكب مع تلك الموجات التي كان يبحث فيها، مندفع مع التيارات المتلاطمة والدوارة، سائر في طرقها الملتوية، الصاعدة منها والهابطة والحلزونية وغيرها. كان يبيّن بإمعان ووضوح طبقات الهواء المتباينة، الباردة، الأقلّ برودة، الدافئة والأكثر دفئاً، وكذلك علاقات تلك الطبقات مع بعضها البعض. كما بيّن درجات حرارتها، أسباب اختلافها عن بعضها وفرق الضغط بينها. إضافة إلى دراسته العوامل والمؤثرات التي كانت تلعب دوراً مهماً في حدوث ونمو وتكامل الزوابع والأعاصير. ولقد خصص قسماً من أبحاثه لدراسة قلب الإعصار الذي يدعى (عين الإعصار).

الشيء المهم الذي تميزت به أعماله هو وصفه لما كان يحدث بمعادلات رياضية، يستطيع الباحث بواسطتها التنبؤ بحالات هبوب الإعصار. وعلى هذا الأساس يتم التهيؤ والاستعداد لمواجهة ذلك، حيث يتم إنقاذ السفن والبواخر التي تمخر عباب البحار والمحيطات، وأخذ الاحتياطات اللازمة في المدن.

أول الأبحاث العلمية

باكورة أعماله العلمية كانت اطروحة الدكتوراه حيث (عالجت نظرية الأمواج الجوية وتزايد طاقة مثل هذه الأمواج بواسطة سرعة مجموعتها) (1).

من بين أول أعماله، على سبيل المثال، بحث لدراسة التأثير الميكانيكي لموجة الهواء البارد على حدوث الأعاصير الحلزونية المدارية ((1) انكليزي). وهو بحث نظري تناول التأثيرات والاضطرابات والتخلخلات الضغطية، والاختلافات في درجات الحرارة التي تحدث حينما تتحرك طبقات الهواء البارد إلى الأعلى، مخترقة جبهة الموجة التي تفصلها عن طبقات الهواء التي تقع فوقها، والتي هي ادفأ منها. وهذا بدوره، دون الخوض في تفاصيل عديدة، يشكل الجانب الميكانيكي الذي يؤدي إلى حدوث الزوابع. وأشار اثنان من العلماء الأمريكيين البارزين في علوم الأنواء الجوية، هما هورتز واوبراني [1]، الى أهمية هذا العمل (لأنه يدل على التطبيق الأصيل لأسلوب الأعداد البيانية في اللوغاريتمات على قضايا الأنواء الجوية. وفي بضع سنوات فقط حذت أبحاث عديدة حذو ما توصل إليه د. عبد الجبار. واُستخدمت هذه الأداة الجبارة في حل معادلات تفاضلية جزئياً غير خطية زائدية المقطع في معالجة القضايا الجوية).

عين الإعصار

وفي مقالة أخرى ((2) انكليزي) درس د.عبد الجبار حدوث ونمو وتكامل عين الإعصار. والإعصار يبدأ كدوامة صغيرة، ثم تكبر وتنمو عين الإعصار، فتكون ضيقة، دافئة، واضحة، تحدّها ريح قوية، وفرق بالضغط شديد الكثافة. وهذه الحالة غير مستقرة، مما يؤدي إلى تغيير شكل العين، فتأخذ بالتوسع، وقد تكون غير دافئة، غير واضحة، كما تقل كثافة فرق الضغط. وباستخدام موديلات (نماذج) رياضية مبسطة، عن طريق إهمال بعض العوامل، مثل تأثيرات الاحتكاك ودوران الأرض على التحركات الجوية، استطاع د. عبد الجبار توضيح بعض الخصائص المهمة لهذا الاعصار، وإمكانية التنبؤ بحدوثه. وله كذلك دراسات اخرى حول عين الإعصار (انظر، على سبيل المثال، ((2)).

العاصفة

وقد خصص بعض بحوثه ((3-5) انكليزي) إلى دراسة خصائص خطوط العاصفة. كان يلاحظ أن تلك الخطوط، التي تشكل مقدمة الجبهة الباردة للعاصفة، والتي تندفع بتعجيل معين، يجري نموّها طوليا. قام د. عبد الجبار بوضع محاولة ((4) انكليزي) لتوضيح صفات خطوط العاصفة، والتي تُدعى أيضاً خطوط قفز الضغط، وكذلك لاستنتاج معادلة رياضية، يُستطاع من خلالها التنبؤ بذلك النمو. لقد اعتمد في موديله (نموذجه) على عدة فرضيات منها: إن مستوى هبوب العاصفة افقيا وخاليا من أية ارتفاعات، وإن تعجيل الجبهة الباردة ثابتاً. كما إن تلك الجبهة الباردة لا تحتوي على اية سرع جانبية إثناء جريانها. اعتماداً على هذه الفرضيات، استطاع اشتقاق

معادلة رياضية يمكن بواسطتها دراسة كيفية تشكل وتنمو خطوط العاصفة او الزوبعة وكذلك التكهن بوقوعها.

الموجات الجوية

درس د.عبد الجبار، في أعمال اخرى له، الموجات الجوية المنفردة ((7-6) انكليزي). كان يُعرف بوجود موجة منفردة في المياه الضحلة، وهي عبارة عن ارتفاع منفرد على سطح الماء، يسير، دون أن يغير شكله، إلى مسافات بعيدة. بحث د. عبد الجبار في احتمالات وجود مثل هذه الموجات في الهواء الجوي. وأثبت وجود ذلك فعلاً. أي وجود ارتفاع منفرد في السطح العلوي لطبقة من الهواء، ينتقل لمسافة كبيرة على ذلك السطح. ويكون ذلك على شكل ارتفاع صغير يسير منتقلاً بالنسبة لمشاهد على الأرض. كما بين إمكانية حدوث مثل هذه الموجات في الهواء الجوي، وكيف إنها قد تؤدي إلى خلق نشاط انتقالي، يسبب بدوره نشوء إعصار قُمعي (على شكل قُمع). باتت دراسته بهذا الشأن (طليعة الحقل الخاص من العلوم، الذي أصبح يُعرف بـMesometeorology" " والذي إزدهر، وغدا فرعاً مهماً من علم الأنواء الجوية) (1).

الإعصار

يلجأ العلماء والباحثون في أحيان كثيرة إلى تبسيط المسألة التي يبحثون فيها، وذلك بإهمال أو إغفال بعض العوامل التي تؤثر في المسألة موضوع البحث. فعند إدخال جميع العوامل قد يحصلون على معادلات غير قابلة للحل، أو تكاملات غير قياسية أو أشكال رياضية معقدة اخرى. وغالباً ما يتوقفون عن البحث الفيزيائي، الذي بين أيديهم، ليغرقوا في عمل رياضي قد يطول. لذلك يقوم الباحثون بترك بعض العوامل جانبا، ليحصلوا على نتائج لأعمالهم في شكل تعبير رياضي مناسب، يمكن الاستفادة منه في التطبيقات العملية. أما العوامل الأخرى فيجري تركها للمستقبل. فهي إما أن تؤخذ في أبحاث قادمة، أو حين توفر إمكانيات جديدة في الرياضيات تسمح بحل ما يصادفهم من صعوبات.

وينبغي الاشارة هنا إلى أن التقريبات (أي إهمال او إغفال بعض العوامل) التي يقوم بها الباحثون تشمل عوامل ثانوية وليست رئيسية. أو بمعنى آخر، تشمل عوامل أقلّ تأثيراً من العامل أو العوامل الرئيسية التي يجري إدخالها في صلب البحث. ولذلك فإن التقريبات، التي يلجأ اليها العلماء، لا تؤثر على الشكل العام والمهم للنتائج، ويبقى دورها محصوراً في زيادة الدقة لنتائج البحوث.

كان د.عبد الجبار يعمل بتلك الطريقة أيضاً. وكان يورد بكل وضوح العوامل التي يتركها جانبا في البحث الذي بين يديه. ففي أحد أعماله ((8) انكليزي)، درس شكل الحزم الحلزونية للإعصار وكيفية تكونها. ومن التقريبات التي فرضها لتبسيط المسألة، هي أن الإعصار يتكون من منطقتين متميزتين بشكل واضح، وهما عين الإعصار، وهي دائرية الشكل، والمنطقة الخارجية التي تكون متماثلة حول العين. كما أن الهواء داخل منطقة العين

يدور حول محوره الهندسي كجسم صلد. أما سرعة الرياح في المنطقة الخارجية فهي تتناقص مع المسافة حسب قانون التناسب العكسي. إضافة إلى ذلك فإن سرعة الرياح لا تعتمد على الارتفاع.

إستناداً إلى كل ما تقدم؛ إستطاع د.عبد الجبار توضيح شكل وسلوك الحزم الحلزونية في الإعصار، سواء الحزم المنفردة منها أم المجتمعة. وبيّن أيضاً أن توضيح طبيعة الحزم الحلزونية يساعد على إعطاء معلومات مهمة عن طاقة الإعصار.

أعمال رائدة أخرى

هناك أعمال أخرى لعبد الجبار عبد الله، يمكن الإطلاع على قسم منها في (1). إضافة الى ذلك، ألّف وترجم عدة كتب مهمة منها، على سبيل المثال، كتاب (الصوت) لطلبة الفيزياء في الجامعة، فكان خير مرجع لهم ولأساتذتهم. كما ترجم، مع زميل له، ترجمة رائعة كتاب (مقدمة في الفيزياء النووية والذرية) لمؤلفه هنري سيمات. أفادت تلك الترجمة أجيالاً من الفيزيائيين، طلبة وأساتذة.

إضافة إلى أبحاثه العلمية، قام بعمل تدريسي وتربوي كبير. فقد درّس في جامعة بغداد، وفي كليات ومعاهد ومدارس اخرى. كما درّس في جامعات ومعاهد أمريكية مرموقة، منها جامعة نيويورك وجامعة بوسطن ومعهد أبحاث الفضاء في ألبني (نيويورك) وفي كولورادو (بودلر).

عبّر عبد الجبار عبد الله، في أكثر من مناسبة، عن آراء وأفكار قيمة حول كيفية النهوض بالبحث العلمي وبمجمل العملية التعليمية والتربوية في العراق (1).

بعد ثورة 14 تموز انتخب د. عبد الجبار عبد الله رئيساً لجامعة بغداد. ومن موقعه هذا قدّم إلى بلاده خدمات جلّى. فبالإضافة إلى اهتمامه بالمناهج والكادر التدريسي، وإرساء أسس صحيحة للبحث العلمي، وتأسيس الجامعات والمعاهد والكليات، وإصدار أول مجلة علمية، وعقد أول مؤتمر علمي لجامعة بغداد، حيث كان بحق أول تظاهرة علمية كبيرة ومهمة في بلادنا، إضافة إلى كل ذلك وغيره، فقد قام بالعديد من الأعمال والمشاريع البحثية التي كان لها، لو استمرت، أن تلعب دوراً مهماً واستراتيجياً في حاضر العراق ومستقبله.

ومن بين تلك البحوث، على سبيل المثال، انظر (3):

1. بحث نشره في مجلة ألمانية متخصصة في فيزياء الجو. كان عنوان البحث (نموذج للعواصف الترابية الشديدة في العراق)، ويتعلق بغبار بغداد وكيفية تلافيه.

2. بحث آخر هو (الكبح الجوي)، ألقاه في الجمعية العلمية العراقية.

3. كما ألقى أحد بحوثه في المؤتمر العلمي الأول لجامعة بغداد، الذي انعقد في عام 1961، وكان تحت عنوان (معدل نقل الطاقة الميكانيكية بواسطة الموجات الناتجة عن الرياح الغربية).

4. نشر بحثين حول السحب والضباب عندما كان يعمل في جامعة نيويورك بأمريكا، وذلك بعد أن غادر العراق إليها بعد انقلاب 1963، وبعد أن لاقى ما لاقاه على يد الانقلابيين.

وهكذا نجد أن مشاغل رئاسة الجامعة،

إضافة إلى التدريس، ومجمل عملية التربية والتعليم، لم تشكل عائقاً أمام عبد الجبار عبد الله لكي يواصل بحوثه العلمية. وكانت تلك البحوث تتسم بميزة خاصة؛ إذ أنها كانت تتعلق بالعراق، بجوّه، غباره، عواصفه، سحبه، ضبابه ومختلف جوانب أنوائه الجوية.

كما إن د. عبد الجبار، هنا أيضاً، أعطى مثالاً رائعاً بشأن العلاقة الوثيقة بين ما يقوله المرء وما يعمله. ففي كتاباته وأحاديثه وخطبه كان يؤكد على أهمية ربط النظرية بالواقع العملي، وأهمية البحوث التطبيقية بالنسبة للبلاد. وقد قام بذلك فعلاً، كما شجع زملاءه الباحثين والأساتذة العراقيين على ممارسة ذلك.

تأسيس جامعة بغداد

كان للدكتور عبد الجبار عبد الله، سوية مع الدكتور متي عقراوي، الدور الرئيسي في التهيئة والإعداد لتأسيس أول جامعة عراقية حديثة، هي جامعة بغداد التي تأسست عام 1956. كان أول رئيس للجامعة هو د. متي عقراوي، وشغل د. عبد الجبار عبد الله منصب الأمين العام للجامعة عام 1958، كما كان وكيلاً لرئيس الجامعة. وفي عام 1959 انتخب د. عبد الجبار رئيساً لجامعة بغداد. وإثناء رئاسته للجامعة استخدم د. عبد الجبار كل خبراته وتجاربه، إضافة إلى تفانيه وإخلاصه اللامتناهيين في عمله، لخدمة قضايا العلم والمعرفة والتربية والتعليم، ولتطوير جامعة بغداد على أسس علمية ومهنية وديمقراطية سليمة.

تأسيس جامعات ومعاهد ومجالس بحوث في أنحاء العراق

وفي فترة رئاسته لجامعة بغداد أسس (أنظر، على سبيل المثال، (3) وكذلك (4)):

- جامعة البصرة.
- مجلس البحوث الإسلامية.
- مجلس البحث العلمي.
- كلية الشريعة.
- العديد من المعاهد، مثل، معهد اللغات، معهد الغابات، معهد التمريض ومعهد الإدارة العامة (5).
- الكثير من الكليات، مثل، كلية الزراعة والغابات في الموصل، كلية الطب في الموصل وكلية الإدارة في البصرة (5).

يؤكد البعض أن الفضل يعود إلى عبد الجبار عبد الله في تأسيس جامعة البصرة. وفي سنوات لاحقة، عام 1964 بالتحديد، وقع اختيار رئاسة جامعة بغداد على الدكتور رمزي ميشو، رئيس قسم الفيزياء بمعهد المدرسين العالي في بغداد عندئذ، على إيجاد موقع مناسب لإنشاء جامعة البصرة، وبالتعاون مع الدكتور يوسف عرب(6)، الذي بات عميداً لكلية العلوم في الجامعة الفتية. كما أصبح الأستاذ الدكتور رمزي ميشو رئيساً لقسم الفيزياء بجامعة البصرة. وضم ذلك القسم مدرسين عديدين كان من أبرزهم الدكتور راشد الراشد الذي أصبح أستاذاً بعد سنوات عديدة من النشاط العلمي والتعليمي. كان الدكتور راشد أحد طلبة عبد الجبار عبد الله في دار المعلمين العالية ببغداد، وقد تحدث عن أستاذه في كتاب "عين الإعصار" (2).

أول جمعية للعلوم وأول مجلة علمية

لقد أسس عبد الجبار عبد الله، مع زملاء له، أول جمعية للعلوم الرياضية والفيزيائية، كما أصدروا أول مجلة علمية تنشر البحوث في المجالات العلمية والبحثية المختلفة. وقد أطلق عليها اسم:

Proceeding of Iraqi Scientific Societies

وذكر الدكتور عبد الكريم الخضيري (كان المحفز لهذه الفكرة ومحركها الأول د. عبد الجبار عبد الله الذي انتخب رئيساً لتحريرها بالإجماع. وشرعت المجلة تصدر باللغات الأوربية الحديثة مع خلاصة بالعربية. ولم يأت اختيارنا لرئيس التحرير اعتباطاً. فقد كان الدكتور عبد الجبار عبد الله يتألق بين المثقفين وأساتذة العلوم لجدارته العلمية وطيب أخلاقه) (5).

ويضيف الخضيري، الذي كان عبد الجبار عبد الله قد اختاره سكرتيراً لتحرير المجلة، بأن د. عبد الجبار (كان خبيراً في النشر العلمي، وقد سبق له أن نشر أبحاثاً عديدة في المجلات العلمية العالمية، وقديراً على إدارة الجلسات. وكان ضليعاً بالعربية حافظاً للشعر، كما كان ضليعاً باللغة الإنجليزية ولغات اوربية أخرى) (5).

إن إجادة اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية مكّنته من الإطلاع على ما يُنشر في تلك اللغات من مصدره الأصلي، وساهم في تنوع وإغناء مصادره المعرفية والمعلوماتية. هذا اضافة إلى اهتماماته وقراءاته المتنوعة في الشعر والأدب والفلسفة والتأريخ.

لقد لعبت تلك المجلة دوراً رياديا في تشجيع وتنشيط عملية البحث في مختلف الاختصاصات؛ الأمر الذي أدى إلى خلق أجواء علمية لا يستطيع البحث العلمي أن يزدهر بدونها.

ويؤكد الخضيري (5) على أن المجلة باتت معروفة لدى الجامعات في اوربا وامريكا، حيث توالت اشتراكات تلك الجامعات في المجلة. وهذا ما يبعث على الفخر والإعتزاز بتلك التجربة الفريدة وذلك العمل الكبير. فليس من السهل أبداً، أن يصدر العراق، في بداية ستينيات القرن الماضي، مجلة علمية تعترف بها وتقيمها مراكز البحث العلمي العالمية، بل وتشترك فيها.

كان لهذا دلالة كبيرة، وهي أن مستوى البحوث، التي كانت تنشر في تلك المجلة، تنسجم مع مستوى البحوث الجارية في جامعات تلك البلدان. ويعني ذلك، أن جامعة بغداد، وبقية المعاهد، كانت تضم في أقسامها العلمية المختلفة باحثين وأساتذة لهم من الخبرة والتجربة ما يؤهلهم للقيام بمثل تلك البحوث ذات المستوى العالمي. كما يدل ذلك، من جهة أخرى، على النية والعزم الصادقين على استقطاب الجامعة آنذاك للكفاءات الأكاديمية، ووضعها في مكانها المناسب الذي يليق بها. الأمر الذي ساهم في إرساء الأسس الصحيحة لإنهاض وتطوير البحث العلمي، وأعطى تلك النتائج الباهرة التي تحدثنا عنها.

المؤتمر العلمي الأول

من بين أهم ما كان يشغل بال د. عبد الجبار هو خلق أرضية صالحة لممارسة

العمل العلمي. وقد بذل جهوداً كبيرة في هذا الشأن، مستخدماً كل خبرته وتجاربه، سواء في البحث العلمي، أو في المؤتمرات العلمية التي كان يحضرها. ولا شك في أن تواجده في أجواء تلك المؤتمرات، ومشاركته فيها، جعلته يدرك أهمية عقدها، لما تعطيه من نتائج باهرة من جهة، ولما توفره من أساس جيد لتطوير البحث العلمي من جهة أخرى. وغالباً ما تولد نظريات أو اتجاهات جديدة بالعلم في مثل تلك المؤتمرات.

ومن أجل توفير تلك الأرضية وخلق أجواء علمية بادر إلى تهيئة وتنظيم عقد المؤتمر العلمي الأول لجامعة بغداد في عام 1961. وألقيت بحوث عديدة ومتنوعة شملت العلوم البحتة والتطبيقية. وألقى عبد الجبار عبد الله في ذلك المؤتمر بحثاً بعنوان "معدل نقل الطاقة الميكانيكية بواسطة الموجات الناتجة عن الرياح الغربية"(3).

(لقد كان المؤتمر تظاهرة علمية كبيرة لم يسبق أن شهد العراق مثلها من قبل. وكان كل من شارك فيه يحس بالفخر والاعتزاز. وقد نشرت خلاصات للأبحاث التي طرحت فيه. وكان حافزاً لتطوير البحث في الجامعة. وقد افتتح الدكتور عبد الجبار عبد الله المؤتمر بكلمة مؤثرة كان لها صدى بعيد في المجتمع العراقي. وغدا البعض يردد ما أورده فيها من حكم، لا سيما استعارته للمثل الصيني عن شجرة الصفصاف وشجرة البرتقال للحث على التواضع العلمي الأصيل وتجنب روح التبجح) (5).

وفي رسالة شخصية إلى كاتب هذه المقالة من الدكتور طارق الخضيري، أحد أعضاء الهيئة التدريسية في كلية الهندسة آنذاك، أشار فيها إلى دور عبد الجبار عبد الله في ذلك المؤتمر، حيث جاء فيها: "كان يمثل الأستاذ الفاضل والمؤمن برسالته في الجامعة آنذاك، دمث الأخلاق في حديثه ولقائه لجميع من ساهم في ذلك المؤتمر، ومنهم أنا، حين قدمت ورقة متخصصة بإحدى عمليات الامتصاص في أجهزة التقطير للعمليات الكيمياوية. كان تعليقه مرحباً دون أن يتطرق إلى فحوى الموضوع، مما يدل على حكمته في إدارة المؤسسة الثقافية بجدارة دون تبجح بإمكانياته العلمية. وإني متأكد أن بعض زملائي في تلك المرحلة يشاركوني الرأي بأنه حاول جاهداً إبعاد تلك المؤسسة عن الصراع السياسي وحتى الشخصي داخلها أو من خارج حدودها الإدارية، لضمان تقدمها في خدمة الوطن وشأنه الثقافي".

نشاطات وعلاقات لخدمة الوطن

كان عبد الجبار عبد الله عضواً في لجان عديدة مهمة منها (انظر (7)، مثلاً):

1. لجنة الترجمة التي شكلها المجمع العلمي العراقي عام 1948.
2. اللجنة الوطنية لليونسكو عام 1955.
3. لجنة الطاقة الذرية عام 1957 وكان نائباً للرئيس الأعلى لتلك اللجنة.
4. الجمعية الملكية البريطانية للأنواء.
5. الجمعية الأكاديمية للعلوم في نيويورك.
6. جمعية الفيزياء الأمريكية.

إن عضويته في تلك اللجان المهمة سواء الوطنية منها أو الدولية جعلته يسافر إلى بلدان مختلفة ليطلع ويتعرف إلى تجارب

وخبر غنية في ميادين البحث والتربية والتعليم وقضايا ملحة أخرى كالطاقة وغيرها. ومن خلال عمله ونشاطه في تلك اللجان استطاع أن يحقق منجزات نوعية لبلده منها، على سبيل المثال، "حرصه على امتلاك العراق لمصادر الطاقة الذرية للأغراض السلمية في الفترة التي شغل فيها منصب نائب رئيس لجنة الطاقة للفترة 1958 – 1963. وتعد تلك الفترة من أغنى المراحل التاريخية في الحصول على المعلومات المهمة في مجالات استخدام الطاقة بمختلف الفروع العلمية... وقدم العديد من الاسهامات والبحوث والدراسات في هذا الميدان، كما ترجم الكثير من المصادر، فضلاً عن دوره في اختيار الموقع المناسب لبناء الفرن الذري للبحوث في بغداد" (من مقال للحقوقي الأستاذ عربي الخميسي تحت عنوان "يوم المثقف العراقي... والمواقف الخجولة"، استلمته من خلال مجموعة الياهو المندائية، ولا أعرف اذا كان قد نشر في مكان آخر).

مؤلفات وترجمات للأجيال

كان د. عبد الجبار يدرك تماماً أن العملية التعليمية لا يمكن لها أن تسير بطريق صحيح وتتطور من دون مراجع وكتب، يستطيع كل من الطلبة والمدرسين والباحثين الرجوع إليها. وقد عمل شخصياً على تأليف العديد من الكتب وترجم قسماً آخر منها. من بين الكتب التي ألّفها أو ساهم في تأليفها (7):

1. علم الفيزياء - قسم الحرارة، بغداد، 1942.
2. الفيزياء الاعدادية، ج1، لتلاميذ الخامس ثانوي/ اعدادي، بالاشتراك مع هاشم الحسني، بغداد 1950.
3. كتب الفيزياء لتلاميذ الثانوية/ الاعدادية لمادتي الصوت والضوء، سوية مع هاشم الحسني (8).
4. الفيزياء الاعدادية – جزءان، بغداد 1950/1951. قد يكون هذان الجزءان هما نفس الكتابين، اللذين ذكرهما الأستاذ الحقوقي عربي الخميسي في المرجع (8).
5. علم الصوت، مطبعة العاني، بغداد 1955.

أما الكتب التي ترجمها فهي (7):

1. موسوعة الأنواء الجوية.
2. قياس الرياح العليا بواسطة المنطاد.
3. مقدمة في الفيزياء الذرية، بالاشتراك مع د. صلاح عزت تحسين.
4. العلم والمجتمع.
5. الماء مرآة العلم.

كان عبد الجبار عبد الله يألو اهتماماً كبيراً إلى أهمية دور الثقافة الشعبية وخاصة العلمية منها، ولذلك دأب بنفسه، كما شجع الآخرين، على نشر مقالات تتعلق بأهم النظريات والإنجازات العلمية بأسلوب شعبي قابل للفهم والاستيعاب من قبل المهتمين والمختصين على السواء. ومن بين ما نشره في هذا المجال (9):

1. مبادئ النظرية النسبية من بطليموس إلى آينشتان، بيروت 1938.
2. الفيزياء النووية – مبادئ الطاقة العامة، بيروت، 1960.
3. بدائل الطاقة، جامعة بغداد.

المراجع باللغة العربية

(1) برنارد هوروتز وجيمس ابراني، مساهمات د.عبد الله العلمية، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 261 للعام 1995، صفحة 118.

(2) د. إبراهيم الخميسي، كتاب "عين الإعصار"، صادر عن دار ميزر للنشر، عام 2011.

(3) أحمد عبد الرحمن الأسدي، سيناريو بعنوان "العالم العراقي المندائي الكبير الدكتور عبد الجبار عبد الله"، الصفحة الإلكترونية لسفارة جمهورية العراق في لاهاي – هولندا (نتاجات الجالية العراقية):
www.embassyofiraq.nl

(4) "عبد الجبار عبد الله"، مجلة (الراصد)، مجلة عراقية اسبوعية جامعة، العدد العاشر، السبت 2 آب 1969.

(5) د. عبد الكريم الخضيري، عبقري الجيل، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 261 لعام 1995، صفحة 124.

(6) أ.د. رمزي ميشو، رسالة شخصية إلى مؤلف هذا الكتاب في شهر يونيو/ حزيران/ 2010.

(7) كاظم حسوني، "د. عبد الجبار عبد الله سفير العراق العلمي... سيرة حافلة بالإنجازات والمواقف الوطنية"، جريدة (الصباح) العراقية 16 نوفمبر عام 2005.

(8) عربي الخميسي، "العالم الدكتور عبد الجبار عبد الله يوم التقيته"، موقع (الناس) الإلكتروني في 18 - 8 - 2009 أو موقع (اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر) بتاريخ 14 - 8 - 2009.

(9) قيس قاسم العجرش، "وجوه عراقية"، جريدة (الصباح) العراقية الصادرة في 17 - 05 - 2003.

المراجع باللغة الإنكليزية

(1) Abdul J. Abdullah, Cyclogenesis by a purely mechanical process, J. Meteorology 1949, V.6, P.86.

(2)Abdul J. Abdullah, A proposed mechanism for the development of the eye of a hurricane, J. Meteorology 1954, V.11, P.189.

(3) Abdul J. Abdullah, Proposed mechanism of squall lines, the pressure jump lines, J. Meteorology 1953, V.10, P.298.

(4)Abdul J. Abdullah, The meridional growth of squall lines, J. Meteorology 1954, V.11, P.301.

(5) Abdul J. Abdullah, Head- on collection between two pressure jumps, J. Geo- phys. Res., 1966, 71, P.1953.

(6)Abdul J. Abdullah, The Atmospheric solitary wave, Bulletin of the American Meteorological Society, 1955, V.36, P.511.

(7) Abdul J. Abdullah, A note on the atmospheric solitary wave, J. Meteorology 1956, V.13, P.381.

(8) Abdul J. Abdullah, The spiral bands of a hurricane: A possible dynamic explanation, 1966,V.23, P.367.

التأثيرات العلمية لأبحاث عبد الجبار عبد اللّه

رامز غريب

رامز غريب باحث فلكي، ولد في العراق عام 1984، وأكمل دراسته الجامعية في قسم الفيزياء ـ قسم علوم الفلك، ثم نال شهادة الماجستير من جامعة ستوكهولم، ويعمل حالياً في مجال علوم الحاسوب والتعليم الآلي وبرمجة نشاط الشركات، كما يهتم بالموسيقى في أوقات فراغه.

شكلت شهادة الدكتوراه التي نالها العالم العراقي الراحل عبد الجبار عبد الله في علم الأرصاد الجوية، من معهد ماساتشوستس الأمريكي للتكنولوجيا (MIT) عام 1946، نقطة انطلاق كبرى لإنجاز العديد من الدراسات العلمية ونشر العشرات من البحوث، في فرع الفيزياء هذا، والذي يعنى بدراسات الفضاء وتنبؤات الطقس وعلوم المناخ. وبمناسبة مرور نصف قرن على وفاته، سيركز هذا المقال على عدد من بحوث الراحل عبد الله وتأثيراتها في الفضاء العلمي.

اطروحة الدكتوراه

في أطروحته التي نال عليها شهادة الدكتوراه، درس عبد الجبار عبد الله الموجات الجوية، أشكالها وسرعها المختلفة، وكمثال على ذلك لدراسات الدكتوراه. كانت أطروحته حول سرعات المجموعة من موجات الغلاف الجوي.

مثال على موجات سرعة المجموعة، هي عندما ترمي حجرا في الماء الثابت ويمكنك رؤية مجموعة من الأمواج تنتقل إلى الخارج بنماذج دائرية، يمكن للمرء أن يرى أن الموجات الفردية تنتقل بشكل أسرع من مجموعة الموجة بأكملها، وهذا أمر ملحوظ عندما تصل الموجات إلى نهاية المجموعة.

وهكذا، كانت الرسالة كاملة حول الأمواج وانتشار الأمواج في السوائل (الماء، المحيطات) والغلاف الجوي. يستمر عمله في حركات الأمواج طوال مسيرته العلمية في معالجة مختلف التطبيقات والظواهر الطبيعية.

في أدناه سوف استعرض بعض أعماله حول هذا الموضوع.

البحث الأول: حركة الموج في سطح التيار الذي له توزيع أسي للدوران اللولبي

في العام الذي نشر فيه البحث، عام 1948، لم تكن الموجات المحيطية فوق تيار الماء (الحركة اللولبية والحركة الأمامية للمياه) مفهومة جيدا، نظرا للعوامل المتعددة التي تؤثر على حركة موجة ما، ومن بين

هذه العوامل يمكننا أن نذكر تأثير دوران الأرض، اضطراب الموجة، اللزوجة (السُمك)، الاحتكاك مع الأجسام الخارجية وتوزيع الدوامة (أي حركة الغزل المحلية، أو اللولبية). وغني عن القول إن العلماء في ذلك الوقت كانوا قادرين على وصف حركة الموجة مع الأخذ بالاعتبار تأثير جميع هذه العوامل، إلا أن التطور في علم الرياضيات، وبضمنه الحاسبات، لم يكن متطوراً كما هو عليه الحال اليوم.

ومن هنا تأتي أهمية المحاولة الأولى لحل معادلة حركة الموجة المركبة على تيار تسببه الرياح. تلك المحاولة التي قام بها العالم عبد الله عندما افترض أن الدوامة (الحركة اللولبية) تختفي بأقصى عمق وقيمة بالقرب من سطح الماء، وأن حركة الموجة أعلى التيار تشبه موجات الجاذبية التي تتحرك بسرعة ثابتة.. وقد أدى اكتشاف عبد الله هذا الى حل المشكلة، وجعل من الحلول التحليلية أمراً ممكناً. ومع تقدم التكنولوجيا، جاءت نماذج أكثر تفصيلاً لمعالجة هذه المشكلة. لكن تجدر الإشارة إلى أن بحث الدكتور عبد الله ورؤيته حول الموضوع مهدت الطريق إلى العمل في المستقبل.

البحث الثاني: تكون الإعصار بواسطة عملية ميكانيكية بحتة

شرح العالم عبد الله في هذا البحث العمليات الفيزيائية التي تساهم في تكوين إعصار مداري، باستخدام افتراضين من أجل تبسيط الأمور. فأشار الى أن اندفاع الهواء البارد على جبهة شبه ثابتة، يؤدي الى طرد الهواء البارد المتواجد أصلاً في الجبهة، مما يوفر كمية كافية من الطاقة لانطلاق الموجة الأمامية وديمومتها على طريق تكوين الإعصار. وتكمن الأهمية الكبيرة لهذا البحث في اعتماد عبد الجبار عبد الله، فقط، على الطاقة الميكانيكية ومعادلات الحركة واستمرارية الأمواج لتوليد إعصار مداري.

البحث الثالث: ميكانيكية مفترضة لتطور عين الإعصار الحلزوني

حاول العالم عبد الجبار عبد الله في هذا البحث توضيح تطور ونمو عين الإعصار الحلزوني، حيث لم تكن مراحل نمو العين قد فهمت أو درست بشكل جيد. وقام الراحل بتبسيط السيناريو بافتراض أن أفضل طريقة لتوضيح الهايدروديناميكية الخاصة ببداية الإعصار وصفها بأنها دوامة بسيطة. وأشار الى أن استمرار هذه الدوامة (وعدم تبددها) سيؤدي الى تكوين عين ضيقة، واضحة ودافئة لإعصار غير ناضج.

إن عين الإعصار الحلزوني غير الناضج ليست مستقرة هيدروديناميكياً، فستفقد الطاقة الميكانيكية، ويتعرض النظام الى عدة قفزات هيدروليكية. وينتج عن هذه العملية، حسب العالم عبد الله، تكون عين عريضة، تلك التي تعد إحدى خصائص إعصار ناضج. لقد كان هذا البحث غنيا بحسابات نظرية ورياضية مهدت الطريق لمزيد من الأبحاث المتعلقة بالأعاصير الحلزونية ولفهم أفضل لطبيعتها.

إلى جانب مساهماته العلمية، كان العالم عبد الله ملهما ومنارة لتحفيز العقول وللاكتشاف العلمي، وقد ألهم الكثير من كان حوله والعديد من أبناء الأجيال التي جاءت بعد رحيله المبكر ومنهم الكاتب.

نصوص قديمة

من أجل جبهة وطنية موحدة حقيقية *

بقلم عبد الرزاق الصافي

ملاحظة ضرورية:

ارسل الفقيد الرفيق عبد الرزاق الصافي قبل رحيله بفترة قصيرة، مقترحا الى هيئة تحرير "الثقافة الجديدة" بإعادة نشر المقال الافتتاحي لـ "طريق الشعب"، الجريدة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، في "العدد الخاص" الصادر اوائل آب 1970، والذي حمل عنوان "من اجل جبهة وطنية موحدة حقيقية"، كمساهمة في إغناء النقاش في موضوعة التحالفات، وفي دراسة التجربة الغنية للحزب الشيوعي في ميدان التحالفات السياسية والاجتماعية.

وأشار الرفيق الراحل، الذي كان أحد اعضاء هيئة تحرير "طريق الشعب" السرية آنذاك، الى انه هو من أعد هذا المقال الافتتاحي. وحرص، على عادته وبأسلوبه المميز، على مراجعة النص الاصلي للمقال الذي احتل صفحتين، والذي كرّس عدد "طريق الشعب" الخاص له بالنظر الى أهمية الموضوع. وقد بذل جهداً استثنائياً في تدقيق النص المنشور، رغم الحجم الصغير للأحرف الذي كان يستخدم في طباعة الجريدة حينها، حتى انه نبّه الى بضعة اخطاء طباعية، وسعى الى اعادة كتابة بعض الكلمات على هامش النسخة الاصلية للجريدة، توخياً للدقة وتجنباً للأخطاء عند اعادة النشر في (الثقافة الجديدة).

وها هي (الثقافة الجديدة)، التي كانت لها مكانة أثيرة لدى فقيدنا ورفيقنا الراحل "ابو مخلص"، تفي بوعدها وتلبي رغبته في نشر المقال في هذا العدد.

(الثقافة الجديدة)

افتتح في الأول من تموز 1970 المؤتمر الثامن للحزب الديمقراطي الكردستاني، وقد دعيت الأحزاب الوطنية لارسال ممثليها الى حفل الافتتاح. وحضر المؤتمر ممثلون من حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الوطني الديمقراطي والحركة الاشتراكية العربية والديمقراطيين المستقلين ومن حزبنا الشيوعي العراقي.

وفي كلمات التحية التي ألقاها ممثلو الاحزاب الوطنية في المؤتمر تحدث كل طرف بما يراه ضرورياً في هذه المناسبة. وقد تناولت كلمة التحية التي ألقاها الرفيق كريم أحمد بإسم اللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي العراقي تثميناً لنضال الحزب الديمقراطي الكردستاني والعلاقات النضالية بين حزبينا وتقديرا لشعاره المركزي "الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي كردستان". كما انتقدت بعض المظاهر السلبية في الحكم التي نشجبها

وتستفيد منها الجهات الاستعمارية والرجعية لمواصلة نشاطها التآمري ضد وطننا ومساعيها الدنيئة لتفريق قوى شعبنا واحزابها الوطنية ودفعها للاحتراب فيما بينها.

وقد استقبلت الكلمات التي القاها ممثلو الاحزاب الوطنية بالارتياح من قبل المؤتمر – مندوبين وضيوفاً –. وثمنت جريدة (التآخي) لسان حال الحزب الديمقراطي الكردستاني، وقائع الجلسة الافتتاحية للمؤتمر قائلة: ''شهدت كردستان مظاهرة شعبية رائعة تجلت فيها الوحدة الوطنية الصادقة. والتقت على ارضها القوى الوطنية الخيرة ممثلة في احزابها ومنظماتها التقدمية تشارك حزبنا في حفل افتتاح مؤتمره الثامن''. افتتاحية العدد 477 /2 تموز 1970 واعربت التآخي في نفس المقال عن الامل في ان المؤتمر''سيكون فاتحة عهد جديد للعراق في مجال التعاون بين القوى الوطنية وبادرة طيبة يمكن ان تتخذ اساساً للقاءات اوسع وحوار اشمل بين الاحزاب المعادية للاستعمار والرجعية وخطوة على طريق الحريات الديمقرطية السليمة التي تتيح لكل العراقيين فرص العمل المثمر البناء في وطنهم العزيز بعيدا عن كل المعوقات والمؤثرات.'' ومرت اربعة ايام واجهزة الاعلام البعثية والحكومية تتجاهل كلمات ممثلي الاحزاب والقوى الوطنية التي حضرت المؤتمر– عدا كلمة حزب البعث العربي الاشتراكي طبعاً. وفي اليوم الخامس 6/ تموز 970 طلعت علينا جريدة (الثورة) بمقال افتتاحي بعنوان ''مرة اخرى حول المؤتمر الثامن للحزب الديمقراطي الكردستاني. السلوك الديمقراطي هو الذي يستهدف نقد الثورة من مواقع الحرص عليها. لا اضعافها تمهيداً لاسقاطها''. وقد بدا الانفعال واضحاً في المقال من عنوانه. واعرب في طياته عن الاسف لأن بعض ممثلي الاحزاب الوطنية الذين حضروا المؤتمر ''قد خرقوا التقاليد المتعارف عليها في هذه المناسبات'' زاعما ان ما طرحوه لا يساعد على تعزيز الوحدة الكفاحية ويعتمد التجريح وتشويه الحقائق.

وفي اليوم السابع من تموز نشر الحزب الديمقراطي الكردستاني في جريدة التآخي التقرير السياسي الذي القي في المؤتمر وحظي بتأييد مندوبيه. وقد جاء التقرير مؤكداً على شعار الحزب المركزي ''الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكردستان'' معتبراً: ان ''طريق حل ازمة الحكم في العراق هو انهاء فترة الانتقال وتصفية المؤسسات المقيدة للحريات والشروع باقامة حكم منتخب من الشعب يعبر عن رغبته وارادته الحرة''. ودعا التقرير الى اقامة جبهة وطنية مؤكداً ''ان الجبهة من وجهة نظرنا – الحزب الديمقراطي الكردستاني – تعني تآلف احزاب وقوى متعددة لانجاز مهام وطنية او قومية في مرحلة معينة. وان لكل من الاحزاب المؤتلفة رأيها السياسي واتجاهها العقائدي ومبادئها التي تدين بها. ولها الحق في الحفاظ عليها ضمن اطار الجبهة''، ''وان الشروع بالاعمال التحضيرية لتكوين الجبهة يستلزم خلق المناخ والاجواء الملائمة عن طريق توثيق الروابط الودية مع الاحزاب الوطنية وفسح المجال امامها لممارسة

فعالياتها بحرية في ظل سيادة القانون".

وبعد نشر التقرير السياسي المقدم للمؤتمر الثامن للحزب الديمقراطي الكردستاني تصاعدت الحملة الاعلامية في الصحف والراديو والتلفزيون سعة واسلوبا ضد الاحزاب والقوى الوطنية التي ساهمت في المؤتمر. فبعد ان كان الامر يقتصر على "ابداء الاسف لخرق التقاليد المتعارف عليها"! و"ترفعا عن الصاق التهم بالاخرين" اصبح تهجمات لا حصر لها ونبشا لاتهامات باطلة وتحريضا لا مبرر له وتهديدات ومن ثم اعتقالات تعسفية شملت بعض من القوا كلمات تحية في المؤتمر الثامن للحزب الديمقراطي الكردستاني وآخرين غيرهم.

وبرغم كل الاخطار التي تحيق بحركة التحرر العربي وبنضال الشعوب العربية وخصوصا الشعب الفلسطيني جراء المناورات والمشاريع الاستعمارية التي يراد فرضها هذه الايام وازدياد عدوانية اسرائيل وسيدتها امريكا، برغم كل هذا اشغلت كل اجهزة الاعلام البعثية من راديو وتلفزون وصحافة نفسها، ولمدة اسبوع كامل، بالرد على بضعه كلمات القيت في المؤتمر الثامن للحزب الديمقراطي الكردستاني. وتوج كل ذلك بنشر مجدد لشروط حزب البعث لقيام الجبهة الوطنية التقدمية. وهي الشروط التي سبق وان نشرت ولم تلق قبولا من اي حزب وطني في العراق عدا حزب البعث.

****

وقبل الخوض في مناقشة ما طرحته الحملة الاعلامية وشروط البعث التعجيزية للجبهة التي طرحها مقال جريدة "الثورة" في 1970/7/10 بودنا ان نتوجه الى حزب البعث بالاسئلة التالية: - لماذا يمتنع حزب البعث، رغم مطالباتنا الكثيرة منذ اكثر من عام عن تحديد الاحزاب والقوى التي تكون قوام الجبهة الوطنية، وعن تحديد الاهداف التي يمكن ان تتحد حولها هذه الاحزاب والقوى في مشروع برنامج للجبهة وعن تحديد دور الجبهة في الحياة السياسية للبلاد، وعن تحديد موقفه من مفهوم الحكومة الائتلافية او حكومة الجبهة؟

وكيف يوفق حزب البعث، وهو حزب حاكم، بين الدعوة للجبهة الوطنية وبين اصراره على استمرار الاوضاع الاستثنائية والاحتفاظ بالمؤسسات اللاديمقراطية والقوانين الرجعية الموروثة من العهود الدكتاتورية السابقة واستخدام كل هذه المؤسسات والاساليب في اكثر من مناسبة ضد قوى وطنية وتقدمية، الأمرالذي يعيق عمليا التقدم نحو بناء الجبهة الوطنية؟

وما هي المبررات التي جعلت حزب البعث يهمل قرارات مؤتمره القومي التاسع الذي اعلن التخلي عن موضوعة الحزب القائد وأقر شعار الجبهة الوطنية على اساس "الانطلاق من مبدأ الاعتراف بالآخرين ومن مبدأ التعاون على اساس المساواة والاحترام المتبادل"؟ وهل ان تحذيرات المؤتمر القومي التاسع من ان صيغة الحزب القائد "تؤدي الى تضييق دائرة الديمقراطية وتساعد المغامرين والطامحين للسير في طريق الدكتاتورية

والحكم الفردي اذا كان الحزب حاكما'' لم يعد لها ما يبررها؟ ام ماذا؟ !!

تقول جريدة (الثورة) في افتتاحيتها ليوم 7/7 ''ان الاخلاص لشعار الجبهة طريقه الحوار الديمقراطي الموضوعي الهادف''، وحبذا لو وفر حزب البعث امكانيات ذلك ليسهم في تحويل شعار الجبهة الى واقع، لا ان يحتكر كل اجهزة الاعلام ويحرم القوى والاحزاب الوطنية من حرية التعبير عن الرأي. واذا ما مارس ممثلو هذه الاحزاب والقوى حقهم في التعبير عن الرأي في اضيق نطاق، وكضيوف على مؤتمر الحزب الديمقراطي الكردستاني، يتعرضون الى التهجم والتحريض والسب والطعن في وطنيتهم ومن ثم للاعتقال والتنكيل''. ان ''الحوار الديمقراطي الموضوعي الهادف'' هو ما تدعو اليه الاحزاب والقوى الوطنية، ولا يمكن ان يتم بدون ان تكون لهذه الاحزاب والقوى صحفها العلنية وحقها المشروع في الوصول الى اجهزة الاعلام الرسمية من راديو وتلفزيون، وعرض وجهة نظرها من خلالها كما يفعل حزب البعث. اما اذا استمر الحال على ماهو عليه الان فسنظل بعيدين عن ''الحوار الديمقراطي الموضوعي الهادف'' وستظل المعارضة توصل وجهات نظرها للرأي العام في الداخل والخارج بطرق واساليب يعتبرها حزب البعث وحكمه – دون وجه حق – طرقا واساليب غير مشروعة.

****

والان لنأت الى مناقشة رأي حزب البعث في ''الشروط في تحقيق الجبهة الوطنية التقدمية'' المدونة في ''مقال جريدة (الثورة) 569 الصادر في يوم 1970/7/10. وسنتجاوز في مناقشاتنا هذه كل ما نراه خارج الصدد – وهو كثير مع الاسف الشديد – من تهجمات وسباب وامور لا تمت الى الواقع والتأريخ بصلة، مركزين على المفاهيم الاساسية، ومصححين لبعض الوقائع، لما تقتضيه طبيعة المناقشة التي نحن بصددها. ولا بد لنا من ملاحظة اولية تتعلق بمسألة طرح شروط الجبهة من جانب اي حزب كان قبل الجلوس الى طاولة المفاوضات مع الاحزاب التي يراد اقامة الجبهة معها للاتفاق على اسس قيام الجبهة والبرنامج الذي يراد لها. اذ اننا نعتقد بأن اسلوبا كهذا اسلوب غير مجدي ولا يمكن ان يوصل الى اقامة الجبهة. وقد سبق لاكثر من حزب وطني ان طرح مسودة برنامج للجبهة دون ان يشفعه بأي شروط مسبقة. فلقد قدم حزبنا الشيوعي العراقي مسودة برنامج للجبهة منذ ايلول 1968، كما طرح الحزب الديمقراطي الكردستاني مسودة ميثاق للجبهة بعد ذلك. ونشرت الحركة الاشتراكية برنامجها للجبهة منذ الصيف الماضي. ان هذه البرامج لاتزال مطروحة على الرأي العام وحبذا لو صاغ حزب البعث مشروعه لبرنامج الجبهة بدلا من الشروط التعجيزية التي طرحها لتكون هذه البرامج كلها اساساً لمفاوضات جدية ديمقراطية بين ممثلي الاحزاب الوطنية، مفاوضات تستهدف الوصول الى برنامج مشترك يجري اقراره من قبل مؤتمر وطني عام. وقد سبق لحزبنا ان قدم هذا الاقتراح منذ اكثر من سنة، دون ان يلقى استجابة من حزب

البعث العربي الاشتراكي الذي فضل طرح شروطه للجبهة دون ان يطرح مشروعا لبرنامجها ودون ان يحدد اطراف الجبهة التي يقترح قيامها ودون ان يتداول مع اي من الاحزاب الوطنية بشأنها.

فما هي شروط البعث؟ يقول الشرط الاول لقيام الجبهة كما يريدها حزب البعث: ''ضرورة قيام الاطراف الوطنية بتقييم حزب البعث العربي الاشتراكي وقيادته للثورة تقييماً موضوعياً صريحاً باعتباره حزباً ثورياً وحدوياً اشتراكياً ديمقراطياً''.

ان غرابة هذا الشرط يحسها ويعترف بها كاتب المقال نفسه حيث يقول ''وقد يبدو هذا الشرط غريب بعض الشيء'' ومع ذلك يجد لها من المبررات التي يراها مقبولة ولا نعتقد انها كذلك .

فالاحزاب الوطنية تريد جبهة وطنية تضم كل الاحزاب والمنظمات والعناصر الوطنية المعادية للاستعمار والصهيونية والرجعية. وبالتالي فان كل حزب او منظمة او عنصر يدخل الجبهة فانه يمتلك ما يؤهله لدخولها، ويحظى بتقييم الاطراف الاخرى فيها له على اساس كونه قوة وطنية. اما اذا جاء كل طرف بسلسلة من الاوصاف وطالب الاخرين بالاعتراف بها مسبقاً وقبل الدخول معهم في جبهة، فلا شك ان هذا سيعقد الموضوع ويعيق قيام الجبهة. وإلاّ فهل يرضى حزب البعث ان يقيم الحزب الشيوعي العراقي وفقاً لما تنص عليه وثائق الحزب الشيوعي واهدافه النضالية القريبة والبعيدة؟ اننا لا نطرح ذلك كشرط للتحالف مع اي حزب او الدخول معه في جبهة. فلكل حزب ان يرى في نفسه ما شاء من دون ان يكون هذا شرطاً يستلزمه دخول الاخرين في الجبهة التي يريد المشاركة فيها. ومن باب اولى دون ان يكون شرطاً ''تستلزمه وطنية الاطراف الراغبة في الجبهة''! كما تريد جريدة الثورة. ولا ندري ونحن نبحث هذه النقطة كيف ادخل كاتب مقال الثورة الحديث عن صيغة '' الوضع القائم'' الواردة في كلمة الرفيق كريم احمد ليرى فيها ''استبطانا لموقف مضاد لا وطني''! حتى لكأن ابناء الشعب جميعاً مطالبون بأن يروا الأمور بالمنظار الذي يراه فيه كتاب ''الثورة'' وباستعمال نفس ما يستعملونه من مصطلحات والفاظ والاّ فانهم يستبطنون مواقف مضادة لا وطنية!

بودنا ان يعرف الجميع اننا لا نلجأ الى الاستبطان. واننا عندما نجد ان من واجبنا ان نقف موقفا مضاداً، نعلن هذا الموقف للجماهير كما سبق لنا ان فعلنا طيلة تاريخنا السياسي رغم ما كلفنا ذلك من تضحيات. لا لشيء الاّ لأننا نعتمد الجماهير في عملنا السياسي اولاً وقبل كل شيء ، ولا يمكن ان نقول لها شيئاً ونعمل على الضد منه. ولذا فلا حاجة لأن يبحث وراء مثل هذه الصيغ عن معان ومواقف لا اساس لها من الواقع.

واننا حين لا نسمي الوضع القائم بالوضع ''الديمقراطي الثوري'' فلأنه مناوئ للديمقراطية ويحرم الشعب واحزابه الوطنية من الحريات ولانه يضطهد قوى ثورية.

وما قلناه بشأن الشرط الاول من شروط البعث لقيام الجبهة يمكن ان يقال بشأن الشرط الثاني القائل بضرورة ''اصدار تقييم ''لثورة 17 تموز'' هذا الشرط الذي كان يعبر عنه في السابق تقييم الحكم الحالي''.

فللبعث بطبيعة الحال ان يقيم الاحداث بالشكل الذي يريد، وللآخرين ان يحتفظوا بحقهم في التقييم الذي يرونه. ولقد سبق وان قيمنا الحكم القائم بأنه حكم معاد للاستعمار والرجعية وانه حكم وطني وتعاملنا معه على هذا الاساس. ندعم كل خطوة ايجابية يخطوها وننتقد كل خطوة لا تنسجم مع مصالح الشعب يقدم عليها، مشيرين الى الطريق الصائب الواجب السير فيه. فعندما اطلق الحكم سراح السجناء الوطنيين - وهم بقايا الالوف المؤلفة التي زجها في السجون حكم شباط 1963 – باركنا الخطوة وطالبنا بأن تشفع باصدار عفو عام شامل لتصفية مخلفات الماضي وسلبياته، وعندما ارجع غالبية المفصولين السياسيين المدنيين الى اعمالهم ووظائفهم قلنا حسناً وطالبنا باعادة العسكريين المفصولين من الجيش لكي لا يظلوا محرومين من شرف المساهمة في المعركة وخدمة امتهم ووطنهم عن طريق العمل في الجيش ولإزالة الحيف النازل بهم. وعندما جابه الحكم شبكات التجسس الاجنبية ايدنا خطواته وبينا الثغرات التي يستفيد منها الاعداء ضد الحكم في العراق، بأمل ان يقوم بسدها. وايدناه يوم اعترف بالمانيا الديمقراطية وعقد اتفاقية استثمار الكبريت مع بولونيا الشعبية واستثمار النفط مع الاتحاد السوفياتي. وبقينا طيلة عام واكثر نلح على الحكم ان يترك النهج المغامر في المسألة الكردية نهج القضاء على الثورة الكردية عن طريق مواصلة الحرب وزج الجيش في قتال لا نتيجة له غير المآسي، مؤكدين ان الذين جربوا هذا الطريق حالفهم الفشل. وطالبنا بالحاح بانتهاج الطريق الوحيد الموصل الى حقن الدماء وتعزيز صرح الاخوة العربية الكردية، طريق الاعتراف للشعب الكردي بحقوقه القومية بما فيها الحكم الذاتي ضمن اطار الجمهورية العراقية والتفاوض مع الحزب الديمقراطي الكردستاني وعلى رأسه مصطفى البارزاني.

وبعد ما يزيد على عام من نضال صابر ودؤوب قام به حزبنا، قبِل الحكم وجهة نظرنا – واجرى اتصالاته المعروفة بقيادة الثورة الكردية التي ادت – وليس بدون مساعدة من جانب حزبنا – الى اتفاق 11 آذار 1970. وقد حظي هذا الاتفاق بتأييدنا منذ ساعة اعلانه حيث ابرق الرفيق عزيز محمد سكرتير اللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي الى الرئيس البكر مهنئاً. وبعد ايام اصدر حزبنا بياناً ثمن فيه الاتفاق تثميناً عالياً.

وكانت فرصة فريدة لدفع قضية الجبهة الوطنية خطوة كبرى الى امام لو اراد البعث ذلك. فقد ابدى حزبنا استعداده الكامل لوضع كل جهوده وامكانياته لتنفيذ الاتفاق نصاً وروحاً. ونزل رفاق حزبنا وعدد من قادته الى الشارع للمشاركة في مسيرة الابتهاج بعيد نوروز واتفاق 11 آذار. وبدلا من ان يلتقوا باعضاء البعث وقادته والوطنيين الاكراد واعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني وقادته

ليضعوا يداً بيد ويضاعفوا فرحة الشعب باتفاق 11 آذار، بفرحة التقاء الاحزاب الوطنية وتقريب ساعة اعلان الجبهة الوطنية، جوبه رفاق حزبنا بهراوات ''الامن القومي'' وتفريقهم الفض لتجمع الشيوعيين دون وجود اي مبرر لذلك. وضاعت الفرصة وتكدر جو العلاقات من جديد.

ولابد ان نذكر بهذا الصدد ان حزبنا كان يقف دوماً ولايزال ضد التآمر الرجعي الاستعماري على الحكم الحالي وان كبار المسؤولين في الحكم اعرف من غيرهم بمواقف حزبنا وما قدمه بهذا الشأن.

ولذا فإن مسألة تقييم (17 تموز) وحكم 17 تموز لا يمكن ان تكون عقبة الاّ اذا اراد البعث ان يجعل منها عقبة كما هو واضح في طرحه للمسألة. اما قضية الاعتراف بالدور القيادي لحزب البعث على صعيد الحكم والمنظمات والجبهة وهو الشرط الثالث فقد سبق وان طرحها البعث وناقشناها في مقال هيئة تحرير ''طريق الشعب'' في اواسط حزيران وليس في طرحها الجديد سوى مزيد من التهجم على حزبنا الشيوعي والاحزاب الوطنية الاخرى، وطعن مواقفها النضالية بروحية معادية صفق لها الرجعيون وعملاء الاستعمار الذين يحترقون شوقاً الى مثل هذه الاجواء.

لقد سكتنا طيلة سنتين عن نبش الماضي وفتح سجله المليء بالآثام بحق حزبنا وشعبنا إكراما لمساعي توحيد الصف الوطني وتشديد النضال ضد الاستعمار والرجعية والصهيونية، ومساهمة منا في خلق الاجواء التي تساعد على اقامة تحالف وطني وجبهة وطنية تقدمية. فهل من المصلحة الوطنية في شيء فتح صفحات سجل الماضي ؟!

وارتباطا بهذه المسألة تثير جريدة الثورة مسألة التكافؤ بين الاحزاب المدعوة للمساهمة في الجبهة وتقول ما معناه ان لا حق لأي حزب وطني في العراق بان يطالب حزب البعث في التكافؤ ''لانه تكافؤ بدون مؤهلات وبدون شروط وبدون تضحية'' !!!

ان جماهير الشعب العراقي تعرف جيداً مؤهلات الشيوعيين النضالية وتضحياتهم في سبيلها طيلة ستة وثلاثين عاما، وساحات النضال الوطني وزنزانات السجون واعواد المشانق تشهد للشيوعيين العراقيين بالبطولات الفذة وما قدموه من تضحيات في سبيل قضية الشعب وسعادته، ولن يضير حزبنا الشيوعي العراقي هذا الإنكار لمكانته الوطنية وتضحياته الغالية.

وبعد فما هو التكافؤ الذي يدعو له حزبنا الشيوعي ولماذا يرفضه حزب البعث مصراً على الاعتراف له بالقيادة المطلقة على صعيد الحكم والمنظمات والجبهة؟ يحاول البعث تصوير التكافؤ على انه تقاسم متساوي للمناصب الحكومية ليسفه هذا المفهوم على اعتبار انه الحزب الذي يتولى السلطة وليس من المعقول ان يدعو القوى الاخرى لمقاسمته اياها. والغريب ان هذا المفهوم يتكرر المرة تلو الاخرى رغم ان حزبنا قد حدد مفهومه عن التكافؤ والمساواة منذ سنة في مذكرته التي قدمها الى القيادة القطرية لحزب البعث العربي

الاشتراكي في 30 تموز 1969 والتي سبق وان نشرنا مقاطع هامة منها في اواسط حزيران 1970 حيث ورد بهذا الصدد ما يلي بالنص: ''ان نظرتنا لمبدأ (التكافؤ والمساواة) لا ترتبط قط بالفكرة الدارجة حول تقاسم المراكز الحكومية، ولا تنطلق من مفهوم حسابي مبسط. فالمهم لتطبيق هذا المبدأ هو تثبيت روحية التعاون بين (شركاء متكافئين) وليس بين (حاكم ومحكوم) او بين (تابع ومتبوع) ولا يمكن ان يتحقق ذلك بالطبع الاّ على اساس الاعتراف المتبادل بالكيان التنظيمي للأطراف المتعاونة، وازالة اي مظهر من مظاهر الاضطهاد والتضييق ضد هذا الطرف او ذلك. وبالتالي اطلاق حرية الاحزاب والقوى المتعاونة لممارسة حقوقها في الدعاية لبرامجها وعقائدها، وكذلك حريتها بممارسة اوسع اشكال النشاط السياسي المشروع بروح الاخلاص لمبادئ التعاون والنضال المشترك لخير الشعب''.

هذا هو مفهومنا عن التكافؤ والمساواة، نعرضه على الجماهير ونحتكم اليها بشأنه، لاننا على ثقة من انه المفهوم الوحيد الذي يمكن ان يسهل قيام الجبهة الوطنية التي ننشدها. اننا لا نضع في حسابنا موضوع تقاسم المراكز الحكومية. ولا نستهدف هذا التقاسم من وراء دعوتنا الى اقامة الجبهة الوطنية، ولا نطالب حزب البعث وحكمه بغير ما تطالب به كل جماهير الشعب وقواه الوطنية من اطلاق حرياته الديمقراطية والتقاء ممثلي الاحزاب الوطنية كأنداد متساوين لإقرار برنامج وطني عام مشترك تلتزم به حكومة الجبهة ومن ثم دعوة الشعب لانتخاب ممثليه لهيئات السلطة. وهذا هو عين ما يطالب به الحزب الديمقراطي الكردستاني ايضا. فقد ورد في التقرير السياسي الذي اقره المؤتمر الثامن ''ان واقع البلاد يستلزم الاسراع في قيام الجبهة'' و ''ان بيان الحادي عشر التاريخي فتح افاقاً جديدة للتوجه نحو معالجة هذه المشكلة (مشكلة الحكم). انها تستوجب اتخاذ التدابير اللازمة لانهاء فترة الانتقال، وتصفية المؤسسات المقيدة للحريات والشروع باقامة حكم منتخب من الشعب يعبر عن رغبته واراته الحرة. (التأكيد منا)

****

اما الشرط الرابع فيطالب ''بعدم اقامة اي علاقة مع اية فئة سياسية تقف من السلطة الثورية موقفا سلبياً او عدائياً''. ويخصص الشرط الخامس ما يعممه الشرط الرابع فينص على عدم اقامة الصلات على مع من يسميهم المقال ''الفلول المنشقة على الحزب''، حزب البعث العربي الاشتراكي.

الملاحظ هنا ان حزب البعث لا يلزم نفسه بشيء من هذا القبيل به ويلزم الاخرين به فقط. فهو حر مثلا في ان ''يتحالف'' مع هذا الحزب او ذاك وان يواصل شتى العلاقات مع خصوم هذا الحزب. وهو حر في ان يبدل موقفه بالشكل الذي يريد دون ان يعيقه عائق.

اننا لا نقر بطبيعة الحال – في حالة قيام الجبهة، السماح باقامة علاقات مع فئات سياسية او جهات لاهداف تناوئ العمل الجبهوي او تستهدف اضعافه او

توجه ضد طرف من اطرافه. ولكننا لا نرى وجاهة في الامتناع عن اقامة اية علاقة مع اية فئة سياسية لايرضى عنها البعث. ذلك انه يمكن ان يرضى اليوم عن هذه الفئة ويسخط عليها غداً وبالعكس.

ومن ثم فانه لا جدوى ترجى من تسجيل مثل هذا الشرط الذي لا يعكس سوى انعدام الثقة المتبادلة بين اطراف الجبهة. ان ما هو اجدى من ذلك العمل على تبرير الثقة وروح التضامن والتفاهم بين اطراف الجبهة المنشودة. وعند ذاك تكون صلات اي طرف من اطراف الجبهة مع اية فئة خارجها نفعا للجبهة ولكل طرف فيها وليس العكس.

اما فيما يتعلق بالشقيقة سوريا، فلقد كنا ولا نزال ندعو الى تعزيز التضامن بينها وبين العراق بصرف النظر عن كل الخلافات القائمة بين اشخاص الحاكمين في البلدين خدمة لقضية النضال المشترك ضد الاستعمار والصهيونية والعدوان. ان الجبهة الشرقية لا يمكن ان تكون جبهة حقيقية ضد اسرائيل وعدوانها الغاشم واحتلالها البغيض للأراضي العربية بدون موقف موحد بين العراق وسوريا، وان الخلافات السياسية والحزبية يجب ان تدفع الى الوراء امام الخطر الداهم، خطر استمرار احتلال الاراضي العربية من قبل اسرائيل وخطر عدوان جديد واحتلال جديد.

ان التناحر وتسعير الخلافات وتصعيدها أمر لا يستفيد منه غير العدو الصهيوني الجاثم على ارضنا والاستعمار الذي ينهب ثرواتنا ويتناقض بصورة جدية مع رفع شعار الوحدة العربية وجعله شرطاً للجبهة.

انا ندعو كل الاطراف الوطنية ان تستفيد مما لديها من صلات بكل الجهات ذات التأثير لخدمة العمل المشترك وتوحيد النضال ضد الاستعمار والرجعية والصهيونية والعدوان.

****

ويقضي الشرط السادس من شروط البعث لقيام الجبهة الوطنية جعل الجيش حكراً لحزب البعث وبالدرجة الثانية للحزب الديمقراطي الكردستاني وذلك باسم ''الولاء للثورة'' و ''عدم السماح بخلق ولاءات خاصة داخل القوات المسلحة''.

لقد سبق ان قلنا ونكرر اليوم اننا لم ولن ندعو الى تقسيم المراكز العسكرية بين اطراف الجبهة الوطنية. ونريد جيشنا ان يتسلح بالوعي الوطني الثوري الى جانب تسلحه بأحدث الاسلحة والمعدات، وان ينصرف بكل جدية الى مهام الدفاع عن البلاد واستقلالها وحرمة اراضيها وحماية مكاسب الشعب من الضياع والمساهمة في اسناد الشعوب العربية وفي مقدمتها الشعب الفلسطيني في النضال العادل ضد الاستعمار والصهيونية والاحتلال. على ان هذا لا يمنعنا من تسجيل ملاحظة هي ان مثل هذه الصيغ ''عدم السماح بولاءات خاصة'' و ''بناء الجيش العقائدي'' لاتختلف في الجوهر – من الناحية التطبيقية عن صيغ '' الجيش فوق الميول والاتجاهات'' و''إبعاد الجيش عن السياسة'' وغيرها من الصيغ التي اعتمدها الحكام السابقون والتي ساهمت في إضعاف الوعي

الوطني داخل الجيش وتصفيته من خيرة عناصره الوطنية الكفوءة او جعله مرتعاً للرجعيين والامعات والانتهازيين وفي احسن الحالات للمتأخرين سياسياً. ان خلق مناخ ديمقراطي وطني داخل الجيش واتاحة الفرصة لافراده ومراتبه وضباطه بالتسلح بالفكر الثوري في ظل اخوة وطنية وتضامن كفاحي بين الجيش وابناء الشعب بحيث يكون قطعة واحدة عند الشدائد والملمات، خير ألف مرة من مثل هذه الاشتراطات التي لا نفع فيها ولا غناء، ولا تمنع العناصر الرجعية والاستعمارية من مواصلة العمل داخل الجيش لشراء الذمم وافساد الضمائر والتآمر. ففي الفيتنام الجنوبية جبهة وطنية تقود حكومة ثورية وجيشا ثوريا ينازل اقوى دولة امبريالية في العالم، ولم نسمع ان شرطاً مثل هذا الشرط او سوابقه قد وضع لقيام الجبهة هناك.

****

اما الشرط السابع فيدعو "الفئات ذات الامتدادات الأممية الى حمل امتداداتها على التحالف مع حزب البعث العربي الاشتراكي في الاقطار التي تتواجد فيها"، وبتعبير اوضح المطلوب من كل منظمة او حزب له ارتباطات بمنظمات او احزاب قريبة منه في البلدان العربية الاخرى ان يحملها على التحالف مع منظمة البعث في بلده. ان هذا الشرط لا موجب له – فيما نعتقد – فضلا عن عدم عمليته، اولاً لأن "الامتدادات الاممية" وهي بالنسبة لنا الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية تقرر سياستها وتحالفاتها تبعاً لاوضاع بلدانها الخاصة، وتبعاً للمواقف التي تتخذها المنظمات البعثية من قضايا بلدانها واحزابها ومنظماتها الوطنية. وان احسن ما يسديه بعث العراق من خدمة الى المنظمات البعثية التي تسير على نهجه في البلدان العربية هو قوة المثال، وانتهاج سياسة جبهوية حقيقية تشكل قوة الجذب بالنسبة للاحزاب والمنظمات الوطنية والتقدمية في البلدان العربية، وتسهل للمنظمات البعثية في هذه البلدان لأن تلعب دورا اكبر في حياتها السياسية. اما اذا ما واصل حزب البعث في العراق انتهاج السياسة الحالية تجاه الجبهة وفي طرح مثل هذه الشروط لمنع قيامها والاستمرار في الانفراد بالسلطة وانتهاج سياسة اضطهاد الاحزاب الوطنية، فلا شك انه سيعيق بذلك تقارب اشقائه البعثيين في البلدان العربية الاخرى من الاحزاب والقوى الوطنية فيها.

****

والشرط الثامن من شروط البعث للجبهة هو تبني وجهة نظره في القضية الفلسطينية. وهذا الشرط واضح الافتعال وضار بالقضية الفلسطينية نفسها. ذلك ان اقامة جبهة وطنية تقدمية في الظرف الراهن في العراق هو خدمة كبرى لقضية الشعب الفلسطيني والشعوب العربية المبتلاة بالاحتلال الاسرائيلي البغيض لانها ستجند طاقات اكبر واكبر لاسناد هذا النضال العادل. اما وضع العراقيل والعقبات في طريق اقامة هذه الجبهة فلا يمكن ان يخدم نضال الشعوب العربية بحال من الاحوال حتى لو تم باسم فلسطين و"الحل الجذري" لقضيتها.

لقد دعونا نحن الشيوعيين ولانزال

ندعو لتعبئة كل الطاقات في البلدان العربية، حكومية وشعبية، لخوض كل اشكال الكفاح المسلح والسياسي من اجل القضاء على العدوان وتصفية آثاره وتمكين الشعب العربي الفلسطيني من العودة الى ارض وطنه وتقرير مصيره فيه. وعلى هذا الصعيد يمكن ان تلتقي كل القوى والاحزاب الوطنية والبلدان العربية المتحررة وتحشد كل طاقاتها وتقرب ساعة عودة الشعب الفلسطيني الى ارض وطنه المغتصبة لا ان تظل القوى الوطنية مبعثرة لتناقش اي الحلول اكثر " جذرية"!

****

اما قضية الوحدة العربية و"اعتبارها الهدف الاساسي الذي يستجمع كل الاهداف ويقف في مقدمتها" كما ورد في الشرط التاسع، فقد قدم الشيوعيون اكثر الشعارات واقعية بشأنها تبعا لمراحل النضال الذي خاضته الشعوب العربية منذ خمسين سنة حتى الان وان تطور الفكر القومي بشأن الوحدة العربية يتخذ مسارا واحداً يقترب فيه بما طرحه ويطرحه الشيوعيون بشأن هذه المسألة. لقد سقطت سياسة العداء للديمقراطية واهمال دور الجماهير الشعبية في عملية الوحدة. ان الشيوعيين في كل البلدان العربية انصار حقيقيون لوحدة عربية تقوم على اسس ديمقراطية ولصالح اوسع الجماهير الشعبية وتمثل ارادتها في تشديد النضال ضد الاستعمار والرجعية والصهيونية وفي سبيل التقدم الاجتماعي.

****

ان الشروط السابقة كلها تقريباً مكررة عما سبق اعلانه من شروط. الاّ ان الشرط العاشر في مقال جريدة الثورة شرط جديد وقد وضع – على ما يبدو – لاستبعاد قوى وطنية لا شائبة في عدائها للاستعمار والصهيونية والرجعية. ان هذا الشرط يقول بضرورة " الايمان بالتحول الاشتراكي".

واننا لا نعرف بالضبط ما يريده البعث بـ "التحول الاشتراكي". فالاشتراكية في نظر البعث لاتزال حتى الان مفهوما غامضاً، غير علمي، وكثيراً ما تطلق على اجراءات لا تمت الى الاشتراكية بصلة. واذا ما افترضنا ان البعث يريد بالتحول الاشتراكي تحويل ملكية وسائل الانتاج الاساسية الى ملكية اجتماعية والغاء كل مظهر من مظاهر الاستغلال (وهذا ما لا يمكن ان يتم الاّ كجزء من تحويل كامل النظام السياسي والاقتصادي للبلاد فالاشتراكية ليست مجرد اجراءات اقتصادية) فان طرح شعار التحويل الاشتراكي الآن سابق لأوانه. ذلك ان بلادنا تجابه مهمة انجاز اهداف الثورة الوطنية الديمقراطية حيث يجب اقامة نظام ديمقراطي يؤمّن للجماهير الكادحة تقرير شؤونها بنفسها وانهاض اقتصادنا الوطني وتحريره من قيود الاستعمار واحتكاراته النفطية وتطبيق الاصلاح الزراعي الجذري الذي يزيل بقايا الاقطاعية من الريف. ولإنجاز هذه المهمات يمكن ان تلعب قوى لا تؤمن بالتحول الاشتراكي دورها كجزء من الجبهة الوطنية التقدمية، وإن كان هذا الدور غير رئيسي. فليس كل من لا يؤمن بالتحول الاشتراكي الان رجعياً بالضرورة ويجب ان لا يكون له

مجال للعمل في صفوف الجبهة الوطنية التقدمية.

ان حزبنا الشيوعي رغم كونه اشد المناضلين ثباتاً من اجل السير ببلادنا نحو الاشتراكية، الاّ انه لا يؤمن بنظرية "حرق المراحل"، ولا يقر التفريط بأية قوة سياسية او طبقية يمكن ان تكون من قوى الجبهة في الظرف الراهن وتسهم في انجاز المهام التي تجابه بلادنا. وليس أدل على صواب وجهة نظرنا هذه من ان الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي يتحالف معه حزب البعث ويعتبره قوة اساسية من قوى الجبهة – كما هو فعلاً – لا يتبنى في برنامجه اهدافاً اشتراكية. فهل سيكون خارج قوى الجبهة في حالة قيامها لهذا السبب؟!

****

ويبدو ان كل الاشتراطات العشرة المرقمة لم تكف كاتبي مقال الثورة آنف الذكر حتى اضافوا اليها شرطا آخر غير مرقم وهو إلزام كل طرف يروم دخول الجبهة وفق الاشتراطات السابقة "ان يقدم نقداً ذاتياً. وهو ملزم بكشف مواقفه الخاطئة. قبل ثورة تموز وبعدها". ولابد ان يكون هذا النقد الذاتي منسجما مع ما يريده البعث طبعاً. ويذكر المقال ان حزب البعث قد "نقد نفسه نقداً ذاتياً شجاعاً" ولا ندري الى اي نقدٍ ذاتي يشير كتاب المقال في وقت يرى فيه كل مراقب للأحداث ان الكثير من اخطاء البعث الماضية تتكرر اليوم بأشكال جديدة.

****

اننا لا نتجنى على الحقيقة والواقع اذا ما قلنا ان الشروط التي يطرحها البعث كأساس لاقامة الجبهة الوطنية التقدمية لا يمكن ان تحظى بتأييد اي حزب او منظمة وطنية في العراق بما فيها الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي يتحالف مع البعث على اساس اتفاقية 11 آذار 1970 ويطمح الى جعل هذا التحالف "قاعدة رئيسية للجبهة" ويتطلع الى توسيعها وتعميقها كي تضم جميع الاحزاب والهيئات الوطنية في العراق، وفق اسس تختلف كلياً عن الاسس التي يريدها البعث.

ان جريدة الثورة تصف مواقف الاحزاب والقوى الوطنية تجاه الجبهة بالغموض حيناً والقصور حيناً آخر. في حين لا غموض هناك ولا قصور. ذلك ان مجموع الاحزاب والقوى الوطنية تريد اقامة جبهة حقيقية تبنى على اساس من التقاء ممثلي هذه الاحزاب والقوى في ندوة عامة، دون شروط مسبقة، للتوصل الى ميثاق وطني مشترك يجسد المهمات التي تجابه شعبنا في المرحلة الراهنة عن طريق نقاش ديمقراطي واتفاق عام وتنازلات متبادلة. وان برنامجا كهذا يمكن ان يطور ويغنى خلال مسيرة الحركة الثورية وما تحققه من منجزات.

إن الأوان لم يفت بعد. وان بامكان حزب البعث ان يراجع مواقفه من هذه القضية الهامة، قضية اقامة الجبهة الوطنية التي تجمع كل الاطراف على حيويتها واهميتها في الظرف الراهن، وان يتخلى عن الشروط التعجيزية التي تعيق قيامها.

ان بلادنا والمنطقة ككل تتعرض الى اخطار جسيمة ومؤامرات استعمارية

شرسة مما يتوجب على كل الوطنيين ان يتصدوا لردها موحدين. وعلى حزب البعث، بصفته حزبا حاكما، ان يؤمّن مستلزمات الوحدة الوطنية بإتاحة الفرصة امام الاحزاب والقوى الوطنية لممارسة نشاطها الوطني بشكل مشروع ويسهّل موضوع التقائها معه في جبهة وطنية تقدمية تستطيع تعبئة كل طاقات الشعب وتوحد نشاطات جماهيره الغفيرة ليسدي بذلك خدمة كبرى لنضال الشعب العراقي والامة العربية جمعاء في هذه المرحلة الصعبة من مراحل النضال ضد الاستعمار والرجعية والعدوان الصهيوني الغاشم. وتلتقي معنا في هذه الدعوة الزميلة جريدة (التآخي) التي استعرضت في افتتاحية عددها الصادر في 21 تموز 1970 نفس الاخطار المحيطة بالمنطقة العربية وانتهت الى ما يأتي:

"ان هذه الحقيقة هي التي دفعت حزبنا الديمقراطي الكردستاني الى وضع موضوع الجبهة الوطنية التقدمية على رأس اهدافه الآنية باعتبارها السبيل الاكثر ضمانة لإحراز وتجاوز تحديات الاستعمار والرجعية المحلية والاعتداءات الاسرائيلية المتكررة. وادراكنا العميق لهذه الحقيقة يدفعنا ايضاً لمناشدة كل القوى والفئات والاحزاب الوطنية الى تدارك الامر والارتقاء الى مستوى المسؤولية. كما ندعو الحكم الوطني وحزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم الى استيعاب هذا الواقع ايضاً ومبادرته الى ايجاد الاجواء المناسبة والصيغة الجبهوية المقبولة والتفتح على القوى الوطنية التقدمية ذات المصلحة في محاربة الاستعمار والتصدي لمؤامراته وتهيئة الاجواء المناسبة لوحدة وطنية اكثر شمولا وعمقاً. ذلك لان المخاطر التي تحيق بوطننا اكثر واكبر من ان يضطلع بمهمة التصدي لها فئة او حكم بمفرده ودون التفاف قوى الشعب وتنظيماته واحزابه الوطنية في جبهة متراصة. وهذا ما يضع القضية الوطنية في المقام الاول من كفاحنا المرير الماثل.

فالى مزيد من اليقظة والحذر ونكران الذات والتخلي عن المكابرة والتمسك بالشكليات والالفاظ لضمان نصر اكيد حازم على قوى الاستعمار والرجعية ومواصلة مسيرتنا الظافرة نحو غدنا الافضل الذي نسعى اليه جميعاً".

****

منذ ما يقرب من سنتين عرض حزبنا مشروع ميثاق الجبهة الوطنية الموحدة على الرأي العام والاحزاب السياسية لمناقشته بغية التمهيد لوضع ميثاق مشترك في مؤتمر وطني يمثل جميع الاحزاب الوطنية. ولعل من المفيد الان اعادة نشر فقرات من مقدمة المشروع لاحتوائها على وجهة نظر حزبنا في الأسس التي ينبغي ان تقوم عليها الجبهة الموحدة. ويسرنا ان نقول ان هذه الاسس تلتقي عندها جميع الاحزاب الوطنية باستثناء حزب البعث العربي الاشتراكي مع الاسف:

ان بلادنا لاتزال تجابه حل مهمات ذات طبيعة وطنية وقومية (معادية للاستعمار والاستعمار الجديد وللصهيونية) وديمقراطية (تستهدف تصفية بقايا العلاقات الاقطاعية والملكية الكبيرة

للأرض) واجراء التحويلات العميقة في الاقتصاد الاجتماعي، واقامة نظام حكم تمثيلي ديمقراطي ووضع حل ديمقراطي للقضية الكردية.

ان انجاز المهام الديمقراطية من شأنه ان يهيئ اساسا ماديا يمهد طريق الانتقال الى الاشتراكية. ان الطابع الوطني القومي والديمقراطي للمهمات التي تطرحها المرحلة الانتقالية الراهنة، ترسي اساساً موضوعياً للتحالف بين الطبقات الاجتماعية الوطنية، التي يشكل تحالف العمال والفلاحين عمودها الرئيسي، وتضم في الوقت نفسه، البرجوازية الصغيرة، والمثقفين الثوريين، والفئات التقدمية من البرجوازية الوطنية. اما الشكل الملموس لهذا التحالف فهو اقامة حلف سياسي بين القوى الممثلة لمصالح هذه الطبقات والفئات، يضم في (جبهة وطنية ديمقراطية موحدة) جميع الاحزاب الوطنية والديمقراطية، وسائر القوى والعناصر التقدمية على اختلاف قومياتها وعقائدها.

ان تحالف القوى الوطنية في جبهة كفاحية موحدة، هو امر يستلزمه ايضاً واقع النضال في سبيل حل المهمات الاساسية للمرحلة الراهنة، لابد ان يمر عبر معارك ضارية ضد الاستعمار وسائر الطبقات والقوى الرجعية في الداخل والخارج. فما لم توحد القوى الوطنية نفسها في جبهة كفاحية، وتعبئ الجماهير الشعبية لخوض هذه المعارك، فإن اية حكومة منعزلة عن الشعب وقواه الثورية، ستجد نفسها عاجزة كليا عن التقدم نحو حل اي من هذه المهمات

وبالعكس من ذلك فان (حكومة إئتلافية ديمقراطية) تمثل القوى الوطنية هي الاداة القادرة على السير في الطريق المؤدي الى حل هذه المهمات وتحقيق الاهداف المشتركة للقوى الوطنية.

ان الحكومة الائتلافية الديمقراطية المطلوبة في الظروف الراهنة للبلاد، هي تلك الحكومة المنبثقة عن الجبهة الوطنية، والممثلة لسائر اطرافها المتحالفة، والملتزمة بميثاقها، وبهذا فهي ليست حكومة حزب واحد، بل حكومة الجبهة. وعندما تخضع لارادة حزب واحد لا تعود حكومة ائتلافية بمعنى الكلمة المعروف. ان دور كل حزب سياسي في قيادة الجبهة يجب ان لا يحدد بشرط مسبق بل يقرره صواب السياسة التي يمارسها وروح المسؤولية التي يبديها والتضحيات التي يبذلها وقدرته على تعبئة اوسع الجماهير والثقة التي تمنحها له.

ان ميثاق الجبهة الموكول أمر تحقيقه الى الحكومة الائتلافية ليس من الضروري ان يستوعب مسبقاً جميع الحلول الجذرية والمتكاملة لسائر مهام المرحلة التأريخية، بل يمكن ان يقتصر على برنامج يشمل الاهداف المشتركة الناضجة والأكثر الحاحاً والتي تفرضها الحياة نفسها.

ان هذا الميثاق هو برنامج للعمل والنضال، طوال فترة معينة وسيبقى عرضة للتطوير والتجديد في اية مرحلة من مراحل النضال المتتالية، بمقدار ما تبديه الاطراف من الاستعداد للسير الأبعد في طريق التحالف والنضال المشترك من اجل خير الشعب.

ان اي حزب من الاحزاب السياسية المتحالفة غير مطالب بالتخلي عن ايديولوجيته الطبقية وبرامجه الستراتيجية. فمع التزامه بميثاق التعاون، يظل يملك الحرية في الدعوة الى مبادئه واهدافه البعيدة، وهذا حق مشروع لكل حزب ولا يتناقض مع التزاماته التحالفية.

ان الاستقلال الفكري والتنظيمي والسياسي، وحق النشاط العملي والايديولوجي المستقل لجميع الاحزاب والقوى المتحالفة هو مبدأ يجب مراعاته في اي تحالف يراد له الحد الادنى الضروري من الدوام والتماسك.

ان وجود اساس موضوعي واهداف مشتركة للتحالف بين الطبقات الاجتماعية وقواها الاساسية الوطنية، لا ينفي وجود او نشوء تناقضات في اطار هذا التحالف. ولكنها تبقى في الجوهر تناقضات ثانوية بالمقارنة مع التناقض الرئيسي مع الاستعمار والصهيونية والقوى الرجعية، ويمكن بالتالي حله باساليب ديمقراطية سلمية، انطلاقا من شروط والتزامات التحالف.

ومن هنا، فان النقد الايجابي المتبادل بروح المسؤولية ازاء الشعب والمصالح الجذرية للشغيلة، هو عنصر هام في توطيد هذا التحالف وتعزيزه... ان النشاط المستقل، والنقد البناء، ينبغي ان يقترن بالالتزام والاخلاص لمبادئ التعاون، وان يخدم بشكل افضل تحقيق الاهداف المشتركة للأطراف المتحالفة.

****

ان هدف اقامة جبهة وطنية تقدمية حقيقية هو امنية كبرى من اماني الشعب العراقي بكافة قومياته وطبقاته الوطنية المعادية للاستعمار والرجعية والصهيونية. فجماهير الشعب تدرك تماما، واستنادا الى خبرات نصف قرن من النضال، بأن طريق الجبهة الوطنية والتآخي الوطني، والعمل المشترك بين الاحزاب الوطنية، هو الطريق المؤدي الى نهضة البلاد القومية والازدهار الاقتصادي وسيادة الاستقرار، هو الطريق الذي ينشر الامن والرخاء والسعادة في كل البلاد... وان الجماهير تدرك ايضا، ان اقامة جبهة وطنية تقدمية راسخة، يعني توجيه اكبر ضربة الى النفوذ الاستعماري واحتكاراته الجشعة ومصالحه في العراق، يعني خطوة جدية الى الامام في نقل كفاح الشعب الى آفاق ارحب وأضمن من اجل التقدم الاجتماعي وبلوغ مشارف الاشتراكية في هذا الوطن.

وانطلاقا من كل هذا ، فان شعار الجبهة الوطنية هو شعار الملايين من ابناء هذا الشعب، شعار كل الأخيار في هذا الوطن. ويسعدنا ان ندون هنا، بأن حزبنا الشيوعي العراقي الذي رفع شعار الجبهة الوطنية منذ تأسيسه حتى الآن، وناضل في سبيل اقامتها، ينسجم تماماً مع طموح جماهير الشعب وخاصة الكادحة منها. ويؤكد حزبنا مجدداً بانه سيناضل الآن، وفي المستقبل ايضاً، من اجل اقامة جبهة وطنية تقدمية حقيقية.

***جريدة "طريق الشعب "العدد 7 السنة 27 /أوائل آب 1970**

نصوص مترجمة

كن معاديا للفاشية في أوربا المعاصرة *

ألدو تورتوريلا
ترجمة: رشيد غويلب

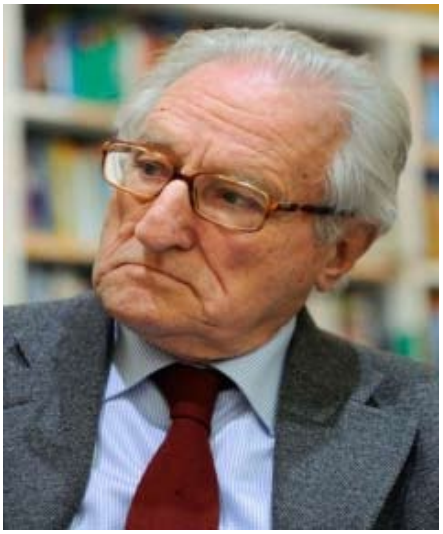

مقدمة

في الاول من ايلول من هذا العام تمر الذكرى الثمانون لاندلاع الحرب العالمية الثانية؛ ففي مثل هذا اليوم من عام 1939 غزت قطعان جيش المانيا النازية الجارة بولندا واحتلتها، وبهذا بدأ كابوس يمكن اعتباره أسوأ فترة في تاريخ الإنسانية الحديث. تشير اكثر التقديرات جدية الى ان الحرب كلفت البشيرية 55 - 60 مليون ضحية، تحملت حصة الاسد فيها (أكثر من 20 مليون مواطن) الشعوب التي شكلت الاتحاد السوفيتي السابق.

لقد دفعت كوارث الحرب ومآسيها والأخطار الاعمق المترتبة على استمرارها جميع الذين يؤمنون بالسلام والتفاهم بين الدول الى وضع خلافاتهم الاديولوجية جانبا في حينها؛ بريطانيا التي مثلت آخر حصن للنظام الرأسمالي الاستعماري القديم؛ الولايات المتحدة، الصاعدة كقوة صناعية وكمحرك لليبرالية الاقتصادية والاتحاد السوفيتي كأمل للشعوب المضطهدة ومعقل لنضال العمال. ولكن مؤتمرات الحلفاء جعلت الكثيرين يتوقعون عالما اقل استقرارا، ربما تحتفظ فكرة الفاشية فيه بدور في احداث تاريخية محتملة.

الفاشية كما يعرفها جورجي ديمتروف هي: 'ديكتاتورية إرهابية غير محدودة، وهي الأكثر رجعية وشوفينية، وتعبر عن أكثر العناصر إمبريالية في المنظومة الرأسمالية'. وبهذا يمكن أن نرى في الفاشية اندماجاً لسلطة الدولة ورأس المال في نموذج سلطوي، يوظف العنصرية القومية. اما المنظر الشيوعي الايطالي الفذ غرامشي فيرى في "الفاشية ظاهرة انجبتها ظروف عجزت فيها الطبقتان البرجوازية والطبقة العاملة عن ايجاد حل حاسم لازمة المجتمع في لحظة ما بعد الحرب العالمية الأولى. فهي ليست ظاهرة إيطالية محضة، كما انها لم تكن اخر الحلول الضرورية للراسمالية المهددة

من قبل الطبقة العاملة، نتيجة الازمة العامة التي دخلتها الراسمالية، لان كبار الراسماليين الصناعيين، استخدموا الفاشية أداة لهم، ودعموا موسوليني بعد هزيمة الطبقة العاملة 1920"، وليس قبلها لكي يجهضوا والى الابد - كما تصوروا - أي إمكانية لاحيائها من جديد. "بهذه البيئة السياسية الجديدة تخلت البرجوازية عن ديمقراطيتها المزيفة، واشيعت حالة الإحباط واليأس في صفوف الطبقة العاملة وهيمنت العصابات الفاشية على المشهد. تحولت الفاشية من ظاهرة هامشية الى ظاهرة جماهيرية. يمكن القول ان ظهور الفاشية جاء نتيجة لعجز العامل الذاتي عن إيجاد حلول بعد دخول إيطاليا مرحلة الازمة؛ فالطبقة البرجوازية عجزت بوسائلها التقليدية - أي اليات الديمقراطية البرجوازية - عن الحسم. كما عجزت الطبقة العاملة عن مد انتفاضتها في تورينو الى الأجزاء الأخرى من إيطاليا، بسبب النزعة الإصلاحية للحركة النقابية وغلبة الاتجاه الإصلاحي على قيادة الحزب الاشتراكي الإيطالي". (من كتاب تحت الطبع بعنوان: لم الماركسية/ محطات من تاريخ الاشتراكية في العالم) بقلم فرحان قاسم. بمعنى آخر صعود الفاشية نتيجة لعجز الديمقراطية السائدة انذاك عن طرح حلول واجابات مطلوبة.

وفقا للمؤرخين، بدأت الفاشية في عام 1919 في إيطاليا، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وانتشرت إلى ألمانيا. جوهر الأيديولوجية الفاشية هو العمل ضد المثل العليا للثورة الفرنسية.

يبين لنا التاريخ ان الانتصار على الفاشية والنازية في عام 1945 كان بداية لنضال الانسانية الطويل ضد الحركات والحكومات التي تتحرك بشكل مخفي او مكشوف بين اليمين المتطرف والفاشية، من كوكلوكس كلان (مخابرات سرية امريكية ارهابية تأسست في عام 1865، وحاربت الحقوق المتساوية للملونين، وعادت الاقليات والاجانب) إلى أنصار النازيين الجدد، الذين يسيرون في شوارع اوربا ويطالبون بإغلاق الحدود بوجه اللاجئين وطرد المهاجرين. ولا يختلف الامر كثيرا في امريكا اللاتينية التي تعيش صعودا لشخصيات فاشية ويمينية متطرفة في اكثر من بلد، وبموازاة ذلك يستمر الهجوم الامبريالي الامريكي للقضاء على حكومات اليسار في فنزويلا، كوبا، نيكراغوا، وبوليفيا، وتحجيم دور قوى اليسار والتضييق عليها في بلدان القارة الاخرى. (المترجم).

الصديقات والأصدقاء الأعزاء،

بمرور الوقت، ومن خلال تحولات الأحداث التاريخية، يخبو تذكر الماضي، بما في ذلك الأحداث التي ميزت حقبة تاريخية. ان العام الذي يقترب منا (2019) هو العام الثمانون لاندلاع الحرب العالمية الثانية. والأجيال الجديدة، بما في ذلك أولئك الذين يشبون الآن، لا يعلمون ولا يستطيعون معرفة، ما كان عليه زمن الجوع والإرهاب. الأنقاض والموت. والكثيرون لا يعرفون حتى من قاتل، وفي أي جانب كان. إنهم لا يعرفون حقاً ما هي الفاشية والنازية، التي سادت في زمن - المسنين من امثالي الآباء، الأجداد أو اباء الأجداد - القديم. ان مفردة "معاداة الفاشية" توصف بانها مفهوم قديم، وأكثر من هذا، دفنت باعتبارها مفردة سلبية، لانها فقط تمثل نقيضا، وتعارض شيئا لم يعد له وجود.

ومفهوم أنه، بمرور الزمن وفقدان الذاكرة التاريخية يحدث شيء غير صحي، ولكن ليس هذا بمفرده هو الموجود.

بعد بضع سنوات فقط على نهاية الحرب، بدأت حملة منهجية للحط من قيمة المفردة ذاتها. ومع نهاية الحرب تم الاعلان عن نهاية معاداة الفاشية. في البداية في اطار عدد قليل من المؤسسات الأكاديمية، ثم من قبل المحررين والمؤسسات الصحفية التابعة وصفت معاداة الفاشية باعتبارها مصادفة بحتة، ومن ثم قسمت بين جيدة وسيئة، بين معاداة فاشية ديمقراطية، واخرى غير ديمقراطية، وأخيراً وصفت بانها مجرد قناع لغير الديمقراطيين.

وشمل هذا أنظمة مختلفة، ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية في أجزاء مختلفة من أوروبا. لكن هذا النوع من تقييم معاداة الفاشية، انتهك الحس الانساني السليم والتاريخ والعقل. ان كل ما حدث في أوروبا في النصف الثاني من القرن العشرين هو نتيجة لحرب غير مبررة، ولحسن الحظ، نفذت دون قنابل، ولكن ليس من دون إصابات، وليس من دون عواقب وخيمة على كلا المعسكرين.

لا يمكننا معرفة ماذا ستكون صورة العالم - من الولايات المتحدة إلى روسيا - لو لم تندلع الحرب الباردة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. لو بقيت جبهة مناهضة الفاشية العالمية متماسكة بعد النصر. لو استمر التعاون بين جميع الدول المنتصرة. إذا كانت الولايات المتحدة، التي خرجت من الحرب كأقوى سلطة تمتلك أسلحة نووية، وأرضا سليمة، وإمكانات إنتاجية هائلة ومتزايدة، ستوجه سياستها، كما كان يرى الرئيس الامريكي روزفلت نحو التعاون والتأثير الثقافي والسياسي المتبادل بين مختلف المواقف والآراء. لكن روزفلت قد مات، وبدات الولايات المتحدة جدلا غير موضوعي ضد سياسته الخارجية والداخلية. جدل استمر 50 عاما، وتصاعد بوتيرة حادة، وانتهى في نهاية التسعينيات، بإزالة جميع الحدود الموضوعة امام التجارة والعمليات المالية الكبيرة. لم تكن الحركة المعادية عفوية أصلا.

الحقيقة إن الفاشية الإيطالية نشأت كمعارضة عنيفة للحركة العمالية والنقابات ولأحزاب اليسار، وتلقت الدعم من كبار الصناعيين، وملاك الاراضي. وتعاطف معها وسط هام جداً من القوى السياسية المحافظة، ليس في إيطاليا بمفردها، بل في جميع أنحاء أوروبا والولايات المتحدة الامريكية. ولم يكن نشوء النازية في المانيا مختلفا، لقد تلقت، منذ البداية الدعم من القوى الاقتصادية المهيمنة - بما في ذلك حتى جزء من البرجوازية اليهودية الكبيرة – واستقبلت بايجاب من قبل جزء كبير من المحافظين الأوروبيين وعالم المال الأمريكي.

إن نهاية الديمقراطية الليبرالية، التي أضعفتها أيضا الانقسامات القاتلة بين الأشقاء في معسكر اليسار، وقيام نظام الإكراه واللا حرية، بديا مقبولين لدى قسم كبير من السكان، مقابل زيادة قومية وبعض "المكتسبات" الاقتصادية.

في إيطاليا، حدثت القطيعة بين الفاشيين والديمقراطيين الليبراليين في عام 1926 بعد اغتيال القيادي الاشتراكي البارز والنائب جياكومو ماتيوتي، ولكن بعد مرور

عقد واحد فقط، ومع بدء هجوم فرانكو على الجمهورية الإسبانية، والذي كان مدعوما بالسلاح من الفاشية الايطالية، والنازية الالمانية، ومع العدوان الإيطالي ضد إثيوبيا، اتسعت معاداة الفاشية في اوربا، لتتجاوز حدود اليسار، وتحظى بالقبول على نطاق أوسع.

معاداة الفاشية ليست مجرد نفي للفاشية

وسيكون من الخطأ القول إن معاداة الفاشية تعني فقط نفيا ومعارضة للفاشية المنتصرة. من المؤكد أنها نشأت كنقض للأيديولوجية الرجعية، التي اعادت مفاهيم الانسانية والأمة والعلاقات الاجتماعية والدولة، الى الوراء.

لقد قسمت الإنسانية إلى أجناس متفوقة واخرى دنيا. في القمة يقف ما يسمى بالآريين. وفي الاسفل الآخرون جميعا - اليهود، الذين ينبغي ابادتهم، جنبا إلى جنب مع الغجر، المثليين، المعاقين والمعارضين السياسيين. تراجع ليس فقط بالنسبة لإعلان حقوق الإنسان للثورة الفرنسية، بل أيضا بالنسبة للثورة المسيحية، التي ولدت باسم المساواة لأنهم جميعا أبناء الله. الأمة صممت كجامعة موحدة وكل الجماعات الاخرى معادية، وهي دائما مسلحة ومستعدة للقتال، والمدعوة للهيمنة - في إيطاليا باسم الإمبراطورية الرومانية قبل ألفي عام. وفي ألمانيا وفقا لأسطورة نيبلونغ (اسطورة بطولية جرمانية تعود بإحدى صيغها المعروفة الى العام 1200، ويمكن ان تكون في منطقة باساو الالمانية -المترجم). انه انحدار في بشاعة رمزية، ان لم تكن مأساوية.

ان العلاقات الاجتماعية حددت هرميا بين رؤساء ومرؤوسين، بواسطة تفوق ذكوري وتبعية انثوية، وعلاقات العمل التي تحددها السلطة الحصرية لرب العمل، والمقنعة بالمشاركة، وبعد قمع النقابات المستقلة، والمساواة المزيفة في السلطة بين أولئك الذين يشترون قوة العمل والذين لا يستطيعون سوى بيع قوة عملهم.

الدولة كجهاز أعلى للسلطة في قبضة "الدوتشي" (القائد الزعيم) - تم القضاء على التمثيل المنتخب ديمقراطيا - الذي يحكم في علاقة مباشرة مع الناس الذين يدعون الى الشارع للإجابة بـ "نعم" وليصفقوا، ولكن في الجوهر، في علاقة مباشرة مع الرأسمال الكبير، الذي سيسحب دعمه فقط، إذا هزمت الفاشية.

ان التشوهات السلبية تتناظر مع العديد من التفسيرات الإيجابية. إن معاداة الفاشية، التي أصبحت مقاومة أوروبية بطولية في كل دولة خاضعة للفاشية والنازية، ناضلت من أجل المثل العليا للحضارة الإنسانية. لقد ناضلنا من أجل المساواة في حقوق الإنسان دون فوارق عرقية، نشأت نتيجة للجهل. ولا مكان لها في العلم، ومن اجل المساواة الواسعة التي يجب أن تتغلب على العقبات الناجمة عن عدم المساواة الاقتصادية، وأي شكل آخر من أشكال التمييز، بما في ذلك التمييز، الذي تفرضه هيمنة الذكور، المصاحبة لحضارة مليئة بالحروب والظلم.

لقد أردنا زمنا للسلام والصداقة بين الأمم واقامة تحالفات أكبر بينها. لقد ناضلنا

من أجل ديمقراطية تمثيلية بالترابط مع ديمقراطية مباشرة، مفتوحة أمام إمكانيات تطور المجتمعات والدول إلى أشكال حضارية أعلى.

معاداة الفاشية رافعة لنظام عالمي جديد ممكن

لم تكن معاداة الفاشية واضعة اساس النضال الظافر ضد الفاشية فحسب، بل واضعة الحجر الاساس لامكانية بناء نظام عالمي جديد. وبانتصار جبهة القوى المناهضة للفاشية، ولد الاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي سيحتفل بذكرى صدوره السبعين، ومنظمة الأمم المتحدة، وأكثر الدساتير ديمقراطية تطوراً، مثل الدستور الإيطالي، الذي عارضه الرأسمال العالمي وقوى اليمين، وفي ايطاليا من قبل قوى يسار الوسط، بغض النظر عن منطلقاتها واهدافها المحتملة.

كان الحلم والأمل في أوروبا فيدرالية متحدة، فكرة العديد من القوى الاوربية المعادية للفاشية، ولم يكن جيدا تحقيق جزء صغير من هذه الآمال، في قطاع العملة فقط. لكن حتى هذا الاتحاد الأوروبي الصغير المتحقق هو أفضل من التشرذم الذي أدى إلى حربين عالميتين، والذي يهدده القوميون مرة أخرى، الذين هم على النقيض من الحب الحقيقي لبلدهم، الذي ينشد السلام والاخوة.

وبسبب تميز دورها الايجابي، أصبحت معاداة الفاشية أكثر أهمية اليوم من أي وقت مضى. وتؤدي الحملة الطويلة الرامية لنزع الشرعية عنها الى وثوب الوحش من جديد. ويقال أن معاداة الفاشية عديمة الفائدة لأن الفاشية لا تستطيع العودة ثانية. ويصعب بالتأكيد أن يعيد التاريخ نفسه مرتين بنفس الطريقة، على الرغم من قناعة هيغل، وكذلك ماركس، ولكن مع تصحيح بشأن ما قام به نابليون الثالث. إن التكرار الثاني ياتي بشكل مهزلة.

انبعاث فاشي

وتتجلى اعادة التاريخ الآن في شكل مظلم مع حركات فاشية أو قومية اشتراكية مكشوفة في جميع البلدان الأوروبية تقريبا، استطاعت الحصول على اصوات انتخابية، وفازت بمقاعد برلمانية في بعض البلدان وتؤثر بشكل مباشر على اداء الحكومات المحلية. وهناك حركات تنكر إبادة اليهود كما لو انها كانت اختراعا للمعادين للفاشية. وهنا في إيطاليا، يحظر الدستور اعادة تأسيس الحزب الفاشي، لكن رابطة الانصار أحصت أكثر من 2700 موقع إلكتروني فاشي، يعمل على توسيع صفوف الجماعات والأحزاب الفاشية، ونشر ممارساتها الملموسة. وحتى بين الناس حسنيي النية، هناك رأي مفاده أن الفاشية ربما لم تكن سيئة للغاية - وهم ينسون حقيقة: أن أوروبا كانت كومة من الركام، و70 مليون قتيل، والبؤس اللانهائي، وجدران الكراهية.

وفي العديد من بلدان أوروبا الشرقية، أعيد تقييم قادة وأنصار "الدفاع" الذين دعموا النازيين في حرب العدوان ضد روسيا باسم العداء الوطني ضد القمع السوفيتي. ولكن يتم نسيان، أنه لولا النصر في ستالينغراد، لكانت أوروبا كلها ستقع في أيدي الطغيان الاشتراكي القومي الرهيب، بما في ذلك

بلدان الشمال، التي شهدت حكما عنيفا من حكام المناطق النازيين.

وقيل إن جميع القتلى في الحرب يستحقون الاهتمام نفسه، لأن الجميع قاتلوا من أجل مثلهم العليا. يجب ان يتوفر التقييم الإنساني للجميع، ولكن ليس الحكم الأخلاقي. من سقطوا في القتال دفاعا عن الاستبداد، في حين سقط معادو الفاشية في معسكرات العمل القسري، ومعسكرات الإبادة الجماعية، وفي جبهات القتال دفاعا عن حرية الجميع.

ليس الانبعاث الفاشي مجرد ظاهرة متطرفة مرتبطة بالحنين إلى الماضي، بل مصحوب بحركة ثقافية فاشية - ''غير مثقفة'' - فاشية غير مباشرة، وغير مكشوفة، تحصل على كثير من التأييد. ان عودة القومية الشوفينية والعنصرية والهجوم على حرية الصحافة وعدم التسامح مع المعارضة والاعتداء على حقوق العمل والحقوق المدنية والامتعاض من تحرر المرأة وقمع الحريات الجنسية.. كل هذا ناتج بلا شك عن المعلومات الخاطئة والمتعمدة عن المآسي التي سببها الوحل الفاشي المعاد ثانية، ولكن اولا، وقبل كل شيء نتيجة لسياسة فاشلة تقودها قوى ديمقراطية معتدلة - يمين الوسط ويسار الوسط - (اليمين التقليدي وقوى الوسط - المترجم) وهي غير قادرة على فهم الأضرار التي لحقت بفئات واسعة من السكان، والطبقة الوسطى، والناجمة بشكل أساسي عن الأزمة الاقتصادية ، وعن ربع قرن من الليبرالية الجديدة، وعن سياسة تقشف من جانب واحد.

نحن نعيش في عالم يعاني من خلل رهيب في توزيع الثروة، حتى صندوق النقد الدولي استنكره. الصناعة الأكثر جذبا في البلدان المتقدمة، هي صناعة الرفاهية، بينما يستمر تعمق الفقر أو البؤس. وتعمل الاجيال الاصغر سنا بوظائف غير آمنة، لقاء اجور متدنية، وبدون افاق مستقبلية. يضاف إلى ذلك مخلفات الحروب الغربية في الشرقين الأدنى والأوسط ونتائج التحولات المناخية التي تسببها الدول الغنية. ملايين اللاجئين يفرون من الحرب والفاقة والجوع. وتم استقبال أكثر من ثلاثة ملايين شخص في البلدان الإسلامية، بينما في أوروبا يطرق مئات الآلاف الابواب.

ومن كل ما تقدم يندلع الاحتجاج، الذي يستوعبه اليمين المتطرف، بسبب عدم وجود توجه ديمقراطي يرفض الأسباب الحقيقية للفشل الاقتصادي والاجتماعي ويتخذ التدابير المناسبة. ويجري بذكاء نشر الخوف من الآخر لصرف النظر عن المسؤولين الحقيقيين الذين يقفون على قمة التمويل، حيث تتخذ القرارات بشأن تنمية العالم وفي كل بلد. إنهم يعملون في مواقع كثيرة لنشر الخوف. ويصفون المهاجرين بالدخلاء والإرهابيين المحتملين.

لا شك في أن المعركة ضد الإرهاب يجب ان تخاض بواسطة أجهزة أمنية فاعلة، ولكن قبل كل شيء بواسطة القدرة على إنهاء الحروب الاستعمارية الجديدة، وتعزيز السلام بين الأمم والصداقة بين الثقافات المختلفة. ولكن بدلاً من ذلك، تجري في ايطاليا ملاحقة ''ريكا'' وهي قرية في الجنوب عانت من هجرة سكانها، وعملت على استقبال ودمج المهاجرين. وتصدر الحكومة ما يسمى بـ''مرسوم السلامة'' الذي يلغي ''الحماية لاسباب إنسانية''، ويلغي عملياً حماية طالبي اللجوء واللاجئين، ويلقي

بالآلاف من اللاجئين إلى الشوارع - ويعمق بذلك مشكلة عدم الشرعية ويخلق مخاوف جديدة.

ويخدم الخوف أيضا الحملة ضد الديمقراطية التمثيلية وضد الأحزاب. لا يتم توجيه اتهام شرور الفساد السياسي، للساسة الفاسدين والمفسدين كافراد، لان ذلك سيضع جماعات الضغط القوية (اللوبي) لشركات النفط وصناعة الاسلحة والصناعات الزراعية أو أي مجموعة مصالح أخرى تعمل بشكل صريح أو ضمني لصالحها في قفص الاتهام. ويتم توجيه الاتهام إلى السياسيين والاحزاب عموما، والى الديمقراطية التي توصف بـ"الجبانة"، لإخفاء مسؤولية القوى الاقتصادية المهيمنة.

وتعاد العلاقة المباشرة بين القائد والشعب، كما قال ترامب في خطاب تسلم مهام منصبه: أنا وأنت الشعب، سنجعل أمريكا كبيرة مرة أخرى. انه هو، فقط هو بمفرده، وليس حزبه، ويضع كل السياسيين في المواجهة. يقول: "ازدهرت واشنطن، ازدهر السياسيون" عندما عانى الشعب الأمريكي. هذه هي العقيدة التي خلقت "الدوتشي" و"الفوهرر" (القائد بالايطالية والالمانية على التوالي - المترجم). الزعيم يقرر والشعب ينفذ، لأن الزعيم هو الشعب نفسه. ان هذا القائد، في الواقع، هو ملياردير يخفض الضرائب لأقرانه ويعزز سلطتهم.

قيادة نضال سياسي وثقافي كبير

في ضوء انبعاث الأفكار الفاشية، فان معاداة الفاشية ضرورية أكثر من أي وقت مضى، استنادا الى ثقافتها البناءة وإدانتها المسبب الحقيقي للشرور الاقتصادية والاجتماعية. انها قيادة لنضال ثقافي هائل، وهناك نضال سياسي يجب خوضه. سيكون الأمر بالغ الصعوبة، لكن من الضروري توحيد جميع القوى الديمقراطية التي تشعر بتنامي خطر كبير. وعلينا ألا ننسى ما ستجبله الفورة القومية معها. ان الحرب تدور على الساحل الآخر من البحر. لكنها عادت بالفعل، عبر البلقان، إلى أوروبا وتبصق الآن على الحدود مع روسيا.

ان العنف، الذي يغذي مجتمعا قائما على الاضطهاد، يصبح وبائيا وبلا حدود. إن الأمر يعتمد على أنصار الفاشية لاستئناف ودعم ثقافة السلام باعتبارها الأفضل، والمشاركة في بناء أوروبا ديمقراطية وعادلة اجتماعيا ومتنورة ثقافيا. ومن هذا المؤتمر، نطالب بالتصويت في الانتخابات القادمة إلى من يلتزمون بالدفاع عن الوحدة الأوروبية، من خلال تقويتها ودفعها بالإصلاحات المناسبة - انه تصويت ضد من يريدون تدميرها.

ينتظرنا الكثير. اتمنى للجميع عملاً مثمراً.

*** - كلمة افتتاح المؤتمر العالمي للمعادين للفاشية المنعقد في في الفترة 14 – 15 من كانون الأول 2018 ، الذي دعت اليه "الرابطة الوطنية للانصار الايطاليين". نشرت في موقع "شيوعيون" الالماني، واضيفت العناوين الفرعية من قبل محرر الموقع.**

**** - ألدو تورتوريلا: مواليد عام 1926، عضو "الرابطة الوطنية للانصار الايطاليين"، صحفي إيطالي وسياسي سابق وحزبي. وكان عضوا تاريخيا في الحزب الشيوعي الإيطالي.**

حـــــــــــوارات

"الثقافة الجديدة" تحاور الأستاذ باسم جميل انطوان

الاستاذ باسم جميل انطوان، مواليد مدينة الموصل العراقية عام 1942 . بكالوريوس ادارة واقتصاد/ قسم الاقتصاد جامعة المستنصرية، خبرة 55 سنة في مجال الصناعة والقطاع الخاص . كما ان له باعا طويلا في مجال الفندقة والسياحة . شغل العديد من المواقع والمناصب منها: رئيس مجلس ادارة فندق بابل سابقا، نائب رئيس منتدى بغداد الاقتصادي، نائب رئيس جمعية الاقتصاديين العراقيين، نائب رئيس اتحاد رجال الاعمال العراقيين، رئيس فريق عمل خبراء القطاع الصناعي في مكتب رئيس الوزراء سابقا، مشرف على فريق عمل القطاع السياحي في مكتب رئيس الوزراء سابقا، عضو مجلس ادارة اتحاد الصناعات العراقي (سابقاً)، عضو فريق العمل الوزاري للإصلاح الاقتصادي ومتابعة تطبيق برنامج الإصلاح الاقتصادي لمكتب السيد رئيس الوزراء، وعضو فريق عمل وضع استراتيجيات القطاع الصناعي والتدريب التقني والمهني (TVET) وخارطة الطريق للإصلاح الاقتصادي مع اليونيسكو . ساهم في عدة لجان لوضع خطط التنمية الوطنية الخمسية . مثل القطاع الخاص العراقي في المنظمات الدولية والعربية والعديد من المؤتمرات المعقودة داخل وخارج العراق .

(الثقافة الجديدة)، التقت الاستاذ باسم جميل انطوان، ووجهت إليه العديد من الاسئلة والتي اجاب عليها مشكورا رغم مشاغله الكثيرة.

(الثقافة الجديدة): في 24/ تشرين الاول/ 2018 (2018-2022) صوّت مجلس النواب العراقي على المنهاج الوزاري لحكومة السيد عادل عبد المهدي، الذي سيمثل وكما اشارت كلمة السيد رئيس الوزراء، الإطار العام الذي سيفصل وفقه البرنامج الحكومي. وفي شباط/ 2019 قدم البرنامج الحكومي بوصفه كما ورد في مقدمته: خارطة الطريق للحكومة، ووثيقته الرسمية الملزمة التنفيذ امام الشعب ومجلس النواب. حيث يعبران عن توجهاتها - اي الحكومة- وسياساتها العامة، وسيحددان أولوياتها في ضوء المحددات السياسية والاقتصادية والمالية والاجتماعية.

ما هو تقييمكم للمنهاج والبرنامج الحكوميين؟ وهل سيمثلان مدخلا رئيسيا للإصلاح والتغيير المنشود، في ظل عقبات كبيرة، مثل عدم اكتمال واستقرار الكابينة الحكومية، والصراعات السياسية، والفساد المستشري؟

(الاستاذ باسم): قبل كل شيء لا بد من عملية إحصاء ومسح اساسية للمجتمع العراقي، لوضع اسس صحيحة لعملية التنمية المستدامة، وبدون شك ان وجود حكومة ملتزمة بمنهاج وزاري وفق مدد محددة، تجري متابعته فصلياً من الجهات التشريعية والكتل السياسية والشعب شيء جيد. لا يغيب عن البال ان هذا المنهاج الوزاري هو ايضاً تحصيل حاصل لجهود متواصلة للحكومة السابقة بالمحاور الستة التي طرحها السيد العبادي وكلفت فيها مجموعة نشطة من القطاع الخاص لوضع ذلك المنهاج الذي أقر في اخر اجتماع مجلس الوزراء للعام 2015، وتلكأ في التنفيذ. يمكن القول عن فقرات المنهاج وما كتب: ان هناك رؤية اقتصادية في المنهاج ولكنها متجزأة ولكن تبقى العبرة في تطبيق هذه البرامج. ولكن ومن خلال تجاربنا مع الحكومة السابقة، يجب ان لا نتغافل عن الحقيقة التالية: ان وضع منهاج للحكومة كخارطة طريق لا يكفي، بل المهم هو من سينفذ هذا المنهاج؟ هل لدينا جهاز اداري كفوء نزيه مهني، وهو المكمل الرئيسي لتنفيذ هذا المنهاج؟ هل تم اختيار الوزراء بالأغلبية وفق المهنية المطلوبة؟ فالمهم هو في تنفيذ ما كتب خصوصا ونحن امام حالة عجز عن اختيار (4) وزراء، كي تكتمل الحكومة، وقد مضى ما يقرب من (9) اشهر على تشكيل الوزارة، اضافة لما يطرح الان في وسائل الاعلام عن استشراء الفساد.

عموما المنهاج الوزاري يشير الى ان هناك رؤى في مسار الاقتصاد وهو اقتصاد السوق الاجتماعي ومستند الى الخطة الخمسية التي تشير ايضاً الى التوجه نحو اقتصاد السوق الاجتماعي وكذلك هذا ما نجده في حقل وزارة المالية.

(الثقافة الجديدة): صوّت مجلس النواب العراقي، في 24 / كانون الاول/ 2019 وبصورة مبكرة نسبيا على قانون موازنة 2019. ما هي رؤيتك لهذا القانون؟ وهل تتناغم هذه الموازنة مع بنود البرنامج الحكومي، باعتبارها الاداة الرئيسية لتنفيذ سياسات الدولة الاقتصادية والاجتماعية، كما يعكسها هذا البرنامج؟ هل تتضمن توجهاتها ما يساعد على ايجاد حلول للاختلالات البنيوية والمشاكل المزمنة التي يعاني منها الاقتصاد العراقي. وباعتبار ان الموازنة تمثل تلخيصا للعلاقة المالية بين الدولة والمجتمع في عام قادم، ما هي امكانية مساهمتها في عملية التنمية، وقدرتها على الارتقاء بالأحوال المعيشية لأبناء الشعب العراقي وبالأخص طبقاته وفئاته الفقيرة؟

(الاستاذ باسم): ان موازنة عام 2019 لا تختلف كثيرا في طريقة صياغتها عن سابقتها، كونها مازالت موازنة بنود وليست برامج؛ بحيث تستهدف هذه البرامج علاج الاختلالات المستشرية. وفي مقدمتها ارتفاع نسب الفقر والبطالة في المجتمع حيث تجاوزت نسبا تحت مستوى خط الفقر 23% بحسب وزارة التخطيط، والبطالة تفوق 15% اضافة الى البطالة المقنعة والناقصة؛ حيث يدخل سوق العمل سنوياً من الشباب ما يقرب من 500 الف شاب، منهم 150 الفاً من خريجي الجامعات والمعاهد، ونحن هنا امام قنبلة بشرية موقوتة يتعاظم خطرها سنوياً، دون وضع حلول عملية لها، وبالأخص عن طريق الاستفادة من امكانيات القطاع الخاص الصناعي، الزراعي والسياحي فهو المنفذ الرئيسي لتقليص نسب البطالة وبالتالي الحد من نسب الفقر. الان مطلوب من الحكومة العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية من اعادة توزيع الدخل بين المواطنين، بالأخص من القطاع الخاص؛ فالدولة ليست فقط دولة الموظفين، حيث تستلم الموازنة وتوزع الرواتب ونسبتها 75% من الموازنة التشغيلية و92% من الموازنة من الريع النفطي؛ ففي القطاع الخاص هناك قوى عمل يتجاوز عددها 8 مليون نسمة، فما هو موقفها من الموازنة، خاصة ان الدستور العراقي في المادة 111 يشير الى ان النفط ملك الشعب العراقي. اين هي حصة باقي الشعب؟ هل هناك قانون تقاعد مجز للقطاع الخاص؟ وكم عدد المشمولين به؟ فمن خلال متابعاتنا السابقة للموازنات ان نسب التنفيذ وبالأخص القسم الاستثماري لا يتجاوز 40% على ارض الواقع، وبالأخص في المحافظات حيث التلكؤ في تنفيذ القسم الاستثماري في الموازنات، اضافة الى الضعف في استقطاب الاستثمارات الاجنبية الانتاجية، بل امتلأت بغداد والمحافظات بالأسواق والمولات الاستهلاكية، والتي يندر ان تجد فيها صناعات عراقية بل شغلت كل المساحات الخضراء والفارغة في العراق بالمولات غير النظامية والاستفادة بشكل او بآخر من قانون الاستثمار رقم 13 لسنة 2006 والذي معول عليه ان يكون الاداة للنهوض بالاقتصاد العراقي. من الضروري اعادة النظر بفلسفة الموازنة العامة وتحويلها من متوالية عددية الى ارقام، تقابلها اهداف تنموية واضحة ذات مردودات اجتماعية اقتصادية، وتكون موازنة مشاريع وحسابات ختامية للعام

المقبل 2020. ويجب ان تستهدف الموازنات وجهين اساسيين هما: القضاء على البطالة وايجاد فرص عمل للشباب، وبالتالي تحجيم نسب الفقر في المجتمع.

(الثقافة الجديدة): ما زال خطاب الخصخصة و"الاصلاحات الاقتصادية"، يدعو إلى تصفية الشركات المملوكة للدولة باعتبارها "ثغرات سوداء" في نفقات القطاع العام. برأيك ما مدى مصداقية الرأي القائل ان تفكيك القطاع العام وبيع هذه الشركات، يعتبر مدخلا لازما لتطوير الاقتصاد العراقي عموما، والقطاع الخاص على وجه الخصوص؟ ألا يمكن، حسب رأيكم، تأهيل وتطوير عمل هذه المنشآت عن طريق دعم حكومي فاعل وعبر شراكة واضحة وشفافة بين القطاعين العام والخاص؟

(الاستاذ باسم): هذا الخطاب ليس حديثاً فقد بدأت وزارة الصناعة منذ عام 1988 بهذا الاتجاه لعدد كبير من المشاريع العائدة لها، منطلقة من مبدأ جدوى المشروع والربح والخسارة هي القياس، سار هذا الاتجاه منذ النظام السابق لعجز الحكومة الاقتصادي وكثرة ديونها التي خلفتها الحروب المتوالية وتماشياً مع التوجه الرأسمالي العالمي خاصة بعد انهيار المنظومة الاشتراكية، وبسبب سوء ادارة تلك المؤسسات وفشلها اقتصادياً. لكن هذا التوجه اي الخصخصة، لا يصلح في كل مكان وزمان وما يطبق هنا قد لا ينفع هناك، لكن يبدو ان الاحتلال الامريكي عام 2003 وما جاء به طاقم بوش (توم فولي ومجموعته) كان هدفه هو التوجه نحو الخصخصة وتصفية ممتلكات الدولة وقد لاقت هذه الخطوة معارضة عام 2004 من القوى السياسية الحاكمة من دون فهم وادراك. وكان المفروض ان يقدموا البديل السريع المجدي في ذلك الوقت عن طريق اعادة الاصلاح الاقتصادي، لكن للأسف الشديد فان عملية النهب والسلب للمنشآت الحكومية، وتوقف القطاع الخاص والغزو السلعي للبضائع الاجنبية للسوق العراقية، شلّ اي عملية اصلاح اقتصادي. الحل الافضل اليوم هو الاصلاح الاقتصادي والدخول في مشاركات مع القطاع الخاص العراقي ـ الاجنبي، عن طريق الاستثمار وبقيادات جديدة لهذه المشاريع، وهناك قانون يشرع الآن للشراكة بين القطاعين العام والخاص، كما توجد نماذج ناجحة وجيدة من الاستثمار لهذه المشاريع، مثل تجربة مصانع السمنت في تحقيق انتاجية عالية، وسعر متوازن، مع كفاية للسوق وتحقيق الحماية لهذه الصناعة. وكذلك يمكن ادخال العاملين في شركة مساهمة في التملك لهذه الشركات مع اعطاء قروض ميسرة لهذه المصانع وتطويرها فنيا، لتواكب مستوى الانتاج العالمي، وتطوير الكادر الداخلي لكل منشآته، ويمتاز بالمهنية والنزاهة مع الاخذ بنظر الاعتبار ان نبض المنشآت بما اصابها من اضرار، يمكن بيعها للقطاع الخاص لغرض تطويرها، ولذلك نحتاج الى دعم بالقروض والتسهيلات الاجرائية.

(الثقافة الجديدة): من خبرتك المتراكمة والطويلة في القطاع الخاص، وخصوصا الصناعي منه، كيف يمكن تطوير القطاع الخاص العراقي خصوصا واغلب قطاعاته الانتاجية متخلفة؟ ما هي آليات انتشاله من واقعه المتردي هذا، بحيث يكون له دوره الملموس في تنويع مصادر ايرادات الدولة، وتحقيق درجة كبيرة من الاكتفاء الذاتي؟ وهل يمكن ايجاد آليات تنسيق أو صيغ تكامل واضحة بينه وبين القطاع العام؟

(الاستاذ باسم): نعم، يمكن تطوير القطاع الخاص العراقي الاصيل غير الطفيلي، الى قطاع خاص وطني حيوي مزدهر، مبادر محليا ومنافس اقليمياً، يهدف الى تحقيق التنوع الاقتصادي والتنمية المستدامة وخلق فرص العمل. وذلك عن طريق البدء بالحد من الاستيراد واختيار المشاريع التي موادها الاولية محلية، والمشاريع التي تشغل اكبر عدد ممكن من العمالة العراقية والصناعات التي تضيف للناتج المحلي قيمة اكبر، وكذلك الصناعات التي تحد من الاستيراد الاجنبي، وتحقق الاكتفاء الذاتي، والتي تساهم في تنويع الدخل للدولة وتحويله من اقتصاد ريعي الى اقتصاد انتاجي في المجالات المتعددة: زراعية وسياحية. ان مساهمة النظام المصرفي في دعم القطاعات الانتاجية مسألة مهمة، بدل استخدام مزاد العملة لتبييض وهروب الاموال تحت مظلة الاستيرادات غير المنظمة مع وضع منهاج استيراد للسلع التي لا تنتج محلياً والحد من نشاط الاقتصاد الرمادي الطفيلي الذي يشكل 65 - 70% من الاقتصاد العراقي. لا ننسى ان هناك استراتيجية وضعت عام 2014 بالتعاون مع منظمات الامم المتحدة وهي استراتيجية تطوير القطاع الخاص 2014 - 2030 بالتعاون مع وزارة الصناعة وعدة جهات دولية. وهي مبنية على اربع ركائز اساسية: فهم القطاع الخاص، تحسين بيئة الاعمال، وضع برنامج تطوير المشاريع الصغيرة والمتوسطة، واخيرا هيئة تنفيذ الاستراتيجية. هذا بالإضافة الى الاستراتيجية الصناعية المقرة ايضاً عام 2014 في مجلس الوزراء والتي تستهدف النهوض بالقطاع الصناعي.

لا ننسى ان هناك محاولات من جهات عديدة لخنق القطاع الصناعي وهذه الظاهرة مربوطة بمتاجرين مستفيدين من التجار ومافيات من دول الجوار لإبقاء العراق دولة متخلفة صناعياً.

(الثقافة الجديدة): لماذا يعتبر العراق بيئة غير صالحة للاستثمار؟

(الاستاذ باسم): البيئة الجاذبة للاستثمار تحتاج الى مجموعة عوامل اساسية ومهمة لكي تستقطب المستثمر المحلي اولا ثم الاجنبي، اولها صدور قانون استثمار ملائم للمرحلة، ثم البيئة السياسية والامن، ويضاف الى ذلك التشريعات والقوانين الملائمة لكل مرحلة، ابتداء من دخول المستثمر الى الحدود والمطار وتسهيل كل الخدمات له. من المهم ايضا وجود نظام مصرفي رصين يكون العمود الفقري للاستثمار ويتماشى مع التطورات العالمية ويسهل حركة دخول وخروج رأسمال الاصل. اضافة الى تسهيل عمل العمالة الاجنبية في منح سمة الدخول، مع قيادة كفوءة في القطاع الخاص، لقيادة قطاع الاستثمار. من الضروري ايضا

حجب التدخلات السياسية والحزبية من التدخل في قطاع الاستثمار والحد من الفساد والابتزاز الذي يمارس مع المستثمر والذي يكون العراق به بيئة طاردة للاستثمار.

في الاخير وكي لا يغيب عن البال، دخلنا في الفترة الاخيرة بعدد من الاتفاقيات مع دول الجوار لغرض استقطابها للاستثمار. فأي بيئة استثمارية هذه؟

(الثقافة الجديدة): ان العراق دولة ريعية بامتياز، ومساهمة قطاعات الصناعة والزراعة في الناتج المحلي ما زالت ضئيلة الى حد كبير. وهناك غياب شبه كامل في توظيف العائدات النفطية من اجل تطوير القطاعات الانتاجية المختلفة، او في انشاء اخرى. برأيك ماهي المنهجية الاقتصادية العلمية للخلاص من الدولة الريعية، واثارها السيئة؟

(الاستاذ باسم): دخل العراق من مبيعات النفط والغاز خلال السنوات الماضية ما يقرب من ترليون دولار، وكان من الممكن وفق برنامج اقتصادي رصين تحويل جزء من هذه المبالغ الكبيرة الى القطاعات الانتاجية لغرض النهوض بها، وتطويرها، وتحويل الاقتصاد العراقي من اقتصاد ريعي الى اقتصاد انتاجي صناعي، زراعي، سياحي، نقل .... الخ. وتعمل هذه القطاعات بعد تطويرها على خلق فرص عمل للعاطلين تعيد تصحيح مسار الاقتصاد العراقي المشوه، حيث تساهم الصناعة حاليا في 1.5% من الناتج المحلي الاجمالي والزراعة 5.5% ولا ذكر للقطاع السياحي، او قطاع النقل. ان السير في الاستراتيجية الصناعية، والزراعية وتطوير دور القطاع الخاص والاستثمار هو المنقذ الوحيد للخروج من الازمة والتخلص من الديون المتراكمة على العراق، والتي تزداد سنوياً عبر العجز المتواصل بالموازنات داخلياً وخارجياً. نحن امام كارثة كبيرة في استمرار الزيادة السكانية وبنسب عالية عالمياً 2.7 دون اجراء تحولات من البنية التحتية والاعمار ومنها السكن وفرص العمل.

(الثقافة الجديدة): العراق بلد يزخر بالمواقع السياحية، سواء القديمة منها ام الاسلامية. بالإضافة الى الطبيعة الخلابة في كردستان - العراق والاهوار وغيرها. من خبرتك الواسعة في مجال السياحة والفندقة، ما هي اهم الوسائل من اجل تنشيط وتطوير قطاع السياحة الاثرية والدينية، كي يساهم فعلا في تطوير ايرادات البلد، لما يدره من اموال غزيرة؟

(الاستاذ باسم): قطاع السياحة في العراق منجم كبير، اذا احسن استثماره، سواء السياحة الدينية، او السياحة الآثارية او التراثية. فالعراق يمتلك ثروة كبيرة في هذا المجال، فهو مهد الاديان السماوية بكل مذاهبها وقبلة لاتباعها، تتوزع على ارضه الكثير من المراقد والمزارات الدينية، والاديرة المتعددة والكنائس. والعراق مهد الحضارات والمواقع الاثرية منتشرة في كل انحائه، ويصل عددها الى (25) الف موقع بحسب الاحصاءات. يمكن الاستفادة من كل ذلك في تطوير قطاع السياحة خصوصا اذا تم تسهيل منح الفيزا للسواح واعمار البنى التحتية في المناطق الاثارية والمزارات الدينية من نقل ومطاعم وفنادق وطرق

وخدمات لوجستية وادلاء سياحيين يجيدون اللغات الاجنبية. علما ان هناك استراتيجية سياحية عراقية، لكنها مركونة فوق الرفوف فلا توجد كفاءة ولا ارادة لتنفيذها، اضافة الى ملف الفساد الذي تهيمن عليه بعض الاحزاب. المعروف في دول العالم ان كل سائح يدخل البلد يصرف الف دولار تقريبا. ولكن اين نحن من ذلك، وهذه تقديرات منظمة السياحة العالمية؟

(الثقافة الجديدة): كان لكم العديد من المساهمات والآراء، في مجال تقديم حلول لأزمة السكن المتفاقمة في العراق. ما هو تقييمك لمشروع قانون "توزيع قطع الاراضي للعوائل العراقية" المقدم من قبل الحكومة؟ وما هي الوسائل التي يمكنها ان تساعد في حل هذه الازمة؟

(الاستاذ باسم): ازمة السكن في العراق، هي تراكمات كبيرة من النظام السابق عندما سحبت تخصيصات السكن الى نفقات للحروب وعسكرة المجتمع، وها هي قد تحولت الان الى معضلة. فالعراق فيه الان شحة بالسكن تصل (3.5) مليون وحدة سكنية، ويزداد سكانه مليون نسمة سنويا تقريبا، هم بحاجة الى (200) الف وحدة جديدة. بمعنى اذا استمر العراق في بناء (250) الف وحدة سكنية سنوياً وعلى مدى 25 سنة، فإن ازمة السكن لن تحل. يجب ان نستفيد من تجارب دول سبقتنا في حل مشكلة السكن، بعد الحرب العالمية الثانية مثلا، وما اصاب مدن كاملة من تدمير. ان حل ازمة السكن يعني حل مشكلة الصناعة الوطنية التي تشكل الصناعات الانشائية منها، 50%، اضافة الى حل ازمة البطالة والفقر. نحن بحاجة الى رفع شعار اسرع بناء بأقل كلف، واكبر عدد من الوحدات السكنية، ويجب الاعتماد في هذه الحالة على البناء العمودي للحد من تجريف البساتين وتقليص الكلف وعدم الافراط في توسيع البنى التحتية التي تشكل نفقاتها جزءا كبيرا من الصرف. اما توزيع الاراضي فهو نوع من الضياع ودخول المواطن في دوامة وبطء التنفيذ. نحن بحاجة الى بناء حديث سريع عمودي لمسايرة الازمة. والاعتماد على البناء الجاهز خاصة ذا الكلفة المنخفضة والسريعة الانجاز.

أدب
و
فن

نجمة الميزان

د.أحمد مهدي الزبيدي

لنجوم السماء نصيب من الحكايات والأساطير والسرديات ذات المغزى الإنساني، وما تختلف فيه حكايات النجوم عن سواها، أنها تشترط حضور النجمة وليلها، فلا ذكر لها لا في نهار ولا في سماء ملبدة بالغيوم.. فبتلك الحكايات ومقاصدها عرفنا: (بنات نعش، والثريا...) وعرفنا مَنْ (نجمة الميزان!).. تلك النجمة اللامعة المتوسطة بين نجمتين صغيرتين، تدلّ حكايتها على (الثبات) والنصاعة والنقاء والوفاء للعدل، بخلاف رفيقاتها، من النجوم، اللواتي يتغيّر موقعهن مع تغير المواسم الفلكية.

عن تلك النجمة سأتحدث، ولكن ليس حديثاً أسطورياً، ولا يقترن بالليل وسمّاره، سأتحدث عن نجمة في الأرض الثقافية العراقية، عن نجمة واقعية، أعني الأستاذة الدكتورة (نادية العزّاوي) ذات النصاعة اللامعة في الأوقات كلها، بل حتى حين تلبدت البلاد بالغيوم المرعدة بالخوف والتشظي، بقيت على صفتها ولمعانها الذي لا يهفت.. ومَنْ ينبش في منجزها العلمي سيجد أن مرجعياتها الثقافية تنهل من منابع متعددة، من أبرزها المنبع التراثي العربي الأصيل، والحداثة النابعة من عقل تنويري متحرك يزعزع الثوابت الجاثمة على صدر الحقائق المغيبة، فهي تؤمن بـ (الحقيقة) وتنزعج من (تشكلات الحقيقة) ذات الأنساق الآيديولوجية الهادفة إلى امتلاك العقل بما يخدم مصالحها، وعلى حد تعبير د.سعيد عدنان عن د.نادية العزاوي: (ورائدها في ذلك كله الصدق والإخلاص ومحبة الحقيقة، وقد كان من تمام عملها أن خرجت بالقيم الأكاديمية إلى أفق الثقافة الرحيب؛ فكتبت في الصحافة الأدبية، وحاضرت في منتديات الثقافة بمواد أصيلة رصينة، وكلّ عملها إنّما تُظلّه روح عراقية نبيلة، ويُضيئه شعاع الوفاء.) (مقالات في الأدب والثقافة/ص269).

وحين ينصفك الحظ لتكون من تلاميذها الجامعيين ستجد نفسك مرغماً على أن تنسى الزمن الحالي، لأنها ستقودك بسحر كلامها وثقافتها الواسعة إلى الأزمنة كلها: ستجد نفسك تتجول في شوارع بغداد العباسية، وسترى المتنبي

نصب العين، وفي لحظة خاطفة ستعرف تفاصيل مكتبة رزوق فرج رزوق، وحجم قامة عبد الإله أحمد، وعذابات حلاجها (ألفريد سمعان)، وصبر علي جواد الطاهر، ستعرف تفاصيل القابض على الجمر (قاسم عجام)، ستعرف اللحظة التي تشرب فيها عاتكة الخزرجي قهوتها، وستعلمك كيف تكون مبدئياً، وتكون (موقفاً) تنتسب إليه بملء الفخر..

وهي كما هي بقصّة شعرها اللاتتجاوز شحمة الأُذن، وصوت مدوزن على مقام الهيبة والوقار، وعين تبتسم لطلابها أينما هلّوا عليها بالتحية والسلام.

نعم كما هي، قبل السقوط وبعد السقوط، وقبل الاحتلال وبعد الاحتلال، وقبل النفط وبعد النفط، ولكن مع ارتفاع ضغط التمزق والتشظي للهوية العراقية المدنية الأصيلة تزداد نحولاً وألماً على الذاكرة الوطنية العراقية، فجعلت لها كتاباً عنوانه (من تجليات الذاكرة.. دراسات في نصوص عراقية) تحدثت فيه عن (التاريخي والجغرافي) بوصفهما شرطين أساسيين للوجود الإنساني، بما يختزن من قيم رفيعة مشرفة وشخصيات وأسماء ورموز نواجه بها عوامل القهر والتشوية والتغريب..

ودعونا ننتفع من نصيحة النقد الحديث حول عتبات النص بوصفها جزءاً لا يتجزأ من بنية النص الكلية، ونلتفت إلى إهداءاتها المستهلة لكتبها، ففي (تجليات الذاكرة) تصدح بقولها: (السلام على الضحايا والأبرياء يتساقطون على تراب هذا الوطن الموعود بالضيم والدم على مرّ تاريخه)، وفي (القابض على الجمر): (إلى الحالمين بالحق والخير والعدل في وطني، لكم أسوة حسنة في مواكب الشهداء التي سبقتكم إلى المذابح)..

عادة ما تنتهي قصص نجوم الليل بخاتمة تستريح لها القلوب، ولكن (نجمة الميزان د.نادية العزاوي) لا خاتمة لحكايتها لأنها مازالت على قيد العطاء.. وإن كان لا بدّ من خاتمة لهذه الحكاية فهي لا تتعدى النصيحة بأن ما يوحّد نجمة الميزان في السماء الليلية ونجمة ميزان الثقافة العراقية أنك لا تستطيع أن تبصرهما، جيدا، إلا برأس مرفوع.

ناعيا رحيله المحزن
اتحاد الأدباء: فوزي كريم في ذمة الخلود

فقد الوطن رمزاً من رموزه الأدبية المهمة، وهو الشاعر والناقد الكبير فوزي كريم، الذي وافته المنية يوم الخميس 16 أيّار 2019، في أحد المشافي اللندنية، ليغادر عالمنا إثر أزمة أصابت قلبه المبدع، وهنا ينعى الاتحاد رحيل قامة أدبية شامخة، وعقل مثابر حاضر منذ الستينات، إذ كان قطباً مهماً من أقطابها شعراً وتنظيراً. ويعد كريم من أبرز المتواصلين مع حركة الحداثة، والقارئين النقديين لها، ومن الأصوات التي لم تكتفِ بإنتاج الأدب فحسب، بل امتدت لعمقه الضارب في المعرفة، كما تواصل - صاحب (تهافت الستينيين) و(ثياب الامبراطور..) وغيرهما من الكتب المهمة - مع العوالم المرافقة للقصيدة، والمؤثثة للشعر، من موسيقى ورسم أجادهما، وعاش لحظتيهما المنبثقتين تفرداً وجمالاً.

وداعاً فوزي كريم..

وداعاً أيها النخلة العراقية التي قارعت الديكتاتورية المجرمة، والبعث القاتل، وسجّلت بعزلتها النبيّة أعتى الإدانات..

وداعاً أيها (اللحظة الشعرية) الممتدة أجيالاً من البياض.

عمر السراي
الناطق الإعلامي لاتحاد أدباء العراق
17 أيّار 2019

ثلاثية القلق والعزلة والكآبة: فوزي كريم

فاضل ثامر

منذ ديوانه الأول "حيث تبدأ الأشياء"[1] الصادر عام 1968، وحتى اليوم، كان الشعر بالنسبة للشاعر فوزي كريم سلاحاً يائساً لمواجهة الإحساس بالعزلة الروحية والكآبة والفراغ، حتى ليخال القارئ ان الشاعر يعيش وحيداً داخل صومعة معزولة ومقذوفة في وسط يمٍّ لا نهائي. لقد ظل الشاعر أسير إحساس غامض بالوحدة والقلق والاستيحاش، واكتسب إحساس الشاعر هذا في منفاه خارج العرق بعداً خرافياً وأسطورياً، أحال حياته إلى لحظة ترقب مخيفة في انتظار برابرة العصر، تماماً مثلما كان كفافي يفعل. اذ نراه "في انتظار الأعداء "تارةً أو في انتظار الغزاة تارةً أخرى.

"في الليل
انتظر مجئ الأعداء .
اكتشف ضياع الوقت
من بين أصابع كفي . " [2]

وتماما، مثل كفافي، ربما يمثل مجئ الأعداء حلاً لعزلته. ولذا فهو في قصيدة "الغزاة "يطفئ كل ضوء ويعرض للغزاة خرائبه

"في الليل أطفئ كل ضوء
أترك الشباك دون ستارة،
واشرع الأبواب " [3]

ويمكن القول ان فوزي كريم، في اغلب ما كتب من شعر، أنما يكتب مرثاته الشخصية أولاً، ومرثاة عصره وأبناء جيله ثانياً. فهو شاعر إشكالي بحق: يقف وحيداً ومعزولاً في مواجهة كل الخراب الذي يحيط به والخراب الروحي الذي يتخيله داخله. شعراء آخرون حاولوامواجهة هذا الخراب بلون من التماسك الجماعي، وأحيانا بالاستنجاد بالوعي الجمعي بالأزمة أو اجتراح حلول لمواجهة هذا الإحساس بالخراب. اما فوزي كريم الإشكالي، الفرداني، الأعزل فهو يواجه العالم وخرابه الحقيقي أو الخراب الذي يتخيله بعينيين مفتوحتين على كل هذا الدمار الذي خلفته الحروب والأكاذيب، الوشايات، والروايات المزورة. وفي مثل هذا الجو الكابوسي كثيراً ما تتوهج اللحظة الشعرية أمام بصيرة الشاعر مثل ومضة سريعة وعابرة، يحاول الشاعر اقتناصها، أو التقاط جزئيات متشظية منها في عملية إبداعية معقدة، ومثل الكشف الصوفي المفاجئ تولد لديه القصيدة .

لكن الشاعر لا يستسلم دائماً لهذا الصمت المخيم على روحه، فهو يتمرد أحياناً باحثاً عن كوى صغيرة لخلاصه الروحي،فيجدها تارة في اللذة الابيقورية، في الخمرة أو الجنس أو متع الحياة الأخرى، وتارةً أخرى في جلال الموسيقى الكلاسيكية غالباً :

"وألوذ، كأي عراقي بالخمرة. من
يربكني هذا الرتل من الأحياء

في جسدي نحو الهوة، غير مجئ الأعداء ؟''. [4]

ويصل الشاعر حافة اليأس، فيحلم ان يحيا بلا غاية، خارج الزمان والمكان، كما هو الحال في قصيدة ''أريد ان أحيا بلا غاية'':

''أريد أن أحيا بلا غاية،
في هذه الفضلة بما تبقى من سنيني الكثار.
أريد ان اسكن في مشهد
من حلم اليقظة، لا منتم.''[5]

لكن الشاعر لا ينساق نهائيا مع هذا الإحساس المدمر باللاانتماء، ففي لحظات معينة يشعر بضرورة أن يكون جزءاً من الآخر، ومن الحياة، فيقاوم الإحساس المدمر بالعزلة. وفي بعض سنوات الغربة وجد ملاذه في الاندماج قليلاً مع الهم الاجتماعي والسياسي المعارض وخاصة في مواجهة مظاهر القبح والقمع والاستبداد التي أشاعها النظام الدكتاتوري، وكان ديوان الشاعر ''السنوات اللقيطة''[6] الصادر عام 2003 شهادة مهمة وموجعة عن هذا الانعطاف المؤقت في حياته . اذ يتحول الشعر إلى رثاء سياسي واجتماعي ضد المؤسسة السياسية التي فرضت عليه وعلى الكثير من المبدعين أمثاله ان يعيش حياته منفياً خارج وطنه سنوات ''لقيطة'' ومريرة، لأنها مقطوعة الجذور عن حاضنتها الاجتماعية والروحية وأشواقها وتاريخها :

''هيئوا وطناً، غير هذا المضرج في دمه،
حلةً للكرامة غير الرداء المهلهل،
عطراً على قدر كارثتي .
ما لكم،
كلما رحتموا للقتال تعود أناشيدكم دونكم؟''[7]

وبذا تتحول معاناة الشاعر في مواجهة الكارثة السياسية والاجتماعية والثقافية التي تحيق بوطنه المضرج بدمه إلى تميمة تنقذه، ربما مؤقتاً،من عزلته، ويرسم فيها صورة جديدة لشعره:

''الشعر أباطيل
ان لم يستر عرياناً
قضيت العمر به مزدانا
والناس عرايا حولي '' [8]

وهكذا يتحول الشعر عند فوزي كريم تدريجيا إلى أداة للاحتجاج والتعبير، والمواساة أحيانا لأنه لا يمتلك سواه :

''كيف يضمد شعري النازف
والعريان على ناصية، كيف يغطي عورته
ويواسي المرضى فوق أسرتها.''[9]

وعلى الرغم من لحظات الانكسار والشك واليأس التي تجتاح روحه فهو يظل مثل زرقاء اليمامة يبحث عن الضوء في آخر النفق:

''في حافة الأرض أبصرت غاباً
وفجراً وشيكاً على كل غصن،
وزوجين زادا اقترابا،
عراةً
فأحسست إني وفيت بديني!''[10]

لكن الإحساس بالعزلة والوحشة والكآبة لايفارقه ابداً. فهو عراب الكآبة والحزن والخسارة، وهو يدعو مريديه، مثل مسيح إلى أحضانه:

''إلا فكتكن ألف طوبى لمن ينتسب
لراية حزني الكسيرة،
لراية من قاتلوا مرغمين على الجبهات . ''
[11]

واذ تتضخم معاناة الشاعر، تبهت صورة الحبيبة فتبدو مثل ذاكرة مطفأة وبعيدة :

''كنت أحببت يوما
واثقلني الحب بالاحجيات
غير إني شفيت
فقلبي محار تردد فيه الحياة

صدى موجها المتلاطم. ” [12]
فالمرأة، بالنسبة للشاعر، مثل حلم سرابي هارب لا يمكن الإمساك به، فهو، في النهاية، منذور للحب الخائب :
”في عتمة ذاكرتي
كم أجفل حين أعيد اليّ امرأة أحببت !
وتنبأت : أني منذور ملْ فمي
للحب الخائب . ”[13]
ومثل أبي العلاء، يرثي حياته وقد بلغت به الثلاثون ستين عاما ويوهم نفسه بأنه سيعشق امرأة تنسج الشعر كقشعريرة:
”وارتادها كجزيرة،
وأفنى هياما . ” [14]
ويتخيل الشاعر نفسه، انه سيقتل من اجل امرأة لم يرها إلا في حلمه، وهي رؤيا، كما يبدو، تلبست الشاعر طويلاً وعبر أكثر من ديوان . ففي ديوانه الثاني ”أرفع يدي احتجاجاً“ الصادر عام 1973 ترد هذه النبوءة :
”من وقع الماء على وطني، من وقع الماء
علمني بضعة أشياء .
سوف أظل فقيراً
وسأنعم بالثورة
وسأقتل، من اجل امرأة
لم أرها الا في حلمي“. [15]
وهذه النبوءة /الكابوس تعود ثانية بعد ثلاثين عاما، في ديوانه، ”السنوات اللقيطة “ الصادر عام 2003،مقترنة بنبوءة مكررة انه منذور للحب الخائب :
”وتنبأت :
أني منذور ملء فمي
للحب الخائب،
وسأقتل من اجل امرأة لم أرها إلا في حلمي
! . ” [16]
لقد ظلت تجربة فوزي كريم الشعرية تنبع من تجربة روحية عنيفة نابعة من أزمة روحية متأصلة ذات طابع إشكالي . فهو يسعى إلى توحيد المتضادات في ذاته، إذ يحمل منذ ديوانه الأول ”حيث تبدأ الأشياء ”الثنائية الضدية :الحب والكآبة معاً، هويةً ذاتية له :
”قلت لها يوماً باني شاعر
أضئ أو يضئ بي المكان
قلت لها في الشعر كلمتين
الحب والكآبة. [17]
ووحدة الأضداد ليست جديدة في الشعر العالمي والعربي والعراقي. فنحن نتذكر السياب الذي وحد المتناقضات في قصيدة ”أنشودة المطر“
”أصيح بالخليج، يا خليج
”يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى. ”[18]
فوزي كريم في شعره يرغب في ان يقتنص داخل شباك لغته الشعرية الواقعي والمتخيل، الصوفي والأرضي، الموسيقي والحسي، الكآبة والبهجة، العزلة والذوبان في الآخر، في سلسلة لا نهائيات من الثنائيات الضدية . ربما يفعل ذلك ليقاوم إحساساً مدمراً بالوحشة والعزلة والكآبة، والذي يدفعه أحيانا إلى اليأس والانكفاء على الذات. فهو يحاول ان يقهر هذا الإحساس، ويحقق لوناً من المصالحة مع ذاته أولاً و بين الذات والآخر، ومع الواقع الخارجي. ومن هنا تنبع كل معاناة الشاعر وتمزقاته وربما توصلاته وكشوفاته الشعرية أيضاً، التي تجسدت في خطاب شعري متوتر وممتلئ بالدلالة والإيقاع والترميز الشفاف، والمتوحش أحياناً .
وينفلت الشاعر أحياناً ليمارس عنفاً رمزياً ضد البلاغة واللغة والتقاليد الأسلوبية التقليدية مثلما يمارس عنفاً ضد الذات، ولكنه سرعان ما يعود إلى موقع المصالحة في استراحة من استراحات المحارب .

لقد شهدت تجربة الشاعر فوزي كريم الشعرية والرؤيوية تحولات مهمة منذ ان بدأ تجربته الأولى تحت مظلة جيل الستينات في العراق و"البيان الشعري"[19] المعروف الذي كان الشاعر أحد الموقعين الأربعة عليه . ومع ان الشاعر كان جزءاً من حركة الحداثة الشعرية في الستينات وتجمعه الكثير من القواسم المشتركة مع شعراء ذلك الجيل، الا انه ومنذ البداية كان يمتلك رؤيته الخصوصية وتفرده، وكان يتصرف دائماً، بوصفه فرداً، وليس نسخة مكررة من مجايليه من شعراء الستينات ،دون ان يعني ذلك انه كان يغرد جارج السرب، او يسبح ضد التيار. ويمكن ان نتلمس ملامح هذه الخصوصية في طريقة صياغة الجملة الشعرية والبنى الداخلية للقصيدة وكيفية التعامل مع البلاغة الشعرية والمستويات السردية والملحمية والدرامية في الشعر. كما نجد في تجربة الشاعر المبكرة أصداء واضحة للتجربة الادونيسية، وخاصة في معجمها الشعري، وفي نزعتها الرؤيوية . إلا ان الشاعر من جانب آخر، قاوم إغراء الاندفاع في دهاليز التجريب الشكلاني، والكتابة الاتوماتيكية أو اللاواعية التي مارسها بعض مجايليه، وظل قريباً إلى حساسيته الشعرية الخاصة، كما انه لم ينقطع كلياً عن جذوره العميقة الممتدة في الموروث العربي الشعري والبلاغي وفي ألفته المتميزة للمعجم الشعري الكلاسيكي وتوظيفاته المختلفة .

ويمكن القول ان الشاعر فوزي كريم من القلائل الذين ظلوا يتمسكون بقصيدة التفعيلة، أو قصيدة الشعر الحر التي أسس لها السياب ونازك الملائكة في المرحلة الأولى من الحداثة الشعرية في الخمسينات من القرن الماضي. وقد كان الشاعر تلقائياً في التعامل مع الوزن والقافية الا في حالات نادرة يثقل فيها الوزن أو القافية على الأسماع . كما تطورت رؤيا الشاعر تطوراً كبيراً في تجاربه الشعرية المتأخرة وكشفت عن نزوع فلسفي وكوني، كما سنأتي على ذلك لاحقاً .

كان الشاعر فوزي كريم يدرك طبيعة اللعبة الشعرية وشروطها، ولم يكن ممن يتركون للعفوية ان تتحكم في بنيته الشعرية . وقد سبق لي وان كشفت في دراسة مبكرة نشرتها عام 1969 عن ديوانه الأول "حيث تبدأ الأشياء"، وأعدت نشرها في كتابي النقدي "معالم جديدة في أدبنا المعاصر"[20] عن بعض مواصفات لعبته الشعرية تلك . فالشاعر كان يتعامل مع "الأشياء "فالكون والوجود والتجريدات كانت تتجلى له على هيئة أشياء ملموسة لها وجودها العيني، وصفتها الموضوعية . وهو، كما يبدو، كان يلتقي مع الشاعر والناقد أرشيبالد مكليش الذي يرى بان الشاعر يتوجه نحو أشياء العالم، لا لكي يكون أفكاراً عنها بل ليكتشفها، وبذا يكتشف نفسه وهو ينظر إليها[21]. وقد سبق للشاعر وان أماط اللثام عن مفهومه هذا وهو يتحدث عن تجربته الشعرية في مجلة "الكلمة" العراقية عام 1969 حيث يرى "ان الشاعر حين يكتب يبتعد عن اللغة/ الأداة، ويختار نهائياً الموقف الذي يعتبر الكلمات أشياء لا إشارات". [22]

وقد أشرت في دراسة لاحقة لي عن الدلالة السيميائية للأشياء في الشعر أشرت فيها إلى ان الأشياء داخل نسيج القصيدة ليست مجرد مفردات، بل هي حقل علاقات توليدية لا متناهية . فهي قد تكون إحالة أو دلالة أو معنى , وهذا التراكم للأشياء يوحي بدلالات ضمنية أو صريحة. ومن الناحية السيميائية تدل الكلمات ن بوصفها دوالاً، على الصور

الذهنية المتخيلة أو المدلولات، وليس على الأشياء ذاتها. [23]

هذا الفهم الواعي للبنية الشعرية، مكن الشاعر من التعامل دائما مع المحسوسات والمرئيات وعدم الإسراف في التعامل مع المجردات والبنى الذهنية والميتافزيقية، وهو ما منح قصيدته لمسة حداثية مهمة مهدت الطريق أمام الشاعر لتحقيق فتوحات أوسع في تجاربه الأخيرة منذ ديوانه "مكائد آدم "الصادر عام 1995 و"قصائد من جزيرة مهجورة" [26] وهي قصائد مكتوبة في النصف الثاني من تسعينات القرن الماضي .

في هذه المرحلة الجديدة، نضحت بشكل واضح رؤياً إنسانية وكونية وفلسفية لدى الشاعر تجلت بشكل صريح في بنية شعرية جديدة، لم تدرس بعد نقدياء، وربما يعود ذلك إلى ان بعض دواوين الشاعر اللاحقة مثل "السنوات اللقيطة" 2003 و"آخر الغجر" 2005، لم تعمق ذلك المنحى الفلسفي بالطريقة ذاتها.

فقد أشر ديوان "قصائد من جزيرة مهجورة "عن نضج رؤياً فلسفية وكونية متميزة لدى الشاعر يزاوج فيها بين المنحى التأملي الذهني والفلسفي وبين نزعة النظر إلى الكلمات والمرئيات بوصفها أشياء حسية وملموسة.

في ديوانه الموسوم "قصائد من جزيرة مهجورة" نجد هذه المزاوجة الناضجة بين الرؤيا الفلسفية والكونية من جهة، والتعبير بما هو حسي شيئي ومحسوس من جهة أخرى، والتي مكنته من الابتعاد عما هو تجريدي وذهني، والبقاء ضمن مساحة البنية الشعرية التي تميز بها الشاعر واعني بها التوقف عند الأشياء في مظهرها الحسي وفي تدليلها السيميائي،حيث الانتقال إلى الفلسفي، عبر حضور الشيئي والحسي والمتعين، وليس العكس .

يستشعر الشاعر في هذا الديوان المكتوب في نهاية العقد الاخير من القرن الماضي، الكثير من الأقنعة والوجوه والرموز منها فاوست ويولسيس والثور الآشوري والشيخ جلال الدين الرومي، والبوذي ولوحة العشاء الأخير والموسيقار باخ وغيرها، كما يكشف عن مظهر للميتاشعر من خلال مخاطبة القارئ والاستنجاد بالقصيدة لمواجهة خراب العالم وعنف القوة :

"ستقرأ شعري
وتسكن منعطفاً فيه لوحدك
تحيطك رائحة كاحتراق الثقاب . " [27]

وفي "فاوست في مدينة كازا "يستعير الشاعر قناع فاوست لغوته ليقايض فاوست فتوته في عقد اسود :

"حتى أمضيت العقد الأسود بين دمي ودم الشيطان،
هل كنت سأمسك أول خيط يوصلني
لامرأة خطرت ! . "[28]

وفي" عودة يوليس "يرتدي الشاعر قناع يوليس عصري، في لون من المفارقة الساخرة المريرة. فالأشياء والقيم والمواقف قد اختلفت، ولن يجد القارئ افقاً منتظراً للتوقع، بل سيصطدم حتماً بكسر لأفق هذا التوقع :

"فقد رجعت عارياً، كما ذهبت،
حاملاً ذات اليقين :
إنني لا باحثاً سدى ولست هارب ." [29]

وبنلوب الشاعر، لم تعد تنتظره، كما فعلت بنلوب اوليس، فهي لا تمسك بالخيط ولا تلتزم بالوعد، وتمارس الجنس مع السعلاة:

"بنلوب
لا تمسك بالخيط،
يفر من بين يديها،

آهٍ،لا تمسك بالوعد!'' [30]
لذا يقرر الشاعر ان يفعل ما فعله اوديب من قبل في تناص واضح مع الميثولوجية الاغريقية ومسرحية ''أوديب ملكاً'' لسوفوكليس، حيث يسمل عينيه ويسير بدون غاية :
''سملت عينيّ
وأطلقت عنان رغبتي في ان اسير
بدون غاية، وان أعلق المصير . ''[31]
كما نجد اشارات وإحالات إلى كونديرا في ''خفة الكائن''، والى رموز الاستبداد العربي التي انتهكت كل شئ، والى عازف القيثار، رفيق رحلته الشعري، وأخيراً إلى ابي العلاء الذي لا يفارقه في جميع رحلاته وتجاربه، إلى ان يتوجه لاحقاً عنواناً لأحد دواوينه المتأخرة ''ليل أبي العلاء'' الصادر عام 2007.
ويعلن الشاعر مراراً عن ضجره من ارتداء الأقنعة المزورة التي تتنافى مع شخصيته وصفاء روحه، كما هو الحال في قصيدة ''في هذه المدينة النائية '' :
''يثقلني الزخرف في تاجي
أنا الفضلة في محرقة التاريخ،
كم يثقلني هذا القناع '' [32]
انه يعبر عن امتعاضه لإدمان هذه الأقنعة:
''أدمنت قناعاً منذ سنين .
عطرت الجسد برائحة التنين
الفت الأضداد بتكويني،
وخرجت .'' [33]
وفي قصيدة ''إني الشيخ الهرم'' يتقمص الشاعر قناع شيخ هرم ليقدم لنا حكمته اليائسة :
''اني الشيخ الهرم، أضعت السمع
ولاحت صفرة آخرتي في أظفاري
أفزعت مرايا بيتي من وجهي المسروق
وأطلق نداءً '' [34]
وتقترن لعبة ارتداء الأقنعة أحياناً بظهور شخصية القرين، الصورة الاخرى لذات الشاعر، أو وجهه الأخر الخفي والملازم له: ففي قصيدة'' الليل '' :
''هو الذي أسرني وكنت في انتظار
آخر باص الليل .
يهملني، ويستدير خفية اليّ .
ينتشل التساؤل الأخرس من عيني من عيني
ويمضي،
اتبعه،
اتبع صوت الرعد فيّ وعطفه المبتل .'' [35]
ويتكرر ظهور ''القرين ''في الكثير من القصائد التي تتخذ احيانا بنية سردية أو مونولوجية أو حوارية كما هو الحال في قصيدة ''يا بديلي :
''ايها الشاحب النحيل،
يابديلي،
يكفيك هذه القليل
من بقايا درب نحاوله وثباً
وافق نرتاب فيما يقول . ''[36]
وفي هذه المزاوجة بين ما هو فلسفي وشيئي، ظلت العزلة والكآبة والموت والوحدة رفيقة الشاعر في تأملاته :
''اقترح العزلة تسكنها،
في منأى عن أهوائك
والموت تعانقه طي ردائك '' [37(
لكن الهم السياسي، لا يبهت نهائيا في هذه التأملات الروحية والفلسفية . ففي ''حكاية مألوفة ''يكشف الشاعر عن وجه الاستبداد ورمزه، القائد الذي أصبح سيافاً في ظل الدكتاتورية :
''لكن الدنيا شحذت أكثر من سيف
فالآخر سيف
والكلمة سيف
والوطن تعالى سيفاً فوق رقاب الناس

وتعالى القائد سيافاً . ” [38]
وهو يكرر هذا الموقف السياسي والثقافي للشاعر العربي عموماً، في قصيدة ”لمسة شاعر“ حيث يحس الشاعر بالعجز وهو يشاهد ”طابور جند ومصفحات ”العلامة المميزة للوطن العربي :
”أي معنى يبعث المشهد بي :
طابور جند ومصفحات،
تبعث في الأرض دخاناً،
شارد أبحث عن آخر سقاء بمراكش. ”[39]
وتحتل ”قارات الأوبئة ”وهي من طراز القصيدة / الديوان مكانة خاصة في تجربة الشاعر، لأنها تمثل سيرة ذاتية للشاعر في قصيدة مقطعية مطولة تتكون من سبعة فصول، وتذكرنا بقصيدة الشاعر الفرنسي ارتور رامبو ”فصل في الجحيم ”، حيث تأخذ قصيدة فوزي كريم منحىً سردياً خطياً تصاعدياً، وتأملياً عميقاً. فبعد ان يمهد الشاعر بمشهد وصفي لحركة الحياة، وعالم الأسرة يؤشر نقطة البداية والميلاد :
”في ذاك اليوم ولدت. ابي يحتاط من ا لفيضان
وأمي في الغيبوبة . والحرب الكبرى توشك أن
تتوقف فوق المفترق الواسع للزمن المتردي.“ [40]
حيث نجد في هذا المقطع إشارات وإحالات تاريخية وحضارية واضحة تومئ إلى المكان والزمان، حيث ولد الشاعر في بغداد عام 1945، بينما كانت مدافع الحرب العالمية الثانية تخفت تدريجياً . لكن الشاعر لا يقدم لنا وقائع وتواريخ وانما يقدم مشاهد شعرية وسردية دالة تتوقف عند محطات من تاريخ الشاعر الشخصي، لكنها في النهاية تمثل سيرة لتاريخ المجتمع العراقي ولشخصيه الفرد العراقي عبر ما يقارب من نصف قرن، حيث تبدأ تجربته بالشعر والحياة والموقف في ستينيات القرن الماضي، وحيث تتشكل خياراته الأولى :
”ولذا لم أؤخذ بالصوفي، صديقي،
في مقهى إبراهيم
لم أؤخذ بشعار الثوري، صديقي، من اجل المبدأ. ”
وفي الفصل الثالث من هذه القصيدة / الديوان يحاور الشاعر جلجامش المتنكر بقناع الحاضر الذي يقدم حكمته ورؤيته للحاضر العراقي :
”يخرج إلى دجلة وعلى الرصيف يبصر كلكامش متنكرا .
ما حلّ على هذه الأرض يحل ثانية وثالثة . ” [42]
ويكشف لنا الشاعر عن محنته ومنفاه الاختياري لتستقبله مدن المنفى وهو يطوي المسافات من قارات الإنسان إلى قارات الاوبئة :
”نهلل إلى الكالح الذي يلي الألوان،
من قارات الإنسان
إلى قارات الأوبئة . ”[43]
وفي لندن، منفاه الثلجي، يحتار الشاعر بين الانتساب إلى الأبدية، وظل الوقت :
”منسوب أنت لظل الوقت، وظلك للأبدية منسوب
ياهذا أيهما تختار . ” [44]
ويرسم لنا الشاعر سيرة يوم احد لندني حيث المقاهي مقفلة، ولا احد من الحجاب يكترث لشاعر يكتب شعراً ميتافيزيقياً فيضطر إلى ان يشرب نخب بلاد سيئة الطالع، ونظام مستبد يذيب أجساد أصدقائه بحامض الاسيد:
”سأشرب نخب بلاد سيئة الطالع
بيت في الكرخ توارى عن نظر الأيام،

صديق ذُوب في حوض الاسيد .''[45]
وفي ''الأغنية الأخيرة ''من هذه القصيدة / الديوان يعلن الشاعر قراره بالعودة الى الوطن وربما الي حبيبة ما قد تكون واقعية أو تخيلية، ''في حركة رمزية دالة :

''سأعود إليك وانشب أظفاري في إحزانك
واحنّي الكف بأطيافك
وأقول هنا
تسكرني قهوتك المرة
يسكرني الأمل،
ولو مرة .''[46]

على الرغم من ان ديوان ''مكائد آدم ''الصغير المكتوب في نهاية الثمانينات ومطلع التسعينات، هو مجموعة قصائد متنوعة، لا تشكل قصيدة ''مكائد ادم ''الا إحداها، لكن الديوان يحمل معاناة آدم الشاعر الإشكالي المعاصر، وهو يقف في قصيدة قناع أمام خاتمة عقد الثمانينات ليراجع حسابات العمر والحياة والسياسة في نبرة من التفلسف العفوي :

''أي أجره سنوات الثمانين
قارات قتلى،
ومطحنة للقتال .
أي خارطة في جبين المهجّر
جمجمة للمجاعة .''[47]

وهكذا من قارات القتلى إلى قارات الأوبئة تتحرك رؤيا الشاعر ونبوءة العصر، وليس أمام الشاعر سوى اقتناص اللحظة الخاسرة، وعزلة القصيدة :

''يكتفي الشاعر باللحظة الخاسرة حين تفلت من زمن الآخرين
القصيدة منفى وأنت تفتش عن عزلة القصيدة .''[48]

ويكشف الديوان عن مجموعة الأقنعة البشرية الأنثوية والذكورية، والشيئية التي تتأنسن وتتشخصن Personified مثل تقمص قناع القوس في الآلة الموسيقية الوترية في قصيدة ''القوس ''التي كتبها من وحي موسيقى باخ :

''إنني القوس،
منحنياً فوق آلتك الوترية،
استجيب إلى ما يكررني،
أتردد في كل تفصيلة أو ثنية
وكأني أعيد الزمان
دوائر،في جسد الآلة الخشبية،
ثم أطلقها من شباكي إلى الأبدية .''[49]

وكما يفعل عندما يتقمص قناع (ديموزي) الميثولوجي في الأساطير السومرية ونبوءاته عن الحياة والعصر وألواح سومر :

''ليس لوح غريق
من الطين، تنهيدة وعزاء لبعضي،
ومثواه ارضي
لسومر هذا الطريق .'' [50]

وفي ''قصيدة الحان الزجاجي ''يتقمص الشاعر قناع شيخ أضر به دخان مرافئ المدن الكبيرة, ويدعو إلى مائدته ليلاً حشداً من الخلان والضيوف الخياليين الذين يأتون ويمضون خفافاً :

''في الأنفاق والمنحدرات
شهداء وسمو الحاضر بالنزف الملح
واقاموا مائدتي بالندماء
ومضوا في أول الفجر كما جاءوا .. خفافاً .''
[51]

وتتضمن هذه القصيدة مقاطع من القصيدة المدورة، التي عرف بها الشاعر حسب الشيخ جعفر، التي لا تتوقف في نهاية السطر، بل تنساب متراصة، مترابطة، مشدودة الإيقاع والتسارع :

”ينبسط التاريخ على الأفق كطيور الخريف . وأنا أصغي على حافة تنور الخبز وساقاي داخل الفوهة الدافئة، إلى ما يعتمل داخل أحشاء هذه الدنيا . “ (52)

وتزداد تجربة الشاعر فوزي كريم الشعرية صفاءً ونصوعاً، وتصبح قصائده إيقونات كرستالية تنمو بوعي نحو العالمية من خلال الاهتمام بالبنية المجازية والاستعارية، وعبر ملامسة حالات إنسانية شاملة، وبلغة اقرب ما تكون إلى قصيدة النثر، مع انها تحافظ على البنية الإيقاعية والوزنية لقصيدة التفعيلة، وبعض مستويات التقفية المحدودة . ويمكن ان نلمس ذلك بشكل خاص في تجاربه الشعرية منذ مطلع الألفية الثالثة وبشكل خاص في ديوانيه ”ليل ابي العلاء ”الصادر عام 2007 و”الربع الخالي“ الصادر عام 2014 .

ومع ان ديوان ”ليل أبي العلاء ”ليس قصيدة واحدة، وإنما هو مجموعة قصائد تضم قصيدة بهذا الاسم، الا إننا نكتشف بان رؤيا الشاعر ابي العلاء، بوصفه الشاعر الأثير لدى فوزي كريم، تظل مهيمنة وواضحة في مناخ التجربة الشعرية. ويتمثل هذا المنحى في العتبة النصية الشعرية التي صدر بها الشاعر ديوانه، والمقتبسة من شعر ابي العلاء والتي يتردد صداها في أكثر من قصيدة :

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم

وهذا البيت، كما هو واضح، يضعنا في قلب مشكلة أبي العلاء رهين المحبسين، حيث يسود العماء والظلام كل شئ، وتعم الفوضى والصدام والعبثية، في هذا الديوان يتخذ التفلسف منحنىً تأملياً حزيناً، وحساسيةً مفرطة تجاه الأشياء والموجودات، حيث يشعر الشاعر بان ابي العلاء، في لحظة خاطفة، كان يملي عليه، ما يملي عليه في الظلام، فأصبح الشاعر فوزي كريم وسيطا بين عصرين وشاعرين :

”هل تراها لحظة استكانتي
للزمن المفرغ من عقارب الساعة،
ام فاغرة الفم مدى الزمان
ام انها تقليب أوراق كتاب بين عصرين : ابي العلاء
وعصري . “(55)

ويتكرر صوت المعري، عبر تناصات وإحالات أخرى في قصيدة ”عازف قيثارة الحي “ :

”نحن غرقى، تذكرت صوت المعري
مرَّ بابهامه فوق سطح الوتر،
بارداً مثلما يعبر الماء ضوء القمر،
فتردد كالريح في قبو بيت المعري :
”في لجتين من الحندس والبيد . “(56)

وهكذا يبدو فوزي كريم في مطلع القرن الواحد والعشرين ممزقاً يفتقد قدرة التطابق مع ذاته والعصر ، ومتشبهاً بالملك أوديب بعد أن سمل عينيه:

”جاء القرن الواحد والعشرين، وجئت معه
منتزع الهمة، لا أتطابق .
عكازي في يمناي، واعمى كالملك اوديب . “(57)

وفوزي كريم الذي يتحول إلى راء يرى ما لا يراه الآخرون , ربما مثل جلجامش، كما هو الحال في قصيدة ”الرائي“ :

”لكن بي، أيضا، ولع الرائي ان انتزع الصور الخاطفة
من سطح الماء وأحفظها في ذاكرتي . (58)“

والديوان حافل بمستويات التناص من الشعر العربي الكلاسيكي، والشعر العالمي ومن الميثولوجيا الإنسانية بشكل عام . فهو يقيم

تناصا مع معلقة الشاعر الحارث بن حلزة في "تنويع على اجمعوا أمرهم " [59] ويعيد صياغة مقولة ت. س .اليوت الذي يقيس حياته بعدد أقداح القهوة التي يحتسيها :

"لا أزن الوقت بغير لفافات التبغ." [60]

كما يقيم تناصات حوارية مع الموروث الغنائي والميثولوجي الهندي في قصيدة النثر الوحيدة التي ضمها الديوان والتي تحمل اسم "بهايرافي دادرا "والتي نجد فيها تناصًا أخر من قصة للقاص أو هنري حول الورقة التي رسمها الرسام بديلاً عن الورقة التي سقطت :

"عصفور ارتضى السقوط ميتاً، فانتشلته فرشة رسام وسط المسافة بين الغصن والأرض." [61]

إما ديوان "الربع الخالي "وهو احدث دواوين الشاعر، فهو إدانة لعقم الحياة القاحلة ويبابها، تذكرنا بهجاء الشاعر ت . س . اليوت المعروف للعصر في قصيدة "الأرض اليباب "، حيث يمثل الربع الخالي في الموروث العربي، أرضاً يباباً لا حياة فيها، كما هو الحال في القصيدة التي يحمل الديوان اسمها "الربع الخالي" :

"بي شخص ثان يحلو لي ان أقحمه
في ربعي الخالي،
إذْ ينتصف الليل .
والربع الخالي كثبان، ريح وسراب." [62]

ويوظف الشاعر بنية القصيدة المدورة في بعض مقاطع القصيدة الطويلة ويؤكد فيها انتماءه العميق إلى الشعر والرسم والموسيقى والتي تعجز عن تصفية حسابه مع التاريخ :

"مدن تتزاحم في داخلي أكثر عدداً من مدن أوربا، لا أشعر ان الوقت يكفي لمتابعة أزقتها التي لا تعرف نشازاً او انسجاماً، لا الشعر، لا الرسم، لا الموسيقى أكثر وفاءً من حلمي في تصفية الحساب مع التاريخ. "[63]

ويظل صوت ابي العلاء عالياً في هذا الديوان أيضاً، وسط يباب العالم حيث يستنجد الشاعر بكلكامش في قصيدته "في ظل كلكامش " وكأنه يحاول إعادة صياغة سيرة الملحمة من زاوية جديدة يزاوج فيها بين رؤية جلجامش التاريخية ورؤيا الشاعر المعاصرة في ديوان "ليل ابي العلاء ". في قصيدة "في ظل كلكامش "نجد توظيفا سردياً وملحمياً واضحاً في اثناء تقمص قناع كلكامش الميثولوجي حيث يطل انكيدو وقد أقام علاقة روحية مع صديقه كلكامش الذي رثاه بحزن بعد موته :

"أقول
بوركت أخي في رحم العزلة .
بوركت في اقتسامك الكاس معي على ضفاف دجلة .
أسرتني، وكنت كفواً، ثم قدتني
إلى مرايا موتك المبارك [64]

لكن الشاعر يقتحم هذا العالم الميثولوجي ويتوحد معه، حيث يطل صوته عندما يخلو مع نفسه في مشرب "غارديني "في بغداد: [65]

ولذا يظل منتدباً نفسه لرثاء صديقه انكيدو:

"ترحل أنت، وأنا
مدخَر لندبك . "[66]

وعلى الرغم من انهماك الشاعر شبه الكلي بهموم كونية وجمالية في هذه المرحلة الأخيرة، والخفوت النسبي لمحنة الوطن، لكنه لا ينسى ذلك تماماً، اذْ تمثل قصيدته "حي العامل "المكتوبة عام 2011 إدانة شعرية للإرهاب ولعبواته الناسفة التي لا تراعي المحرمات والمقدسات :

"طرقات محلتنا

حرثتها عثرات المارة، والعبوات الناسفة،
حتى وارت قبر أبي . "[67]

السياحة النقدية في تجربة الشاعر فوزي كريم الممتدة منذ الستينات من القرن حتى اليوم، والتي تزيد على النصف قرن هي متعة روحية وقرائية من نوع خاص، وهي أيضاً رحلة تعرّف إلى شاعر تتوحد فيه القصيدة والسلوك والممارسة، وهي حالة كان الشاعر يتغياها، حتى لتشعر أحياناً بالتطابق بين الشاعر والقصيدة، وهي حالة نادرة في شعرنا الحديث .

لقد كشفت هذه الرحلة الشعرية عن نضج أدوات الشاعر اللغوية والبلاغية والأسلوبية، فضلا عن تطور رؤيته وانتقاله من الانهماك في معاينة الحسي والشيئي والملموس إلى ما هو فلسفي وذهني، ولكن دونما انفصال عما هو محسوس وعيني . فقد طرأت تغيرات جوهرية في اللغة الشعرية التي كان يعتمدها الشاعر في بداياته، وهي لغة رؤيوية ادونيسية في الغالب، في معجمها واخيلتها و صياغتها، وكانت القاسم المشترك بين لغات معظم شعراء الستينات المعروفين، وفي وقدمتهم شعراء "البيان الشعري " الأربعة، ومنهم طبعا الشاعر فوزي كريم . لكن الشاعر حاول ان يخلق لغته الشعرية الخاصة به، وينأى عن المطابقة مع الآخرين . واذا ما كان ديوان الشاعر الأول والثاني "حيث تبدأ الأشياء "و "ارفع يدي احتجاجا "يمثلان تلك اللغة الشعرية الرؤيوية الادونيسية، فان بعض قصائد ديوانه الثالث "جنون من حجر " [68] الصادر عام 1977 قد أشرت بوضوح هذه النقلة الخاصة كما هو الحال في قصيدته "حسين مروان "التي كتبها 1972 التي رثى فيها الشاعر حسين مردان، قبيل رحيله. فهي قصيدة مركبة تزاوج بين قصيدة القناع والسرد البالادي الحكائي والخطاب و المونولوغ :

"ياحسين مردان
كيف تركت الباب مفتوحاً
والليل لم يبدأ، وكان السر مفضوحاً." [69]

لكن الشاعر لم يفارق نهائياً لغته الاولى، التي لم تكن آنذاك بعيدة عن اللغة الادونيسية، التي ظلت ترافقه وتمنحه أحياناً رقةً و رواءً وماء ً،كما هو الحال في قصيدة "تجاوز "

"لقد كنت وحدك، والأرض دارت
فدرت
وها أنت تسكنهم، واحداً، واحدا." [70]

كان فوزي كريم يكتب بتلقائية ذاتية، بعيدا عن ملاحقة موجات التجريب المتطرفة . كان يكتب من داخل تجربته الشخصية المتماهية إلى حد كبير مع ذاته وهواجسه وهمومه وقلقه ورؤيته الكونية . وقد دعا الشاعر فوزي كريم في الكثير من دراساته النقدية وبشكل خاص في كتابه "ثياب الإمبراطور" : الشعر ومرايا الحداثة الخادعة " [71] الصادر عام 2000 إلى عدم الانجرار إلى الكثير من الأوهام التي ترتبط بحركة الحداثة الشعرية، وهو ما سبق للشاعر ادونيس وان حذر منه في احد كتبه النقدية . ومع ان الشاعر فوزي كريم يدعو إلى الابتعاد عن بعض أوهام الحداثة، حتى ليبدو للبعض انه ضد مشروع الحداثة وما بعد الحداثة في التجربة الشعرية العربية، وانه لم ينجح في عبور الفجوة التي تفصله عن جوهر الفعل الشعري الحداثي وما بعد الحداثي، وظل متعلقاً بكشوفات القصيدة الخمسينية، وبشكل خاص عند السياب، الا اننا لا يمكن ان نعزل تجربة فوزي كريم عن الموجة الثانية في حركة الحداثة الشعرية العربية في الستينات، لكنه اختار ان يكيف شروط هذه

الموجة وشعاراتها لتجربته الشخصية ولرؤيته الفلسفية لاحقاً، وتجنب الاندفاع اكثر مما هو ضروري مع الموجة المتطرفة التي اختارت التجريب الشكلاني واللغوي والبلاغي طريقاً لها. والشاعر يعترف بان "كتابة قصيدة غير حداثية تبدو بالقياس المنطقي اكثر ملائمة وتطابقا مع طبعي، ومع المرحلة التي انتسب اليها ."[72]

وفي أكثر من مناسبة عبر الشاعر فوزي كريم عن قناعته بوجود" هوة بين الشعر كصناعة أدبية، وبين خبرة الشاعر الروحية "[73] وفي متابعة الشاعر الناقد فوزي كريم لمراحل تطور الكتابة الشعرية عند ادونيس من انموذج قصيدة "النخيل انحنى" المبكرة في ديوان "أغاني مهيار الدمشقي" إلى نموذج اكثر تعقيداً وتفلسفاً وشكليةً المتمثل في "كتاب الحصار "حيث يقول أدونيس:

"دمه يقطر الآن من وردة الفضاء
من حروف النحاسي ومن كلمات الحديد
وموعظة الكيمياء ." [74]

هذه المقارنة، كما لاحظنا تنطبق إلى حد كبير على تطور الرؤيا الشعرية عند فوزي كريم من قصيدة :

"لقد كنت وحدك والأرض دارت
فدرت "

التي أتينا على ذكرها إلى أنموذج قصيدته عن حسين مردان أو إلى النماذج المتقدمة في تجربته الشعرية في اغلب قصائد "قارات الأوبئة" و "قصائد من جزيرة مهجورة" و"مكائد آدم " و"ليل ابي العلاء "التي اشرنا إليها سابقاً . كما ذهب فوزي كريم إلى النظر إلى الحداثة بوصفها صفة انتساب لعصر، وليست كمعيار للقيمة لصلاحية القصيدة وجودتها . [75]

ويتهم فوزي كريم الشاعر الحداثي بالانشغال بالشكل على حساب خصوصية التجربة. وشخصياً أعتقد ان اهتمام الشاعر هذا كان منصبا على الصنعة الشعرية، وليس على الشكل الذي هو بنية تجريدية لا يمكن فصلها عن التجربة أو المعنى أو الدلالة .

وفي ضوء هذا التصور الشامل يمكن فهم جوهر تجربة فوزي كريم الشعرية التي حاولت ان تجسر الفجوة أو "الهوة "بين النص الشعري وخبرة الشاعر الداخلية " [76] التي عاد لتوكيدها في كتابه "تهافت الستيني: أهواء المثقف ومخاطر الفعل السياسي" [77]، والذي كشف فيه بصورة غير مباشرة عن سبب صدوده عن قصيدة النثر – الا ما ندر – من خلال اتهامه لمعظم شعراء قصيدة النثر بأنهم لا يحسنون كتابة البيت الشعري الموزون ومنهم محمد الماغوط وانسي الحاج وتوفيق صائغ [78] وأنهم يفتقرون "إلى اخطر ترابط غامض بين الثلاثي: العاطفة، الكلمة، الموسيقى. [79] وهذا الموقف يفسر لنا سر التزام الشاعر فوزي كريم بقصيدة التفعيلة التي يقدم اعتراضات وجيهة ونقدية عليها، وهو على حق في ذلك على تسميتها بـ "الشعر الحر" [80] وحرصه على ان تمتلك قصائده بنية إيقاعية داخلية، وخارجية متمثلة في الالتزام النسبي بالوزن وتنوعه.

فوزي كريم صوت متميز، وله خصوصيته الرؤيوية، ومجساته الشخصية التي يتعامل فيها مع العالم والكون والحياة، ويلتقط بمهارة اشياء العالم المرئية ومدركاته الذهنية ليحيلها إلى أيقونات شعرية متوهجة تضج بقلق إبداعي خاص وبرغبة في تحقيق درجة أعلى من التماهي بين التجربة الشعرية والحياتية وبين النص الشعري .

الهوامش:

1 - كريم، فوزي « حيث تبدأ الأشياء « ضمن « الأعمال الشعرية الكاملة « (الجزء الثاني) ص 203 – 207 ، منشورات (المدى) ، دمشق ، 2001 .
2 - كريم ، فوزي « آخر الغجر « شعر ، منشورات (المدى) لبنان ، دمشق ، بغداد ، 2005 ، ص 45 .
3 - المصدر السابق ، ص 47 .
4 - المصدر السابق ، ص 45 .
5 - المصدر السابق ن ص 73 .
6 - كريم ، فوزي « السنوات اللقيطة « ، دار المدى ، دمشق ، بيروت ، 2003 .
7 - المصدر السابق ص 5.
8 - المصدر السابق ، ص 15 .
9 - المصدر السابق ، ص 13
10 - المصدر السابق ، ص 31.
11 - المصدر السابق ، ص 26 .
12 - المصدر السابق ، ص 7 .
13 - المصدر السابق ، ص 17 .
14 - كريم ، فوزي ، «آخر الغجر « ص 84 .
15 - كريم ، فوزي « أرفع يدي احتجاجاً « شعر ، منشورات دار العودة ، بيروت ، 1973 ، ص 86 .
16 - كريم فوزي ، السنوات اللقيطة « ص 17 .
17 - كريم ، فوزي « حيث تبدأ الأشياء « ضمن الأعمال الشعرية « (ج 2) ص 256 .
18 - السياب ، بدر شاكر « ديوان بدر شاكر السياب « منشورات دار العودة ، بيروت ، 1971 ، ص 477 .
19 - العزاوي ، فاضل « الروح الحية – جيل الستينات في العراق « منشورات المدى ، دمشق ، بيروت (ط2) 2003 ص 318 .
20 - ثامر ، فاضل « معالم جديدة في أدبنا المعاصر « منشورات وزارة الأعلام ، بغداد ، 1975 ص 209 – 221.
21 - المصدر السابق ، ص 209 .
22 - المصدر السابق ، ص 211 .
23 - ثامر، فاضل « اللغة الثانية : في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث « – منشورات المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ص -26 27 .
24 - كريم ، فوزي « الأعمال الشعرية « الجزء الثاني ، ص 259 .
25 - المصدر السابق ، ص 197 .
26 - المصدر السابق ، ص 19 .
27 - كريم , فوزي « الأعمال الشعرية « ص 113.
28 - المصدر السابق ، ص 25 .
29 - المصدر السابق ، ص 102 .
30 - المصدر السابق ص103 .
31 - المصدر السابق ، ص 104
32 - المصدر السابق ، ص 84 .
33 - المصدر السابق ، ص 37 .
34 - المصدر السابق ، ص 54.
35 - المصدر السابق ، ص 34.
36 - المصدر السابق ، ص 41 .
37 - المصدر السابق ، ص 26.
38 - المصدر السابق ، ص 64.
39 - المصدر السابق ، ص 188.
40 - المصدر السابق ، ص 200.
41 - المصدر السابق ص 203.

42 - المصدر السابق ، ص 217.
43 - المصدر السابق ، ص 232.
44 - المصدر السابق ، ص 236.
45 - المصدر السابق ، ص 239.
46 - المصدر السابق ، ص 255.
47 - المصدر السابق ، ص 315 .
48 - المصدر السابق ، ص 317 .
49 - المصدر السابق ، ص 265 .
50 - المصدر السابق ، ص 289 .
51 - المصدر السابق ، ص 279.
52 - المصدر السابق ، ص 276.
53 - كريم فوزي ، «ليل أبي العلاء « منشورات «المدى – دمشق ، 2014 .
54 - كريم , فوزي ، «الربع الخالي « منشورات «المدى « - دمشق ، 2014 .
55 - كريم ، فوزي «ليل أبي العلاء « – ص 69 .
56 - المصدر السابق ، ص 35 .
57 - المصدر السابق ، ص 116 .
58 - المصدر السابق ، ص 29 .
59 - المصدر السابق ، ص 25 26- .المصدر السابق ، ص 54 .
60 - المصدر السابق ، ص 63 .
61 - كريم ، فوزي « الربع الخالي « ص 32 .
62 - المصدر السابق ص 28.
63 - المصدر السابق ص -85 86.
64 - المصدر السابق ، ص 86.
65 - المصدر السابق ، ص 88 .
66 - المصدر السابق ، ص 22 .
67 - كريم ، فوزي « جنون من حجر « ص 21 .
68 - المصدر السابق ، ص .37.
69 - المصدر السابق ، ص 11 .
70 - كريم , فوزي «ثياب الإمبراطور: الشعر ومرايا الحداثة الخادعة» منشورات (المدى)، دمشق، 2000، ص 12 .
71 - المصدر السابق ص 12.
72 - المصدر السابق ، ص 16.
73 - المصدر السابق ، ص -18 19.
74 - المصدر السابق ، ص 24 .
75 - كريم ، فوزي ، «تهافت الستينيين : أهواء المثقف ومخاطر الفعل السياسي» منشورات «المدى» دمشق ، 2006 ، ص 5.
76 - المصدر السابق.
77 - المصدر السابق ، ص 123 .
78 - المصدر السابق 124.
79 - المصدر السابق ص 104
80 - المصدر السابق. .

رماد يحيى الشيخ ... سيرة التأمل والتغير

جاسم عاصي

تمهيد:

منذ مطالعتي لديوان شاعر العرب الأكبر (محمد مهدي الجواهري / خطوات في الغربة) وأنا مشغول بما احتوته صفحات الديوان من لوحات بالأسوّد الطاغي. كانت تمثل قامة رجل (مُغادِر) أو (مطرود) عن مجاله. شغلتني كثيراً حالته، فالقامة تبتعد، وما أن تغادر أكثر حتى تصغّر، وهو مألوف في المعنى الفني. لكن الذي أثار مشغوليتي، ما تتركه قدماه من أثر على الأرض. وهي أيضاً بالأسوّد الطاغي. وهذا الأثر دفعني إلى المعنى الفلسفي والوجودي الذي يوحي بالطرد المبكر عن الوجود. ولأن تقارب ـ أفترضه ـ حاصل بين معرفة الشيخ السياسية والاجتماعية، وما أنا عليه آنذاك من معرفة وانتماء. يتلخص بنتائجه المتمظهرة بالطرد عن المجال، تفعّله وتنفّذه ثقافة طاردة نقيضة. فالسيرة تناغمت ـ وهذا اعتراف واضح منيّ ـ مع ما عشت. ولعل هذا يكون لصالح ما كتبه (يحيى الشيخ) من سيرة، لا تخصه لذاته فقط، بل أنه كتب سيّرنا جميعاً، أي تبنى مشروعاً كبيراً يخص التاريخ،لأنه جزء من الجماعة أولاً، وما تحلّت به كتابته من البساطة العميقة الدلالة التي كتب بها السيرة ثانياً. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ؛ أنه استدعى محبيّه من الفنانين، وهم أحبّة لي ولنا جميعاً، سيرتي من سيرتهم، وتاريخنا من تاريخهم. من هذا كانت قراءتي الأولى لـ (سيرة الرماد) قراءة تعرّف. وفي الثانية، تقليب الصفحات التي غادرتها القراءة الأولى. أي أنها تعني كوّنها بمثابة عامل استفزاز لذائقتي المعرفية، وأكَدَتْ على ضرورة الاستذكار عاطفياً، وتوفير امكانية التحاور المعرفي مع بنود السيرة ثالثاً ورابعاً. لذا ستكون قراءتي لها ذات بُعد تحاوري. أي العمل على الإضافة لها قدر ما تمليه عليّ ذاكرتي وحسّي الإنساني. وهذا دليل قاطع على حيوية مجالاتها الحياتية والمعرفية، لأنها كما ذكرت تلخيص لسيّرنا جميعاً. فما عنده دليل إثارة لأسئلتي بما يُحقق الاضافة من جهة. ومن جهة أخرى أنها إضافة لمعارفي عن حقبة عشتها بدقة شأني شأن كل من طُرد من مجاله لأسباب يعرفها الجميع، محصورة في الفهم الخطأ للاختلاف وحصره في الخلاف الذي يولّد الضغينة والكره والطرد. لكن بودي أن أهمس قبل أن أشرع بالمداخلات مع السيرة وأقول: يا يحيى أنت أمسكت الكتاب بقوة، وتلك حسَنة كبيرة تضاف لتاريخك وفهمك لمعنى الوصايا وتنفيذها. ونحن أمسكنا بالكتاب وما زلنا نُمسك به، ونقلّب أوجه صفحاته بنفس القوة التي أنت عليها، ونردد كما رددت

على مسامع الشاعر(هادي الربيعي) لحظة تعرّفي عليه أنا المطرود من مجالي (مدينة الناصرية) نحو مدينة كربلاء المقدسة، وهو المطرود من مدينته بعقوبة. وهذا حدث في منتصف سبعينيات القرن الماضي حيث قلت له: نحن غريبات ها هنا، وكل غريب للغريب نسيب... ابتسم لقولي بمرارة، ولم يفارقني إلى أن هيمن شبح الموت على وجوده فاستله من مجالي، أبعده بكل حيويته الباهرة.

سيرة الرماد... تاريخ معلّن

السيرة منسوبة إلى وجود الفنان وتاريخه، التاريخ الذي أتت عليه السيرة في نوع من تشخيص مراحل التغيير في ممارساته الفنية، كذلك في منجزه المتقطع زماناً، لكنه المتطبع على اغناء التجربة كما عكست سطور السيرة. لاسيّما التجوال وتحوّلات الأمكنة. مما وضعها ضمن دائرة دلالة المعنى العميق في النظر إلى الفن باعتباره يشكّل سيرة المعرفة المطلقة. لذا وعلى وفق المفردة التي هي توصيف للسيرة (الرماد) تعني في ما تعنيه مجازياً. الرماد الذي باغتني أيضاً وأنا أحرر كتابي عن الروائي (مؤنس الرزاز/ المعنى المضمر) فوضعت عبارتي في صدر الصفحة الأولى والقائلة (أنا جمرة كلما نفخت فيها اتقدت) وهنا أعني أولاً ازاحة الرماد الذي يخبئ وهجاً، ثم ما تعنيه معاني رواياته في كوّنها تمتلك ظاهر وباطن (مضمر)، يتوجب البحث فيه. وهذا ما أجده في رماد (يحيى الشيخ) من خلال سيرته هذه. فالرماد الذي يعنيه، قد أظهر ما لم تسجّله ذاكرة التاريخ. ولكي لا يبقيها شفاهياً وضعها موضع المعرفة المدوّنة. وكان لفعله هذا مقاربة مع فعل النفخ في رماد الموقد. ذلك لأن الذي كتبه مجتزأ من سيرتهم معه، توجب الأخذ بها باعتبارها مصدر تحقيق سيرتهم من جهة، ومعرفة تُثير ما ضمر من معرفة. أي أنها تؤسس لأسئلة ممكّنة، تنطلق من داخلها (المضمر ـ المُعلن)من هذا اعتبرت السيرة تمتلك مفاتيح معرفية كما ذكرت، يمكن بواسطتها فك لغز ما هو مضمر في الحياة، فما علينا إلا أن نأخذ المفتاح بقوة، كما أخذ الشيخ الكتاب بقوة.يحيى الشيخ من منطلق (الرماد) اتبع توصيفاً دالاً على القدرة الذاتية. فهو رماد ينطوي على ممارسات أفضت بها عملية التأليف لفصولها (النفخ في الرماد) فأتت على شكل نصوص في نص، يُثير المخيّلة، والقدرة على التذكّر. ولعل التعلق خلال السيرة بـ (البيت، المعبد، النهر، البستان، الأم، العُشب) دليل على نفض كاهل ثقل الرماد الذي تُخلفه الأزمنة. فلهذه المواقع وقعها في نشأة الفنان، وتشكّل أيضاً مصادر وعيه المبكر، خاصة (الأم) وهي جميعاً تعني عوامل التخصيب في الوجود. إن التعلق بالعشب كما سنرى لاحقاً دليل على العوامل الذاتية المتواصلة عند الفنان، لأنه أساساً انحدر من بيئة ريفية إلى المُدن (مدينة العمارة) ثم بغداد إلى خارج الوطن. لذلك نجده يتواصل مع المهمل والمتروك من أجل الصعود به إلى المركز. فالهامش في أعماله كمادة تنفيذ تعكس معاني لها صدارة المركز. كما سنجد ذلك في جمع ريش الطيور، أو احياء نبض الحياة في المتروك من الأشياء وتحويله إلى شكل فني.

السبيل إلى متن الأفكار

تنطوي السيرة ـ إضافة إلى السيرة الحياتية

ـ على سيرة الأفكار. ولهذه الأفكار منطلقات وثوابت فكرية، تتدرج من المعرفة والثقافة العامّة، إلى سبيل المنهج الذي يصوغ الرؤى. ويبدو (الشيخ) في كل ما أورد في هذا الشأن أنه دقيق في ما هو محسوب على بنيته الفكرية، فهو قليل الشطحات، يزن الأمور والتقلبات على وجه الفحص، ولا ينجّر إلى الأهواء، بقدر ما يحتكم إلى العقل. وهو غير مفرط في تبني الأفكار بسهولة، وإنما يتبع التدرج في ما هو منكشف له بالتجربة. كثير العلاقة بمبدعي دربه الفني، لكن له خطوته واجتراحاته. يميل كثيراً لوجه المبتكر وتناسبه، ليس من باب الانصياع للشائع أو ما تنتجه سلطة الآخر، بقدر ما في ذاته احترام تجربة الغيّر وفق احترام تجربته. لذا نجد أفكاره أكثر معقولية ورصانة بما يوازي تجربته في المكان والزمان. فأفكاره ممتزجة برؤاه، ورؤاه منطلقة من مشاهداته، ومشاهداته تعتمد التجربة في المكان. فهو يمكث في المكان، ويكتسب خبرة فيه، تنظّم إلى خبرته. يشكل عنده المكان صيرورة الأشياء، سواء في واقعه اليومي أو في واقع أعماله الفنية كما نراها عبر سطور سيرته. إننا بصدد مسايرة السيرة من منطلقات مرورها بتلك المحطات، التي لم يخترِ لها زمناً متسلسلاً، بل تداخل فيها الحاضر مع الماضي، وفق ما تقتضي قناعاته من وجودها أو عدمه. إنه يُدقق في الأشياء من أجل أن يستقر له حال. ناثراً رواه الفلسفية وفق سليقة ذاتية ترتبط معرفياً برؤى من قرأ لهم، أو تمثل تجربتهم في القول والفعل. لذا سنترك سليقتنا تتدرج بامتصاص ما نوه به كالآتي:

• في العراء؛ عنوان مهم وواسع الرؤى والرؤيا. فالعراء خلاء ومساحات ممتدة، بساطاً أرضياً وفضاء علوياً. منه يمكن صياغة فضاء ذي رؤى راكزه، توسّع المعرفة وتفتح الأفق. لأن العراء مطلق، عراء الصحراء والماء. فهو مجرّد كما يُفترض، يحتمل التجريد والاضافة خلال موجوداته التي تحتكم للانفتاح، فهو مجال ممكن لا دراك اللاممكن. وهذا ما يمنح جدلية الوجود ضمن حقل الرؤى الجديدة، وحصراً في التشكيل، لأنه يُعطي للبُعد والمنظور أكثر من احتمال. فخاصية العراء الذاتية ممكنة الحذف والاضافة. ممكنة اشتقاق الألوان والخطوط الممتدة، والمنكسرة وفق مؤثرات الوجود المادي والطيفي. لذا نرى أن افتتاح السيرة من هذا المطلق، تعني منطلقاً لاستقبال ما هو أكثر معنى، بما يعنيه من محمولات الديالكتيك المعرفي. فكيف بفنان كالشيخ، يعمل على تسطير سيرته وسيرة فنه بروح تاريخ مضطرب ومتغيّر باستمرار؟ سؤال تُجيب عليه مفاصل السيرة. غير أن بالإمكان استغلاله وفق نظرة الشيخ وتوظيفه للرؤى الجديدة. وأقصد بها الرؤى المبدعة. ولعل (في العراء) عنوان يختلف عن عنوان (عراء) مجرد، لأن الأول يعني داخله وضمن نسيجه، بينما الثاني يعني مطلقاً كما البحر والصحراء. العراء يعني الانفتاح باتجاه ما هو غامض ومستتر، لذا فالسير في جادّته ملغوم ومفاجئ. لذا نجده يستخدم صيغة المراجعة:) يُفترض بي أن أعيد تشكيل معرفتي، وأنا أتابع سنيناً مضت، وأسرد حياة لم تعد قائمة)

وفي هذا حساب للزمان والمكان. فهي صحيح سيرة الإنسان في المكان والزمان. لكنها أيضاً سيرة الزمان والمكان ضمن حركة الإنسان. فالعلاقة متبادلة، فكل طرف يُحرك الطرف الآخر بما يمتلكه من خاصيّات ذاتية. إن الفنان ذي السيرة، يتحاور مع الذات في ما هو ممكن

التحقيق. إن الانشطار في رؤى الشخصية الذي سببه المعرفة والحس الكبير، يُغذي تأملات الفنان عبر طرح السؤال وادراك (أني كنت أكثر من واحد عاشوا الزمن ذاته) وهذا افتراض لا يبتعد عن طبيعة الرؤى في المكان، في كوّنه متحقق جدلي حين تحين لحظة المراجعة، بدليل (أهرع إلى المرآة فلا أرى أحداً.) ترى إلى ماذا يُعزي ذلك، إن لم يكن إلى اضطراب الوجود، وفوضى الكوّن المحيط. إنه تعبير شعري على ما أراه للكشف عن مداخلات عابرة لهذه العبارة بدليل السؤال الذي يطرحه (من عاش تلك السنين ؟) إنه سؤال منطوي على هلع التجربة وآثارها الساحقة للإنسان. فالتأمل الوجودي، يعني البحث عن المسببات وسط فوضى الأشياء. لذا توجب أن المكوث في المكان هذا بالرغم من مرارة تأثيراته (هذا يعني أن أبقى حيالها في العراء) ويعني بالهاء تلك المؤثرات التي ساهمت في تشظية الرؤى، والتي خلقت الفوضى. وهي قوى خارج إرادة الإنسان. إن محددات مديات الذاكرة التي ينوي السير وفقها، قد خضعت لجدلية المعرفة، لصياغة ما هو مهم وما هو أهم. لذا نجد خلال مفتتح السيرة (في العراء) مجازاً لتجسيد مثل هذا اللامنطقي في الوجود. إن الشيخ يواجه أسئلة عديدة، لعل أطراف بعضها تتصارع مع أطراف أخرى. ففي وقت يجد أنه فنان وإنسان ملتزم فكرياً، مقابل حاجته كفنان إلى مطلق الأسئلة. هذه الجدلية التي عاشها الشيخ، وفق مدوّنة سيرته، دالّة على الانحياز إلى المتحقق الإبداعي. إذ نجده في مداخلات السيرة، يجنح إلى ظاهرتين؛ الأولى: الانقطاع في الزمن عن الانجاز، وفي الثانية: العوّدة إلى المنجز ولكن بروية يتحكم فيها قانون الإضافة للفن. والذي أوصلنا إلى هذا الاستنتاج ؛ إن تلك المرحلة المفصولة بالانقطاع، لا تحددها قواطع، بقدر ما تحتويها نتائج تشكّل مشروعاً فنياً ضمن ما كان يذكره كخلاصة لهذه الفعالية الفنية أو تلك ؛ أن يضع لها يافطة يُحدد طبيعة المنجز الذي تحدده خواصّ معينة.إن النزوع إلى العراء، يعني محاولة الحلول والبقاء في المطلق. معتمداً في ذلك على جدلية الوجود والحذف والمحو منه (الطرد). فإذا احتكمنا إلى الواقع في التاريخ، نتوقف على أن معظم الخواصّ الذاتية تعرّضت للمحق والمحو. والشيخ واحد ممن يحمل ذاتين غير منفصلتين عن بعض إلا بالنتائج، ذات ملتزمة فكرياً كما ذكرنا وذات تنزع إلى الإبداع الخالص كفنان منطوي على أفكار تخص التغيير والمتغيرات. وفي هذا يحاول أن يتقصّى تجربته في صبر البحث، ويماثله بصبر المنقب الآثاري الذي يمسح التراب عن القطعة الأثرية. لذا فقد افترض على نفسه (أن عليّ إنتاج ذات من طراز آخر. ذات متسامية تُعاين ذاتها القديمة بعدالة، وتُرمم ذاكرة بُترت أطرافها، ونَجتْ بما تبقى. ذات لا تاريخية) هنا نجده يُعدّل من منظوره لما سوف يمارسه في العيش وفق مراجعة ذاتية و(بعدالة) بالنسبة للنظر إلى القديم من عينيّ التاريخ الخاص والعام.أي دونما تطرف قد يوقع المرء بمغبة الارتباك الذي لا يخلف إلا الضياع. هذا من جهة. ومن جهة أخرى نتلمس معاينة إلى ما هو ينزع إلى الترميم. وهنا لابد من الوقفة إزاءه، لأن الترميم يعني اصلاح ما هُدّم. فكيف إذا كان البتر يخص أطراف الذاكرة. فهو لم يخصص طبيعة البتر، بقدر ما ربطه بالزمن وحركته. بمعنى وسط حراك التاريخ، أي سقوط الزمن من القاطرات كثير من الخصائص. لكنها لا تضمحل وتتلاشى،

مازالت ثمة ذات باقية، تُراجع باستمرار. لقد مرّن الفنان الشيخ نفسه على المراجعة. وهذا يعني تلاشي ظاهرة القطع والانزواء. إذ نجده بين مرحلة وأخرى لصيق الجديد من الإبداع، مما يضعنا في حوّار الذات ضمن مختبر التجربة الحارّة، لأن الذاكرة التي فقد أطرافها (نجت بما تبقى) ولا تاريخية الذات هنا تعني ووفق القراءة أنها لا تؤسس لتاريخ ساكن ومتزمت، بل بأكثر حركة وفق منظور البحث عند (فوكو) مثلاً. فالوجود غير محكوم بقوانين صارمة أي (جاهزة !) وإنما قوانين ذاتية متجددة وفق (أنت لا تدخل النهر مرتين.) إن الفنان يعمد إلى تأكيد مسعاه في تجديد الذات، وابعادها عن التقوقع، بدليل التطرق إلى مثل هذه التجربة التي يكرر ذكرها، ونعني بها مراجعة الذات. غير أنه بتعامل بروية جدلية، وليس بقسر صارم. فالذات تحتاج إلى ليونة جدلية، مرتبطة بأحكام تقترب من القوانين، ونعني بها قوانين الذات. فهو القائل:

(كنت أحرق اقتصادي كل مرة، وأُعيد انتاج نفسي، مما تبقى من رماد على نحو شخصي)

في هذه الجُمَل القصيرة كمنت مضامين كبيرة. ففي البدء عنى بحرق الاقتصاد، المعيار المادي للوجود، والاقتصاد مفردة تؤكد كل ما يمتلكه المرء من قيّم، يمكن تعويضها بمثابرة ذاتية. وهذا ما حصل ضمن السيرة الكاملة. وأيضاً ما تواصلت به العبارة من اعادة انتاج النفس خلال الرماد الذي هو عنوان مؤكِد للسيرة، لأنه ثريا الكتاب كما ذكر (محمود عبد الوهاب) وهو فعل يُحقق المعادل الفني من خلال ممارسة شتى أنواع الفعاليات المعرفية، ابتداء من المراجعة وصولاً إلى المتحقق الفني. فالرماد، وكما ذكرنا مراراً في مداخلتنا هذه، تعني الانبعاث والتجدد في الحياة. وهي حركة الوجود وارتباطها برموز الخصب في حضارة وادي الرافدين، متمثلة بظهور الإله (دموزي، تموز) من العالم الأسفل، وظهوره على صورة اخضرار ومباهج الربيع. وهي ذات متعلق بظاهرة الموت والحياة. وما حققته في هذه السيرة بجملة (مَثّلَ هذا " العبث" ضرب من يأس لا ينضب، وإدمان على انتظار وعد آت من بعيد. لم يصل حتى اليوم. قد يكون وصل ولم أنتبه) إن هذا أكد تلازم التجربة مع منطق الأسطورة الرافدينية في الاخصاب والانبعاث. لا سيّما إذا عرفنا أن الشيخ من بيئة زاخرة بالأساطير المائية حصراً، حددتها المواقع والإشانات مثل (حفيظ) والصورة السحرية التي عليها سطوح المياه الممتدة إلى ما لا نهاية. كذلك أعواد البردي والقصب وحيوات الماء في براري الأهوار. وإزاء هذا كان اصراره ممكناً كفنان لا يؤمن إلا بالتحدي والخلق. أي الانبعاث (أنا ذاهب إلى أيامي المقبلة، وأنا أفقر مما كنت. سأستهلك نفسي وأُحرم الدود من وليمة يحلم بها. أُغادر بلا لحم يُنهش، بلا صراخ يُوقد في الظلمات بلا ذاكرة، بلا ألم) إن هذا يتماثل مع نزول (أنكيدو) إلى العالم السفلي، وهو غير مبال بالوصايا التي تحتمها حالة النزول. لذا حُرم من الظهور إلى العالم العلوي، لولا شفاعة الآلهة لـ (جلجامش) فكان الثقب الذي أُحدث في سقف العالم السُفلي دليل على العودة إليه. فالروح هي التي خرجت متلبسة جسد (أنكيدو) من أجل كشف طبيعة الحياة هناك. الغرض من هذا استمرار تواصل معرفة (انكيدو) المؤثرة في حياة (أوروك) والتي أثارت سلطة المعبد فحكمت عليه بالموت. وحسب رأي الباحث (ناجح المعموري /

الاغتيال السياسي) ,اقول الاغتيال الفكري، لأن وجوده في حاضرة أوروك كان عامل حامل لبنية فكرية سابتة خصت البنية الفكرية للحاضرة وخاصة تأثيره على الملك، مما أثار حفيظة رجال المعبد.والتأكيد في قوله (بلا ذاكرة، بلا ألم) يعني قطع الصلة بالمكوّنات الأولى وتأثيرها الذي قد يضبب مسير التجربة الجديدة. لأنه كفنان يحاول أن تأسيس وابتكار مساراً فنياً خاص به، كما أكد مراراً.

ولأنه وُلِد في يوم مبارك، وكما ذكر في أقدس أيام الصابئة المندائيين "أيام الخلق" فقد (تقدمته هيبة طقوس صابئية لأبن من عِرق كهنوتي، نقي لا مراء فيه) وهذ ينطوي على حساب براءة الوجود والنشأة، لأنه عُمّد بالطقس المائي المبارك. ولعل هذا ما لاحق الشخصية ضمن تاريخها الذي تحلى بالصبر واتساع النظرة لتقلبات الأزمنة. فهو نموذج متفرد بين أقرانه ؟. وما طقس القربان الذي اعتاد عليه المسلمون أسوة بمن سبقهم من الصابئة، وهو قربان كسر جرّة الفخار في يوم زكريا أو ما يُطلق عليه المسلمون (المِحيا) ولأنه طفل طاهر، فقد حق له كسر الجرّة قرباناً كما تحتم الديانة الصابئية. هذه المهمات التي أوكلت إلى الشيخ صغيراً انطبعت في ذاكرة الشيخ الرجل. وها هو يُعيد صورتها كما لو أنها تحدث الآن. إن التشبث بمحتويات الذاكرة من هذا النوع، إنما هو عوّد أبدي كما ذكر (مارسيا إلياد) أي العوّدة إلى جذور النشأة حين تحين اللحظة، ويشتّد الموقف. إن اللاوعي مادة خصبة للمبدع، وهي زاد التخصيب للنص. وأرى أن مثل هذا قد أثّرَ على عطاء الفنان الشيخ، فهو وحسب ما توفر في كتاب السيرة من لوّحات، فيه نزوع للتذكر والتجسيد لمفردات تبدو غامضة. غير أنها من بُناة الوعي الكامن (النقش على الحجر) كما ذُكِر. لذا أرى أن ذكر مثل هذه الطقوس المندائية وغيرها يدخل من باب الكشف المتأخر. أي انه كشف عن بنية في زمن نضجت فيه المعرفة، واتسعت الرؤى، فغدا التعامل معها من باب وعي الضرورة التي تقود إلى التوظيف في حقل الإبداع. وهو مقرون ببقية الطقوس، خاصة تلك التي تُقام على ضفاف النهر وفي غمرة مياهه. حيث يؤكد على أنه كان (منذوراً لطقس الذبائح الذي يجري عادة على شاطئ النهر. ساعات طويلة يجري يتم فيها ذبح الطيور للعوائل المؤمنة) تجري هذه الطقوس بشيء من التفصيل كما أستظهرها الشيخ، مقدماً توصيفاً للكاهن وهو يجلس في الماء. لكن الذي يبقى عالقاً في ذاكرته لوّن الماء العكر الذي هو بلوّن الطين. وبشيء من الشعرية يصف امتزاج الدم بلون الطين. هذا التشكّل للوّن الطين دليل على ما قُدِمَ على مرآي من مياه النهر من قرابين زحفت على مساحة التاريخ الميثولوجي منذ القِدَم، فاستحقت التخليد والتجدد كما حدث للنبي إبراهيم في استبدال الذبيحة البشرية بـ (إسماعيل) والاكتفاء بالجزء(0الغثلفة) قرباناً بشرياً. ونعني به طقس الخِتان، حيث يُقطع الجزء ممثلاً للجسد، وتتساقط قطرات الدم دليل النحر. لذا نجد عند الشيخ اقتران قطرات الدم مع لوّن الماء العكر، بما يحوّله إلى مجرى أحمر يجري (صوب نهر أزرق عظيم)

ولعل الحكمة التي تأتي من بعد جريان حدث معاكس للبنية النفسية والبنيوية للإنسان، كانت واحدة من موجودات حساسية الإنسان ـ الفنان، حيث رافقته نضيدة الأفكار منذ نشأته، واستيقظت جرّاء ما كان دافعاً ضمن الواقع الذي يعيشه. فالحساسية متأتيه من التأثير

المباشر الذي يراه المرء خطأ. والشيخ واجه في صباه اغتيال ما هو عزيز عليه. صحيح إن المُغتال هو حيوان، لكن الاعتبار يترتب من قيمة ما حدث، إزاء القيمة الإنسانية. فهو كرجل وفنان تتفعّل صورة الأشياء والأحداث في حياته، لتكون مادة تأخذ حيّزاً من ابداعه. وأرى إن حضور حادث اغتيال الكلب، كان لها الأثر في نفسه، لأنه تعامل معها ضمن حقل وجداني خالص:

(كان ينظر في عينيّ طويلاً ويكاد ينطق، وكنت أفعل بالمثل. منه
تعلمت التحديق بالأشياء وابتلاع الكلام)

وفي هذا وضوح التأثر، حيث جسّد العلاقة مع المخلوق القريب إلى نفسه. وقد استخلص من الحادث حكمة وعِبرة:

(اغتياله فتح عمري بوجه الموت. الموت الذي يخفي الأحياء إلى الأبد.
بعد واحد وستين عاماً من ذلك اليوم مات "القاتل" إنه من عمومتي.ذهبت إلى مراسيم دفنه... سألته: لِمَ قتلت الكلب؟ فغادرتُ المقبرة بلا صلاة)

هذا يعني أن الفنان ـ الإنسان يتخذ من حوادث الماضي، لاسيّما الخارقة للعُرف الإنساني نوعاً من الدرس والحكمة. وكثيرة هي الأحداث المرّة التي واجهها الشيخ، كما عكستها السيرة، منذ صباه وشبابه ووصوله إلى سن الستين. فهو شديد الحساسية إزاء ما جرى ويجري. والمثال على هذا نظرته إلى طائري (الغرنوق والبرهان) أغدق عليهما بالطعام والشراب، لكنه أفقدهما حرية السباحة في الفضاء المطلق. وأرى إن المثل على بساطته، شكّل ويشكّل أهم المؤثرات على الذات الإنسانية، لأن الحادث يؤسس لبنية فلسفية من بعد تأمل طويل، وبحساسية مشابهة لما يمتلكها الشيخ. الذي استنبط قيّمه ومعانيه من التجربة كما ذكر (إرنست همنغواي)

الطين والتشكيل الأول والصورة

لقد أشار إلى لوّن الطين وهو يرافق الطقوس المندائية قرب ضفاف النهر. ولكي تكتمل الصورة، ويكون وعي صورة الطين وكتلته وطواعيته أكثر قرباً من مساحة الإبداع، لابد أن تتظافر النظرة والرؤى باتجاه هذا المكوِّن للأشكال. ووفق نظرية الخلق البابلي (أنو ماليش) نكون بمواجهة تشكّل أولى للوعي بضرورة الطين. ولأنه من على ضفاف النهر، فتكون ذاتيته ذات مائية. وهو ما يقرّب النص المندائي من الماء. والدليل على هذا ما تعدد ذِكره لنهر الفرات في الكتاب المقدس للمندائيين (كنز ربا) حيث اعتبر المعتقد المندائي أن نهر الفرات من الأمكنة المقدسة والأزلية.فالفنان الشيخ تعامل مع الطين جينياً:

(تركتُ نفسي في العراء، بمعية الأشياء. في زمنها السرّي تنضج بلا اكراه ولا مصائب. بخربش على قوالب الطين الحرّي الجاف التي كنت أنزعها من ضفاف السواقي بعد انحسار الفيض)

هذا الفعل اليقيني يؤكد على معنى أن تتعامل مع كُتل الطين، تماماً بموازنة الخلق الأولى للكوّن (في البدء كان الغمر وكان الماء) وتلك مشيئة وقدر الإنسان أن يُقذف في كوّن واسع ليشكّل أبجدية وجوده. وفي مكان آخر يصف الطين باعتباره اكتشافاً يرتبط بالرؤى الباحثة عن اليقين:

(في الطين اكتشفت كياناً خفياً آخر، غير الذي أحمله.ينطق بقدراته.
ما أن أمد يدي وأحفر السطح المتاح)

ولعل الطين ارتبط من حيث الانبهار والدهشة بقرين آخر وهو الكاميرا والصورة، لما تمتلكه من روح البلاغة في التعبير خلال الظِل والضوء. وكانت العلاقة قد ابتدأت كما تبتدئ عند كل من شغف بالصورة. فكلنا يتذكر صورته في الطفولة، وكيف اكتشف قرينه من خلال صندوق متكتم على محتوياته (تعلقت بصندوق التصوير الصغير، يخرج من مقدمته خرطوم من الجلد، تتوسطه عدسة وله نوابض على الجانبين) يُنظر في هذا كتابنا (العصا والضوء، مقاربات في فن الفوتوغراف / الصادر عن دار فيشون ـ السويد 2014) فالصورة عند الشيخ لا يختلف اكتشافها عن معظم ما حصل عليها عبر البحث بدافع الفضول والدهشة (كان الصندوق عيني الداخلية التي لم يشاركني فيها أحد، ومدوّنة طفولتي، وحافظة أسراري) هنا حوّل الشيخ الكاميرا وبالتالي الصورة التي تُخلّد الزمان والمكان. بدليل وضعه مجموعة صوّر لوالده ولأفراد أسرته ولطفولته في صفحات السيرة. وبهذا نجده يميل إلى العلاقة بين الصورة والتاريخ، باعتبارها مدوّنة للأحداث. وهذا أيضاً ما دفع القصاصين والروائيين إلى توظيف الصورة في النص الإبداعي، كذلك في الفن التشكيلي على شكل كولاج. استفاد منه الشيخ في أعماله. وكما رأينا في تجارب بعض الفنانين العراقيين.

انكسار الضوء

أجد أن مثل هذا العنوان الذي اقترب من المصطلح في وجود الفنان الإبداعي، لأنه واصف لمجموعة من التشكلات. بمعنى حاول فلسفة المصطلح، والبحث عن مسبباته وتأثيراته. ويبدو أن اطلاق تسمية كهذه انطلقت من محرّكات أخرى. ومنها (المشي، البحث،الاصغاء، والتعلم من الآخر كديكارت، التخاطر) هذه المكوّنات لرؤى الشيخ دفعته إلى أقصى حالات الاكتشاف الباحث عن قاعدة معرفية، واستنبات مسميات ذات قوة روحية خالصة كتسمية (انكسار الضوء) الذي أعدّه وجه من وجود قدرة الضوء على خلق الصيغة، لما يمتلكه من ليونة وانسياب قادر على تمثيل كل الأشكال.إن الاصغاء لديه ولّد الكثير من الكشف، لأنه ارتبط بالتأمل الفلسفي أساساً (أنا مشاء، أمشط أفكاري وأذرها في الطُرقات التي لم أعد إليها مرة أخرى..... حسبي بعد عودتي أذكر أمراً واحداً ؛ أني كنت أفكّر) وهو يحذر من شيء خفي، يتوقع حدوثه بما يشبه المداهمة. لذا فردود فعله هنا تتبلوّر في (كنت أُربي قلبي على الخوف، وعينيّ على الظلام) فهو بإزاء صورة قلقة، جرّاء قلق الوجود عامّة (حاضر يجر وراءه ماض ناقص، يعبر إلى مستقبل غير مكتمل) ويبدو أن الفنان الشيخ ما زال يدور ضمن هذه الحلقة، لأن دوّامة الوطن لم تستقر بوصلتها على حال، فهي تؤشر السوء الذي ولّد الأسوأ. وكأن جدلية الحياة والوجود أحكمت حلقتها على وطن يبحث عن رفاه شعبه، فبدلاً من أن تنفتح السُبل، راح يغرق في ظلام جديد لا فكاك منه. إنه انكسار الضوء عن حيّز الوطن تماماً، وتفعيل إشارات الظلام كي تستبدل كل ما هو خيّر إلى رماد يتراكم كي يخفي الجمرة الملتهبة، التي خف توهجها.وله عوّد أبدي لجذوره البكر في وعي فعل الإبداع، ولو في أصغر صوّره . وبهذا لا يتذكر إلا يقين ؛ أنه سيكون رسّاماً لا غير (الولد الصغير الذي كنته، لم يسأل نفسه عن معنى الأشياء

ما دام يرسمها. كان الرسم هو المعنى الجديد لها في عقله) ويقصد بها الأشياء، وعقله الذي يرمي بها الشيخ الصغير الذي كان. وفي مكان آخر يذكر عن الرسم أيضاً (إذا كان المرسم قبلتي... فهذا قدري الوجودي. غالباً ما قضيت ساعات وساعات لكي أخط غير الخربشاتوشرب القهوة. كنت أفرش وأنام. أحياناً بفعل واعز واحد لا غير ؛ تأدية مناسك المرسم.

القِيَم المستنبتة

أهمّ ما يحتويه فصل القِيَم ؛ أنه يؤسس لظاهرة المغادرة، أو ما اصطلحنا عليه الطرد من المجال. وله جذر قديم في حياة الشيخ. ابتدأ منذ اللحظة التي غادر فيها مع عائلته بيئة الريف باتجاه مدينة واسعة كالعمارة. واعتبرها كما نعتبرها نحن؛ كوّنها الخطوة التي سنأتي عليها وهي طلاق أرض الوطن وللآن. فهو في هذا يستدرج الرحيل وخيبة الأمل كالآتي:

ـ (خرجنا قبل الظهيرة في سيارة خشبية)

ـ (البيت الكبير مترامي الأرجاء الذي لم تعد زواياه ملاذاً لي نُزعت مفاصله، تفككت وحدته، وغدا أشياء متفرقة محشورة في أكياس.... نحن اختَزلنا الرحيل إلى درجة الصفر أيضاً)

ـ (قضيت الوقت أتفرس وأحفظ معالمه، وكأني سأعود عليه ماشياً)

ـ (في المدينة دخلت حياتي طوراً جديداً، إذ بلغت طفولتي حتفها، توقفت عن النمو)

ـ (في الطرف الآخر ؛ كانت " الطلاطلة" تشهد هجرة جماعية، نفير تاريخي ونفور حضاري تعاضداً على نبذها من الوجود. روح كانت تشد أرواح الصابئة إلى أرضها)

ـ (في غيابهم هوّت سقوفها إلى الأرض ـ ويقصد البيوت ـ وغابت معالمها.

رجعت تراباً ؛ علّ للتراب ذاكرة.)

ـ (كان هناك غموض يتعلق بحياتي، جاهدت لإيضاحه. وخلصت إلى
أنها مجموعة كينونات. لكل كينونة عمر خاص ومحدد. تعزل بينها
مناطق رخوة، سائبة. فترات تضمحل فيها الصلة والشعور بالوحدة
العضوية مع الماضي)

ـ (لم أدرك أيضاً إلى أين منها يتوّجب تقديم الوفاء. إلى من ضيّعتها أم
التي ضيّعتني، إلى التي دخلتُ تاريخها أم التي دخلت تاريخي)

هذه الانثيالات دليل على الإحساس القلق إزاء المكان وتحوّلاته. لكنه وإزاء مثل هذا الدخول والضياع ينزع إلى العوّد الأبدي في قوله:

(طفولتي هي ذاتي البدائية، دلالتي ورمزي الوجودي، هي هويتي الأثنية، أسمي
المندائي الذي دخلت فيه إلى الدنيا بصرخة عزلاء، والذي سأخرج فيه صامتاً.
بعدها، بعد أن تحوّل العمر إلى عادة، لم تعد تعنيني سخافة الحياة وخشونتها، عطاءاتها العابرة)

ويكون في خاتمة هذا الإحساس، سؤال ربما لا يوجد له جواب (آنذاك كان يكويني حنين للبراري لا شفاء منه) إنه ينزع جرّاء خيبات الوجود وترجرجه، إلى الجذور الأولى المكوّنة، والتي حازت على القدسية في العُرف المندائي، كالماء والطين، وهما أصل الوجود (سأرجع مع المدّ، فيشربني الماء كما أشربه) ويربط هذا مع طبيعة تشكله الإبداعي ـ الرسم ـ في (في كل يوم كنت أُضيف حياة جديدة) أو (كنت مطلوباً لمساعدة البنات

اللواتي يجهلنَّ الرسم. صرفت ساعات طوال أرسم، وهنَّ ينحنينَّ عليّ يغنجهنَّ، مأخوذات بما أفعل. ما كنت أفعله في الحقيقة ؛ أني أُطيل وقت الرسم، أستنشق أنوثتهنَّ الخام، وأذوبُ على الورق)

ومن هذه القِيَم هي العلاقة مع الأب، التي كشف عنها كوّنها قلقة، لكنها منحته درساً في الحياة. فهو قريب وبعيد عنهم في آن واحد (كنت أسمع منه قصصاً عن أصدقائه ضباط الجيش والبحرية البريطانيية) فكانت صورته (لا يرسو إلا ليبحر بعد حين، فعاش مسافراً.) لكن السؤال تماثل وسيرة الأبن مع الأب (إذا كانت مصادفات حياتي قد صاغت مني ما أنا عليه الآن، فهل مصادفات أبي تفعل بي هذا ؟ هل يبعث الله فينا ما كان في آبائنا ؟ هل يُطارد فينا ذنوبهم أيضاً ؟ سأدفع فديتك وفديتي يا أبتي) لكن جدلية وجوده، حتّمت عليه أن يعترف بالحقيقة، التي أسبغت سِفر التجوال على حياته (أنا أعثر على حقيقتي أني ''ناقص''،أن هناك ''شيء ما '' يُنقصني)

سِفر الخروج

أطلقت على هذا الفصل بـ (سِفر الخروج) لأنه يحمل مقوّمات مثل هذا الشكل من البناء للنص الديني، وحصراً (سِفر الخروج) في العهد القديم. لأنه ينطوي على نوع من الخلاص، بعد التشكّل الأول للخلق. والشيخ قد استكمل عدّته في تشكيل شخصيته الفنية، مما حداه إلى وضعنا ضمن دائرة الاشتباك الحياتي والمعرفي والظروف التي أنتجت جرّاء حراك الواقع، باتجاه حصاد القسوة ومحاولة المحو، لاسيّما السياسي منه. لكن جانب الإبداع كوّنه فناناً رجح منطق الخلاص من ربقة هذا الهلاك، والبحث عن خلاص. وهو إلى حد ما يتماثل مع سِفر (نوح) في الخلاص المائي لإدراك اليابسة الأكثر طمأنينة. إن هذا بتقديري، مساق داخل نص الشيخ من اعتبارات جينية، فهو يقترب في سردياته من تسلسل أسطوري. ونظرته للخطأ والصواب تكاد تقترب من الخطيئة والعقاب. إن خلاص الشيخ تم ضمن استحضار ويقظة الذاكرة، التي صاغت صوّراً أليفة في تاريخ الفنان، خاصة مع من هم أقرب إليه وجدانياً وفناً كما سنأتي عليه. والخروج هو الثالث، بعد أن ترك الريف باتجاه مدينة العمارة، ثم إلى بغداد. ولما كانت أرض الوطن لا تتسع لوجوده،نزع إلى الرحلة الثالثة نحو أرض غريبة. ومنذ تلك اللحظات التي وطأ عبرها الأرض الجديدة، لم يستقر عنده حال. فوجوده بات قلقاً. وهو جزء من قلق المبدع الحريص على مشروعه الثقافي والمعرفي ـ الانتاجي:

(كما خرجت من رحم أُميّ ولم أعد إليه أبداً، خرجت من أرحام ثلاثة أُخرى:

من رحم الدين والوطن والعقيدة، وكأني أخرج شوكة من القلب)

وهو إذ يضع نصب عينيه الماضي بحيواته،وبقسوته الاجتماعية والسياسية، فقد لاذ بصوّر صحبه (شاكر حمد، فائق حسن، أرتموفسكي، إبراهيم زاير، فائق حسين) وغيرهم ممن تركوا بصمتهم البليغة على ذاكرته، فهم بتقديره صنّاع التوجهات الجديدة في الفن، والرفقة التي لا ينضب معينها. لكنه يضع قوّل الشاعر (كفافي نُصب عينيه والقائل (ما دمت قد خرّبت حياتك / في هذا الركن المهجور من العالم / فهي خراب لك / أينما حللت) والخراب هذا يُدركه تماماً، لكنه موقن أن لا بديل غيره. فهي المرارة المتواصلة في

الوجود، وهو الشبح الذي يواجه المغترب قسراً. الاقصاء يعني الاستبدال، والاستبدال يعني البحث عن صيغة جديدة للحياة، والصيغة الجديدة طريقها طويل، فمن مكث في الأرض تلك يكون قد أجّل تاريخه إلى وقت آخر، باحثاً عن تاريخ جديدة. أي يعمل على تشكيل مدوّنته المنفصلة عن الأولى. لكن الحنين الجيني، يستنهض مقوّماته، كما كان يحدث للشيخ، متشبثاً كتبرير بأصدقائه. إنه يعمل على إفراغ كل وجدانياته مع صوّرهم الصافية في ذاكرته. ولعل (فائق حسين، سهيل سامي نادر) أكثر النماذج تأثيراً في نفسه، كما وأنهما قريبين إلى ذاته، لذا سأفرد لهما حقلاً في قراءتي هذه. مستمداً قوتي من قوة قول الشيخ (لأول مرة يجتاح ماضيي حاضري) إنه يؤسس إلى رؤى جديدة كما ذكرنا، غير أنها رؤى مرتبطة بقوة في الماضي، لاسيّما صورة المكان، وعلاقة عمله بتلك الصوّر المختزنة في الذاكرة (عنوان اللوحة مستهل واسع للعلاقة الجينية بيني والأشياء والمكان) إنه يُسجّل ملاحظاته عن أعماله الأثيرة في حياته الفنية. ولأن لوّحة (إنشاء الإنسان والأشياء) علامة مهمة في حياته الفنية، فقد أكد على ذلك بـ (كانت قسمة عادلة بيني وبين أشيائي من جهة، وبيننا نحن الاثنين والمكان من جهة أخرى.)

إنه يستحضر بمرارة ضياع الاستقرار لبناء تاريخ فني، يؤسس لرؤى جديدة في المكان (الوطن) لذا نجده يستحضر اللحظة المسبغةبالمرارة وهو يغادر الوطن قسراً:

(حرثنا الأرض وبذرنا بنكران ذات وتواضع،
ولم يسعفنا الوقت لنحصد غير
نقمة الفاشية واذلالها)

إن الشيخ وبعد كل هذا الخلاص، الذي قدم العمر كله قرباناً، نجده يصّر على صفاء رؤيته، للحاضر والماضي، وكل ما يتعلق بمنجزه، ومنجز أقرانه من الفنانين. إنه يوجه خطاباً متعادل الأبعاد في مراجعة موقفه في المهجر (المنفى) كي لا يُشكّل عنده عنصر تقهقر، بقدر ما هوعامل حسم لكل اشكالات الوجود. إذ نراه يوازن بين المواقف والرؤى في انثيال واسع، لكنه يحسم توجهه النهائي، ويحقق لنا رؤيته الصافية :

(أراني الآن بعد ما يزيد على أربعة عقود من ذلك التاريخ والرماد في يدي،لست متحمساً لتفاصيل تلك الفترة.... أنا معني هذه الساعة في البحث تحت رمادها عن " الميثاق الأول":
المكان الذي أهجس، والمكان الذي أفتقد)

وهنا لا بد أن أحيل إلى مستهل تحليلنا لصيغة الرماد، فالشيخ يحاول أن ينفخ على سطح الرماد، كي يُعيد للجمرة وهجها. يبدو لي إن العلاقة بين الشيخ والعالم، تصطفيها الرؤى الصوفية. فهو في كل مقام، يحاول أن يتجلى في الأشياء، بمعنى يتمارى في صفائها كي يستخلص الصورة الأنقى. هذه التجليات قلما تُستحضر، إذا ما كان لها جذر جيني. والشيخ تربّى على ذلك،كما ذكر في صفحات سيرته الأولى عن العلاقة بينه وبين النهر وقدسيته عند الصابئة المندائيين، وكيف اُختير من بين أقرانه ليساهم في التعميد على ضفة النهر. إنه يعود إلى صفاء نظرته وطهارتها الأولى، أي بكريتها من خلال ما أسماه بذاكرة الحاضر وذاكرة العشب باعتبارهما الصورة التي عليها نقاء الطبيعة، وبالتالي الطبيعة البشرية.

(كنت أشم لحمي وهو يحترق، وأشم العالم كله) ويعود ليؤكد على تأثير العشب ("ذاكرة العُشب " خضبتها حقائق الواقع ومعنى الأشياء. واستنفذت كل ما لديّ من خزين

للمناورة مع الماضي..... " ذاكرة العشب " التي هيّمنت عليّ وفرضت سطوتها على حاضري. فكل ما ولد بين أعشابها وتضمخ برحيقها)

معانيه من كثافتها ومن مدلولاتها اللوّنية، لا سيّما خضرة العُشب، ورمز الرمان وتساقط حبّاته ودلالاتها الأسطورية، وموحياتها في الحكايات، كما في قصص كتاب الليالي.

كثافة الغابة

للغابة صورة واضحة للذوات المعرفية، خاصة ضمن دراسات المكان، والدراسات النفسية والجنسية. فالكثافة تعني العمق المكلل بعوامل الغموض. فالأشجار تُضفي على المخزونات أو غير الظاهرة للعيان، شيئاً من السحر، وللغموض فيه نوع من الأسطرة. لذا نجده ينطوي في نمط تسلسله في مداولة الغابة بأشجارها على نمط من الكشف والتجلي:

(لا زمتني عناصر الطبيعة بفطرتها البكر، فكنت لا أغادر الغابة حتى أدخلها ثانية، استجيب لندائها.)

ويبلوّر رؤيته لتلك الكثافة بالشعر الذي يستجيب لذاتها لغة وحساً وجدانياً، تتخلله رؤى الرسم والنحت الخالقة للأشياء الباهرة. فالرؤى تبدأ بالانبهار بالأشياء، ثم تتحقق في رؤى اللوّحة أو الصورة. وهكذا فعل الشيخ، في اختيار مواءمة بين الشعر (اللغة) والرسم (التخطيطات والألوان) فلكي يؤكد الاختلاف في الرؤى يذكر:

(ثمة طريقان مفترقان في غابة، وأنا
أنا أسلك غير المطروقة منهما
وقد كان ذلك هو الاختلاف بأسره)

ويستكمل العلاقة مع حيوات الغابة، من خلال رشاقة التعبير، التي تؤكد على الطبيعة الموحية للفنان. فهو لا يسبغ غموضاً على غموض، بقدر ما تتجلى صورة حيواتها على أحسن صورة من الدالة التي يستلهم الفنان

حوار الاستجابات

الاستجابات؛ قصيدة طويلة، يكثف من خلالها الشيخ رؤاه الكوّنية، مستجيباً لجيناته ووعيه المبكر بالمقدس والطقس، مما يوفّر لهذه الاستجابات مساحة واسعة من كشف المستور، بوضوح معنى. وهي في معظمها نداءات موجهة للرب من باب الاستجابة لمجموع النداءات التي واكبته في حياته، متنقلاً في الأمكنة.وقد استهّل خطابه بلغة قاسية،وشديدة التذمر:

(إلهي ! ألم تقل لي " سلام عليك يوم تولد "...؟
ها أنا منذ الأزل تنهشني ضواريك
تسحلني عربات شياطينك في ساحات المدن الملعونة
دمعة واحدة لم تذرف من أجلي...أنا ابنك !
أي ملائكة من حجر يُحيطون بك ؟
إلهي سكّن قلبي
ودعني أنام إلى الأبد،
ولا توقظني)

هذه النبرة الشعرية لخصت ما ذكره في سياق السيرة من طلاق الدين. لكنه في هذا يُذكّر الرب بذلك الوعد. وهو حوار ينطوي على عتاب مر من جرّاء ما وصل إليه مصير البشرية، والشيخ منهم. إنه نداء الصوفي حين تنفد لديه السُبل في الخلاص، جرّاء تراكم المِحَن. وتتواصل المطوّلة الشعرية ببلاغة الرؤى، وصفاء الصوّر، ووضوح المعاني،

والتركيز في العبير:
(خرجت إلى البرّية أتبعه
كما يتبع الأعمى عصاه
علّمتُ الطرقات كيف تمشي
ولقنتها نشيد الخطوات
وكان طريقي طريق الله
فتبعتني الطُرق كما يتبع الأعمى عصاه)
أو:
(أنا الإنسان المولود بلا سرّة على هاوية الحياة)
ويكون الاسترسال طريقاً لصياغة المعنى وسبغ روح التجليات الصوفية عند الشيخ. إنه يُدبج قصيدة تجمع كل وجع الدنيا التي خاضها، وتستكمل محيط الدائرة الذي لا تستكمل إلا عبر مرارة الوجود:
(الكلمات التي تفضي إلى الله
كم يبدو العالم مقتضباً إزاءها
وكم أبدو إنساناً
وأنا أسمعها من فمه)
فائق حسين وشفافية الصورة /
مثلما يختزن بتأثر شفافية الفنان (فائق حسين) أجد وأنا بصدد صياغة مداخلة معرفية مع سيرة الرماد، بما أتت عليه من سعة المعلومات وعمق العلاقات الإنسانية مع الحياة والدين والطقس والوطن. فلي مع السيد فائق صوّر امتدت منذ الطفولة، كي أستكمل مع الشيخ دائرة العلاقة تلك. صبيان بعمر ما بعد العاشرة بقليل، كنا معاً في بيت واحد، كان ينطوي على جسده مثل حلزون، ويبتسم مثل أي صبية خجولة. بين أختيه يعيش، والأم العلوية بهيبتها الوقورة، ذات الشال الأبيض. نشأ بطفولة غارقة في دربة البحث. كنا حين ندخل السينما، يُفاجئنا في اليوم الثاني بقراءة بسيطة لأحداث الفلم، يومها لم نعرف سر تلك القراءة، لكني تذكرت متأخراً ما ذا تعني. لاسيّما حين عاد في إحدى فرصه من اسبانيا، وكان يومها يعمل كمصمم لأغلفة الكتب. فما كان منه إلا أن سألني عن الاعلانات التي كانت توّزع كدعاية للفلم، وهو يعرف إني أجمعها وذي دأب على اقتنائها حين أسافر إلى البصرة ملاحقاً قافلة (تومان) وحين قلت له فقدتها جرّاء تغيير أماكن السكن، ضرب راحتي كفيه بألم، كما لو أنه فقد شيئاً مهماً، مكتفياً بعبارة (ولا وحدة.. اثنين... ثلاثة يمعوّد) كان دقيقاً في كل شيء، يعرفه المعلمون وخاصة معلم اللغة العربية، وانشاؤه يكون في الصدارة في المرحلة المتوسطة. ما زلت أتذكر لوحته المرافقة لقصيدته في ملحق الجمهورية الأسبوعي تحت عنوان (برتقالة تتسوّل في الظِل) كان تجريبياً ماهراً، وشاعراً حالماً بعالم يصعب تحقيقه.حين شاهدته في الصورة وهو يرقد في المستشفى، تحيطه الأنابيب، بدا لي طفلاً بقماطه في مهده الصغير!؟

سهيل النادر

ذكرت النادر، لأني متأكد حد اليقين أنه شخصية نادرة فعلاً، يذكرني بالشاعر (رشدي العامل) الذي هو رجال في رجل. و(سهيلي) رجل بقامة قصيرة، لكنها تعلو على قامات كثر لا فائدة من وجودها وطولها، أو صياغتها على هذه الصورة. سرٌّ عمّق شخصيته تبلوّر في كثافة نشاطه الصحفي، فهو العامل في كل حقل، متحمس جداً حد الاقتتال لإنجاح ظهور الصحيفة على أحسن صورة. فنان في قراءاته. وهذا ما لمسته في كتابة (الخشن والناعم) الذي قدّم خلاله سيرة اللوّحة التشكيلية عبر مجموعة جهود فنية، تعمّق في

دراستها. روائي من طراز خاص، له رؤية خاصة في فن الرواية شكلاً ومعنى. وهذا تجلى في روايته (التل) التي حاولت التشكيك بالموجود من النصوص المهمة على صعيد معرفي، مقارنة وعبر المخيّال السردي ما اكتشفته البعثة الإثارية من مخطوطة الحيوان للجاحظ. إنه يتبع الشك سبيلاً فلسفياً للوصول إلى قناعات جديدة.

ألم أقل أني أعرفهما. والفضل يعود لما قدمه الشيخ من خواطر عنهما.

الفن والشعر

الاستئناس مع الطبيعة، خاصية حياتية، مارس مفرداتها الإنسان الأول، حين ابتدأ الكهف مأواه في الليالي، وبعد أن بدأ إحساسه بالخطر المحدق بحياته وحياة أفراد أسرته. ومن هذه اللحظة، وفّر الصخرة ليسد بها باب الكهف، فأصبح ثمة باب لمنزله. بمعنى تشكّل له (داخل وخارج) داخل متطامن وهادئ وخارج مضطرب ومحفوف بالخطر. ولما كان الداخل (الكهف) أقّل سعة من الخارج (الفضاء) نمت بين أفراد أسرته الآخذة بالاتساع نوعاً من الوحشة جرّاء التزاحم في المكان من جهة، وضيقه من جهة أخرى. وإزاء هذه الظاهرة بدأ العقل الأول البحث عن فعالية أكثر نشاطاً وتوفيراً لوسائل الاستئناس. وأولى هذه الفعاليات وجود ملهاة لأفراد الأسرة. فكان حصيلة تكرار التفكير والبحث ؛ أن كان الجدار هو أول من سقطت عليه بنية عقله. أخذ يفكر بكيفية استنطاقه. أي إيجاد لغة مناسبة لذلك. فلم تكن أمامه سوى الخريشة على سطحه، ومن ثم ابتكار الألوان لتزينه واستنطاقه. أي أصبحت لحركات أصابعه مفردات، هي بمثابة، أبجدية (لغة) استنطق بواسطتها الجدار الأصمّ.وطبيعي تطوّر فعله المتعلق بهذا المضمار بتعاقب الأجيال، حيث خضعت الأفعال إلى الجينات المعرفية الأولى، ونعني بها النشاط العقلي. فبقدر ما دفعته ملَكته الجينية إلى تطوير فنه، مكّنته الحاجة إلى ابتكار اللغة، وبالتعاقب، ظهرت على سلوكه المعرفي نتاجات على شكل لغة حروفية باهرة. ويشهد على هذا ما ورد من خواطر وشعر رقيق وقديم قِدَم وجود البشر. هذه الخواطر التي تفترض قراءة لما هو مسكوت عنه في مجالها. لكنها ووفق الجينات المعرفية، خضعت إلى تركيبة الدماغ المزدوجة. فكان الفنان الذي زوّق الجدار قد أصبح شاعراً، لأنه يمتلك جهازاً يخص الشعر حسب تخريجات (بافلوف والدكتور نوري جعفر) التشريحية للدماغ وكما عُرِفَ بـ ()فسلجة الدماغ) فالفنان وفق هذا كائن شاعر أيضاً ؛ فهو شاعر يستنطق الجدار بالألوان والخطوط ويكتب الشعر بواسطة الحروف في آن واحد برؤى متقاربة وأدوات مختلفة. فسيرته تواصلت من اللوّن إلى الحرف. وكلاهما له جدار، سواء كان قماشاً أو صحيفة جلدية أو ورقية.

ساقتنا هذه الخواطر حقيقة كون (يحيى الشيخ) يمتلك موهبتي التشكيل والشعر. وهذا ما أكدته (سيرة الرماد) في تدوينه لتفاصيل حياته الطويلة، وحياته الفنية في الغربة. بما احتوته من شعر سندرسه. ولكن ليس قبل أن نؤكد على أنه فنان مبتكر لوسائل فنه. أي يمتلك إرادة الوصول إلى الشيء ثم تجاوزه وقد شهدت على ذلك معارضه التي استثمر ووظف خلالها المتروك والمهمل في الطبيعة كاللبّاد والريش. ففنه الشعري يوازي

فنه التشكيلي. لكنه كما يبدو شاعراً كوّنياً، أراد من خلال الشعر أن يقول ما لم تقدر أن تستوضحه اللوّحة بكل تشكيلاتها الجديدة والدالّة على نشاط العاطفة والعقل. وكونيته نابعة من إحساسه الميثولوجي عبر طرح رؤى وجودية وأسئلة كوّنية تخص الوجود وعدمه. وهي حصيلة للتجربة في المهجر، التجربة التي لا يُدركها ويتحسس تفاصيلها ومفرداتها سوى الذي اكتوى بنيران الإقامة فيها طويلاً.

(يحيى الشيخ) مارس الحياة بكل تقلباتها وفوضاها وتحوّلاتها، فأنتجته فناناً ـ يتصل بوسيلة الخط واللوّن وإقام الصلة بما هو مهمل ومتروك، من أجل تصعيده إلى مرتبة الفن، أي تحوّله من الهامش ـ المهمل إلى المتصدر ـ المركز ـ فكانت فاتحته لوّحة تخفي شيئاً ومعلَماً لم يُفصح عنه بسهولة أو مباشرة، بسبب تعامله الحسّي إزاء ما يرى ويعيش. لذا ارتبطت في ذهنه لغتان، الأولى: جدار اللوّحة الذي عكس خلاله ما أحكمت جدارة جيناته المعرفية المتصلة بلحظة منذ استيقاظ ذهن الإنسان الأول وانتباهه لفراغ جداره، واللغة الثانية: انبثقت من الأولى، وخضعت لنفس المكوّن الجيني، وهي لغة الحروف، إذ صاغها شعراً كوّنياً، تتخلله الأسئلة الكوّنية، التي تمخضت عن تجربة واسعة ضمن تحوّلات المكان. مؤكداً على الاختيار الذي لابد منه:

{ثمة طريقان مفترقان في غابة وأنا،
أنا من سلك غير المطروقة منهما
وقد كان ذلك هو الاختلاف بأسره }

هذا المقطع من شعره، يستثمر بنية الحكاية التي ضمتها بطون الكتب، خاصة كتاب الليالي ومروياته، في مسألة الاختيار للطريق عبر رحلة غامضة، ليست لها مؤشرات واضحة. كما وأنه صاغ فلسفياً أسلوب الشك واليقين، الذي اصطف في مسألة ومفهوم الاختيار بحثاً عن الحرية ضمن الأمكنة الواسعة. والغابة إشارة إلى غموض العالم وصعوبة كشف معالمه الفكرية والبنيوية. من هذا كان تأكيده على هذا الاختيار من باب الامتحان الذي يحتمل الصح والخطأ. لكن ما يبقى هو التجربة التي تتضح معالمها في مدوّنة التاريخ. إنه لا يؤمن بحالة الاستقرار، حتى لو فرضت على وجوده، كما أوضحت السيرة. لكن مسألة الاختيار الصعب هو ما يرمي إليه عبر وصفه لطريقين مجردين عن وضوح طبيعتهما. إن الامتحان الصعب في الاختيار، تُفصح عنه التجربة والخوض في ما هو غامض. هكذا قالت الحكاية أو المروية للشيخ، وهو يتلو ويستقبل معارفه الأولى منذ أن اختير كطفل طاهر يراقب طقوس التعميد بمياه النهر. أما ما يعنيه بالاختلاف الذي أسفرت عنه الكلمات، ففيها يعني اختلاف الوسائل والرؤى التي مكّنته من اجتياز تجربة غير سهلة أو ميسورة الدخول والاجتياز. فقط أكد على أنها تجربته، وليتمخض عنها ما يتمخض. وهذا هو الاختيار الوجودي في الحياة، المرهون في الوجود أو عدمه. كذلك انصهار سؤاله في كوّنية أعمق دلالة على طبيعة ذهنه غير المستقر. أي أنه يُقدم توصيفاً لما عانى جرّاء هذا الاختيار، بل عتابه يتحوّل إلى حالة غضب مكبوت. وأسئلته هذه المرّة عن الوسائل التي اعترضت طريقه المُختار بإرادة، أما أساليب المصادرة والعُسف فهي محكومة بقوة الإله الذي وجد الشيخ نفسه مكبّل بإرادة خارج إرادته. ولعل مركزية ما اتصل بشخصيته التي تربت على العقيدة، لأنه

تربي في حاضنة دينية، فكان خطابه إلى الله أمراً طبيعياً:
(إلهي ! ألم تقل لي: سلام عليك يوم تولد؟''
ها أنا منذ الأزل تنهشني ضواريك،
تسحلني عربات شياطينك في ساحات المُدن الملعونة،
دمعة واحدة لم تُذرف من أجلي... أنا ابنك!
أي ملائكة من حجر يُحيطون بك ؟
إلهي سكّن قلبي،
ودعني أنام إلى الأبد،
ولا توقظني)
ولعل الشيخ يأخذنا إلى البعيد من رؤى الشعر، لكي يُحكم العلاقة بين سطح اللوّحة ومنحى الشعر، أي يوّحد اللغتين الباهرتين في استجابة متقاربة حسّية واحدة. تتحوّل خلالها صورة العالم في زهوه وموته. فهو يوقظ الخطوط والألوان، الظِل والضوء من جهة، والحرف واندماجه بما يواخي صيرورته، فينتج شعراً. بمعنى وحد اللغتين في رؤية إبداعية واحدة. أي وصل إلى صلب المقولة المؤكدة على: أن الرسم شعر صامت، والشعر رسم صائت.
ولم تراوح القصيدة على رؤى ثابتة، ولا محوّر يكرر نفسه، بقدر ما امتدت إلى أكثر من أسئلة وحراك فكري، له علاقة متينة بالوجود وعدمه ، مؤكداً على حالة التنبؤ الذي يؤول بالأشياء إلى الاضمحلال. وهذا ناتج عن اللاستقرار الذي أقّرته الرحلة الطويلة في الأمكنة:
(سيأتي يوم تعثر فيه الأنهار على أشلائها في ركام البحر،
وعلى أسمالها في حوصلة النوارس،
يوم يصدق خليلي ؛ أنه آخر الخلّان)
وهذا استشراف لعدمية الوجود، وثمرة ما هو مضطرب ومتجاوز عليه.حيث يفضي هذا الحال إلى صورة الغياب الدائم، الذي يؤكد متوالية تكرار الخطأ وتسيّده على الوجود. وقد عالج هذه الرؤية ببساطة تنحو إلى العمق الفلسفي، لتؤشر حال المطرودين عن مجالهم:
(سيأتي يوم.. تجلس فيه معاطفنا على الكراسي
تحتسي الخمر
ونغيب نحن تحت المناضد)
أليس هذا نوع من التغريب المفروض، لأن ما يسند قراءتنا، ما ذكره من انثيال شعري لاحق. أكد على مثل هذه المصادرة للوجود:
{وسيأتي يوم آخر إثر يوم آخر؛
يوم ينشف الطين على هاماتنا تاجاً للمهابة،
يوم يخرج النمل من أوكاره يُغني: '' كل من شاء منكم أن ينقذ حياته، عليه أن يخسرها''
أأنت الصباح الذي ينتظرني... وهو يبكي؟
لعل هذا يرمي إلى ابتداء الوجود في الميثولوجيا. وفي الأخص قصة الخليقة البابلية (أنومالیش) أي أنه يتواصل مع الأصول في كشف رؤاه، فيقّر النتائج على أنها أمر فرض من قوى خفيّة. وهو ما يتعلق بالربح والخسارة في هذا الوجود. وبسردية عالية يُدخل الشعر فيها، ليحقق رؤى جديدة (كنت أرسم الأشجار، وكانت الأشجار ترسمني / تعريّت، قالت الأشجار: هذا شبيهنا) وهنا يستعرض كل الممكنات التي تجعله يقاوم مد المياه. تماماً كما أوعزت تياراتها المُهَدِدة لـ (نوح) ونداء الرب؛ أن أصنع الفُلك، وأنقذ ما تبقى من البشر. وتكون العلاقة مع البحر تنمّ عن مقاومة ورفض الاستسلام:
(انشّق البحر، حملته، سقطت قطرة منه ؛ فعمَّ الطوفان
حزّمتُ أغصاناً، صنعت كلكلاً، وطفتُ)

ويحاول جاهداً أن يعكس مجريات مسيرته وهو يطوف العالم مهجّراً أو منفياً أو مطروداً عن مجاله. تأخذه المطبات، باحثاً عن الاستقرار في المكان خلال جملة رؤى كالآتي:

(أيقظني آذان الفجر كالعادة / المدينة عن بكرة أبيها تؤذن للصلاة / رأيت الله يأخذ بيدك إلى خمر نعاسي / بينما أهبطُ إلى الهاوية / ثم اختفينا / ماذا كنتِ تفعلين برفقته في دمي ؟)

بعدها يخاطب الرب بـ (إلهي ألم تقل لي) كما ذكرنا سابقاً؛ حيث تتواصل مجازاته وصوره لعكس الرؤى الوجودية، التي دافعها البحث عن اليقين. القلق الذي ينهش الجسد، ويذهب به، هو أمضّ من أي فعل مباشر على الجسد. لذا نجد الشيخ يُلاحق ما تنكشف له من رؤى، وما يتجدد جرّاء عدم الاستقرار في المكان، ملاحقاً الحق الطبيعي في تحقيق المراد. فمن قلق إلى آخر تولد الرؤى المكينة. وقلقه هذا موجب لمواجهة أو مجابهة سعير وتوالد الأسئلة لكن السؤال الأمرّ هو (من تعنيه حياتي / لا أحد ! / فمن يعبث بها هكذا ؟ /..... / خرجت إلى البرية أتبعه كما يتبع الأعمى عصاه) ولا يشمل هذا النداء الذات فقط، بقدر ما يخص العام، لأنه نداء يوقظ البشرية من خطر الدمار، ملاحقاً هذا الإنسان، فما أن يخرج من طوفان حتى يواجه بسبب آخر لطوفان جديد. إن الشيخ يبدأ من الداخل، طالما تلفعته الغربة في الأقاصي، لأنه كفنان وإنسان وشاعر ومثقف لا يستقر إليه حال. مثله مثل الباحثين عن الحقيقة في بئر عميق لا يُرف له قرار. فهو:

(نلف حول الهاوية كالأجرام مشدودين إلى قاعها / لا نحصي غنائمنا / نحفر لها عند المياه وندفنها / علّنا نعود كالمياه إليها... / قد لا نعود كالمياه / من كان منكم يائساً، فليتبعني)

لقد تعامل (يحيى الشيخ) مع لغة الشعر، بمثل ما كانت لغته الأولى سيّدة التعبير عن خلجاته ورؤاه. إن هذا التآخي بين اللغتين، ينمّ عن موهبة، وجدناها أيضاً ضمن تعبيرات الفنان (فائق حسين) في قصيدته ولوّحته الموّسومة (برتقالة تتسوّل في الظِل) المنشورتان في ملحق صحيفة الصباح الأسبوعي في منتصف ستينيات القرن الماضي.كمال وأنه فاز بجائزة عن ديوان شعري. إضافة إلى إبداعاته في تصميم أغلفة الكُتب. فلا غرابة أن يحوز الفنان على ملَكة شعرية، لكن الفريد في هذا أن يكون الشعر عالي النبرة، وذي ميول فلسفية تثير الأسئلة الكوّنية باستمرار.

الخاتمة

أقول الخاتمة ولا أقول النهاية، لأن (سيرة الرماد) تتجدد عند كل قراءة. وحسبي إذا تركتها لزمن ما، معيداً قراءتها، فسوف يكون لي وللآخرين وقفة جديدة،لا تُلغي التي قبلها، وإنما تُضيف الذي تستجده القراءة المضافة. إنه دليل على حيوية النص ليس إلا.

• **يحيى الشيخ / سيرة الرماد / المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 2013**

العشرون

أ.د.حسن البياتي

(في الذكرى العشرين لرحيل بصري عصرَ يوم الاثنين، الثاني والعشرين من شهر شباط سنة 1999، أثناء عملي استاذاً في جامعة حضرموت – اليمن)

– 1 –

عشرون حولاً والعمى يقفو العمى...
فاضت شجونك، يا حسنْ!
لا مِن مواسٍ، لا أنيسٌ لا وطنْ
رحل الذين تحبهم، عزَّ الحمى –
أين العراقْ؟!
شُدَّ الرحالَ فغانمٌ× في الانتظارْ
وعيونُ بشرى×× والرفاقْ
تغريدةٌ مشدودةٌ صوبَ القطار:
عجّلْ – فُديتَ! – قبيل أن تخبو ذُكاءْ
وترفَّ أجنحةُ الدجى عبر الفضاء.

– 2 –

– قلتَ: انتظرني××× فانتظرتُكَ... ما الذي
مَدَّ الغيابْ؟!
– كفي بكفكَ، غانمي غنومتي××××، كُفَّ
العتابْ!
دعنا نفكر كيف نبني يومنَا غِبَّ اللقاءْ
فلربما امتدت بنا كفُ البقاءْ.
لكنْ، لماذا انت وحدك، ها هنا، أين
الصحابْ؟
أين الحمائمُ والعنادلُ والأغاريدُ العِذابْ؟
لا بسمةٌ، لا شمةٌ، لا مِن عناقْ،
لا شيء، لا ... ماذا جرى؟ ماعدتُ، غنومي،
أراكْ،
أمرٌ غريبٌ، لا يطاقْ!
أوَ غانمٌ أم أنتَ انسانٌ سواك؟!
لِمَ لا تجيبُ تساؤلي؟ مَن ذا هناك؟
ماذا تتمتمُ، ياترى؟ هل ثَمَّ شخصٌ غيرنا؟
لَكأنني أحسستُ أنكَ سائلٌ مَن ذا أنا...

غنومتي، عجبٌ عجابْ!
أنسيتَ حسوني - رفيقَكَ في الصعاب وفي
الرحابْ؟!
- ....
- أنسيتَ ... ها! حلمٌ اذن؟! ياويلتي!.. عاد
العمى،
سيلٌ من الظلماتِ، وخازاً، همى...
غاب الأحبةُ والرفاقْ،
عزَّ الحمى!
أين العراق؟!

لندن – 22 شباط 2019

*** غانم: هو الرفيق الدكتور غانم حمدون الذي رحل الى دار الخلود في 24 شباط 2017**

**** بشرى: هي الرفيقة خالدة الذكر بشرى برتو التي رحلت عنا في 13 تشرين ثان 2017**

***** في هذا البيت اشارة الى قصيدة (انتظرني) التي أبَّنَ الشاعر بها رفيقه (الدكتورغانم حمدون)**

******كان الشاعر ورفيقه الراحل د.غانم حمدون يتخاطبان – هاتفياً – باسمي: غنومي وحسوني.**

بانتظار الموت في فندق

ترجمة: جودت جالي
قصة: إيتالو كالفينو

عند وقت معين في الصباح، بدأت زوجات السجناء بالوصول وأخذن يومئن ووجوهن مرفوعة الى الأعلى نحو النوافذ. من الطابق العلوي أطل السجناء ليسألوا الأسئلة وليجيبوا عليها، وكان الأمر كأن أيدي النساء اللواتي على الأرض وأيدي الرجال الممدودة من الأعلى تحاول الوصول الى بعضها بعضا عبر فضاء تلك الأمتار الفارغ وتتلامس. لم يكن يوجد حول الفندق الكبير، الذي حُط من قدره مؤخرا ليكون ثكنة وسجنا، ما يمكن أن يعطي الشكل الإسمنتي لفقدان النزلاء لحريتهم، فلا قضبان حديدية ولا أسوار عالية. المظهر الوحيد المرئي لكربهم هو المسافة العمودية القصيرة، ومع ذلك لا يمكن تجاوزها، بين أولئك اللواتي أقدامهن على أرض حديقة الفندق، ولا زلن متحكمات بمصيرهن الخاص، واولئك الذين جيء بهم الى الفندق كما لو كان بلدا آخر لا عودة منه.

بين الحين والآخر يلتفت أحد السجناء الذين عند النافذة الى الرواق خلفه وينادي على اسم: "فيراري! فيراري! زوجتك في الأسفل هناك!" ويأخذ الرجل المنادى عليه بشق طريقه الى النافذة المزدحمة أصلا، ويبدأ يبتسم بوهن ويومئ ايماءات يقصد بها التعبير عن الاستسلام للقدر.

لم يذهب دييغو الى النافذة أبدا، فعائلته كانت بعيدة جدا، بعثرتها الحرب. لقد نال ما كفاه من التأرجح بين التنبؤات والإفتراضات للأخبار الجيدة والسيئة، تلك التي ينقلها الآتون والذاهبون في حديقة الفندق الى الذين فوق. لقد تمزقت أعصابه، وتاق لأن يدع نفسه تنجرف- سواء نحو الكارثة أو نحو الخلاص الأعجوبي الذي لا زال يأمل فيه. تاق للأصياف التي كان يقضيها متمددا على الرمل عند حافة الماء، ككل أصياف الرمل والبحر في ماضيه والتي تؤول الآن الى نهايتها.

غير أن الزمن كان شبكة من الأعصاب المتوترة، متاهة يمكن أن يعاد تشكيلها الى ألف شكل، كلها بلا معنى. السجناء الذين ألقي القبض على أغلبهم صدفة في الشارع أخذوا يتمشون الهوينى على مشمع أرضية غرف الفندق العارية حيث لا شيء سوى أغطية الأحواض والمراحض البيض مكشرة يغطيها الماء القذر.

عندما نُقل دييغو الى الفندق، قبل يوم، من سجن في القلعة، حيث قضى نهارا وليلة مع رجال آخرين ربما قُتلوا الآن، بدا له

هذا النقل كما لو أنه كان مدفونا وأخرج من مدفنه، وقد وجد نفسه في الفندق الرحب ودفء كل هؤلاء الرجال حوله. جاهلا وميالا الى التفاؤل بسهولة، ضحك ونكت لإلتقائه برجال يعرفهم.. ميشيل، الرفيق الذي ألقي القبض عليه معه كان أيضا بين السجناء في الفندق. ابتهج الرجلان لعثور كل منهما على صاحبه بأمان، ولإجتماع شملهما، بعد فراق لأربعة وعشرين ساعة خاف كل منهما خلالها على مصير الآخر. شعر دييغو بالتأثر، غير أنه شعر أيضا بالتشجع فيما كان يحرك يده على خشونة معطف ميشيل ونعومة رأسه الأصلع الكبير الذي وصل الى مستوى صدر دييغو. ضحك ميشيل ضحكا متقطعا بعصبية كاشفا عن أسنانه القليلة وسأل: "ماذا تقول يا دييغو هل سيسلموننا الى النازيين؟"

قال دييغو: أقول سوف ننجو. سوف نغلب الرايخ الثالث كله، سوف نفعل"

-حتى فون ريبنتروب؟

-حتى فون ريبنتروب. حتى فون براوخيتش. حتى الدكتور غوبيلز."

وقرفصا الى جانب أنبوب تدفئة بارد ليبددا قلقهما بالضحك والتنكيت (لم يعرفا بعد أن العديد من أولئك الذين قبض عليهم قد أعدموا)، وشعر دييغو بسعادة شخص أطلق سراحه بعد أن قضى سنينا في السجن، فالسجن الذي أحتجز فيه كان قلعة قديمة على الميناء حيث نصبت الآن مدفعية الألمان المضادة للطائرات. كانت زنزانته في وقت من الأوقات مكانا لحبس الجنود الألمان، وعلى الجدران كلمات خطها شاذون ألمان. كان يوجد حوالي عشرين منهم في تلك الزنزانة المكتظة ممدين على الأرضية على شكل صف، وكثيرا ما كان يقوم خلال الليل رجل عجوز هو والد سجناء آخرين يرتدي ملابس الصيد فيتخطى من فوق الأجساد، ويتبول، بصعوبة بالغة، في صفيحة معدنية في الركن فتح الصدأ ثقوبا فيها وسرعان ما يتسرب بول العجوز على أرضية الزنزانة مثل النهر. تتناهى عبر القلعة مع كل تغيير للحرس أوامر بأصوات نابحة غير بشرية كما لو أن الذين يطلقونها رجال هم نصف ذئاب. تطل القضبان الحديدية لنافذة الزنزانة على جرف والبحر يهدر طوال الليل وهو يدفع بأمواجه خلال الصخور كالدم في الشرايين وكالأفكار في تلافيف الدماغ، وكل رجل يفكر الى ما لا نهاية بالموقف الحرج الذي لم يكن يجدر به أن يزج نفسه فيه، الموقف الذي جاء به الى هنا. بالنسبة الى دييغو هو موقف الشارع الذي سلكه وميشيل لتجنب نطاق رجال الأمن والذي وضعهم وجها لوجه مع مجموعة من الألمان بكامل عدتهم القتالية يستوقفون المارة وسط الطريق على مبعدة ثلاثة أمتار كما لو كانوا في مشهد افتتاحي لفيلم.

تكر سلسلة الأحاسيس والصور في ذهنه مثل سبحة مخبرة إياه مرة بعد أخرى بأن ما حدث كان محتما فيما هو مستلق محجوز في الزنزانة مع كتابات الألمان الشاذين على الجدران والعجوز يتبول باستمرار في الظلام، أو الآن، وهو جالس تحت الجص المتقشر للطابق العلوي من الفندق، معلقا بين الحياة والموت، فيما كان الرجال من حوله ينامون على وجوههم كما لو أن دوارا أصابهم.

كل يوم يجري اختيار عدد منهم: إما للحياة

أو للموت. في الصباح يظهر الرقيب والواشي مع رزمة من الوثائق في أيديهما، ومن تعاد لهم وثائقهم يكونون أحرارا بالمغادرة، يحتضنون زوجاتهم ويمشون يدا بيد عبر مرجة الفندق وعيون الذين بقوا خلفهم تتبعهم بحسد.

في المساء تأتي شاحنة بلون رمادي رصاصي تقل جنودا مسلحين وتتوقف خارج الفندق، ينادي الرقيب والواشي بأسماء أخرى، ويؤخذ بضعة رجال محاطين بأولئك الجنود مرتدي الخوذ. تعود في اليوم التالي زوجاتهم ليقفن تحت النوافذ ويسألن عنهم ثم يدرن من مكتب عسكري لآخر وهن يتحدثن مع المترجمين متوسلات، لا أحد يعرف أين أخذ الرجال. تتحدث نساء أخريات عن أصوات إطلاقات سمعت في المساء هناك في المنطقة المخلية قرب المرفأ.

بالنسبة الى دييغو وميشيل، أيضا، يوجد فقط البديلان: الحرية أو الموت. إما أن تعتبر وثائقهما سليمة، وفي تلك الحالة يكونان قد غلبا الرايخ كله حقا، وسيكونان قادرين على أن يتحدثا عن الأمر ذات مساء في المخابئ وسط ضحكات رفاقهما، أو ستكون الشاحنة الرمادية الرصاصية، سيكون الإختفاء وسط البيوت المتهدمة قرب الميناء، ستكون غلبة الواشي عليهما.

يتفحص الواشي كل السجناء عند وصولهم ليرى إن كان يتعرف على أي من رفاقه السابقين بين الرجال المصفوفين خارج الفندق. الواشي، وهو غلام ببدلته الضيقة، وابتسامة مبللة على شفتيه اليابستين المنقطتين بالرضاب، يأخذ بالتمشي على طول الصف فاركا يديه المتعرقتين ببعضهما بعضا. كان شاحبا والبرد قد جعل أرنبتي أنفه وجفنيه محمرة، وقد بدأ ينبت له شعر الشاربين الأشقر. تلتمع عيناه إثارةً عندما تخطر على باله فكرة أنه الفيصل ما بين حياة هؤلاء الرجال الواقفين أمامه وموتهم، الحابسين أنفاسهم مع كل كلمة منه وإشارة. تلك كانت لحظات انتصار مسكر للواشي، ولكنها لحظات ملونة دائما بألوان القلق. كلما ظهر في أروقة الفندق فإن النزلاء يتجمعون حوله ويناشدونه بإسمه: "توليو، توليو"، فينظر الى الرجال الذين لا يملكون لأنفسهم أمرا ويرى الحقد الحاد تحت استكانتهم. قال يوما لأحدهم: "اليوم أنت تتزلف إلي، وغدا تطلق الرصاص من الخلف علي".

كان الواشي يستثني يوما، ويدين في اليوم الاخر: متقلبا وغامضا. العديد ممن عرفوه قبلا، عندما كان في صفهم، ظنوا أن نهايتهم قد حلت عندما وجدوا أنفسهم مستجوبين أمامه، ولكنه كان يتظاهر بأنه لم يتعرف عليهم، والآخرون الذين ظنوا أنه رحيم بهم لأفضال لهم عليه مضت أو صداقات، رأوه ينظر اليهم نظرة وعيد وسخرية، متلاعبا بهم تلاعب القطة بالفأر. أحيانا يبدو الواشي لهم عازما على إراقة الدماء وأحيانا أخرى فريسة للندم. خلال التحقيق وقف أمام ميشيل وقال: " التقينا في مكان ما من قبل". نفض ميشيل رأسه الى الأعلى كما لو أن قطرة من ماء بارد انحدرت على ظهره ، وبنظرة متحيرة، تصنع تكشيرة جهل.

جلس دييغو على أرضية الرواق المكسوة بالآجر، يداه على ركبتيه. كان ميشيل الى جانبه ينظر الى خارج النافذة. كان ينتظر زوجته التي ذهبت الى لوسيانو، وهو مترجم

عند وحدات الدفاع الألمانية يعمل للجنة وقد تعهد بإخراجهما. كانت زوجة ميشيل أصغر من زوجها بكثير، طفلة عروسة. لها عينان واسعتان رماديتان كئيبتان، ولكن يوجد شيء ما صارم في وجهها، المؤطر بشعر ناعم أسود، وشيء بهيج بخصوص جسدها النحيف وثوبها القصير الأرجواني الفاتح. إن رؤيتها تجعلك تأسف لأن الحياة على ما هي عليه، مؤلمة وفاحشة، لا شيء فيها مستقر وهادئ. مع امرأة كتلك كان دييغو سيحب أن يتجول في البلدان المشمسة حيث لا يوجد ظلم. قال: ”إذا نجونا، حين ينتهي كل هذا، أريد العودة الى هذا الفندق لأسبوع، حين يفتح مرة أخرى للسواح“.
لم يجبه ميشيل. قال دييغو: ”سأتمدد على الأرضية هنا بالضبط حيث أنا الآن، وسط كل الناس المحترمين الذين سيظنون أني مجنون“.
استمر ميشيل بالنظر الى خارج النافذة، ولا يستدير. ثم استدار وبسرعة قال كما لو كان ما يفكر فيه سيهرب من ذهنه: ”دييغو إذا أردت أي خبز فإن زوجتي جلبت بعض الخبز، أعطته لجندي وهو سيعطينا بعضه“.
سأله دييغو: ” زوجتك أتت؟ هل هي تتكلم.....“
لم ينظر اليه ميشيل في العين، كان يحدق في السقف لحظتها: ”إصغ يا دييغو. لقد قضي علي. جنى علي الواشي. لوسيانو أخبر زوجتي. إنها في الأسفل تبكي“.
هذه كانت كلمات ميشيل وفي تلك الكلمات كمنت بساطة شيء خيف طويلا ولا يمكن تجنبه الآن.
أخذ ميشيل يذرع الرواق جيئة وذهابا، يداه في جيبيه، عيناه الواسعتان مختبئتان تحت رموشه الكثيفة. أحيانا يكلمه الآخرون ويحدق هو فيهم، مذهولا، كما لو أن عليه العودة من مسافة قصية ليركز على ما كانوا يقولونه. ربما كان يفكر في الفراغ لكي يهيئ نفسه لعدم الوجود.
تابع دييغو مشية ميشيل من حيث هو جالس، قلقا من أن يضع السجناء، وهم لا يدركون، نهاية لمشية الموت تلك، فكلمة واحدة من كلام الأحياء ربما تكون كافية لتجعل ميشيل فجأة متعلقا تعلقا يائسا بالحياة التي يعرف أنه فقدها. يعرف دييغو أن الرجل في الرواق كان يمشي نحو الموت، وأن الموت لا يبعد سوى ألف خطوة أو ألفين.
هذه كانت مسيرة ميشيل الجنائزية: إن هو إلا رجل ميت يخطو نحو قبره، على طول ذلك الرواق بزهور سقفه متقشرة الجص وآثار مرايا الحائط الحائلة فوق الرفوف الرخامية.
فيما كان دييغو يراقب ميشيل كان يتأمل فيه. ميشيل، وهو رفيق يدخل مرحلة الشيخوخة، كان رجلا طيبا، برغم أخطائه: ليس شجاعا جدا، ليس منسجما مع الحزب تماما. لطالما تشاجرا بشأن هوس ميشيل بإطلاق الشعارات، ورغبته في أن يكون على حق دائما، وإدعائه بأنه عصامي.
ميشيل يسير الآن على طول الرواق، يداه في جيبي معطفه، ورأسه الأصلع غاطس بين كتفيه، عيناه الواسعتان البليدتان ضائعتان في الفراغ، كما لو كان منذهلا لعظمة كل ذلك الذي على وشك أن يُسلب منه. كان روحا مسكينة في معطف عتيق، بلحية عمرها ثلاثة أيام، ولكن بدا أن دييغو يرى فيه، في تينك العينين البليدتين، في

هذه الصورة منشورة مع القصة الأصل

خطوه البطيء المستغرق، قوة مهدِّدة من قوى الطبيعة، بدا له أن ميشيل سيبقى يمشي هكذا حتى بعد موته، بدا له أنه في اليوم التالي سيدخل الغرفة حيث يستمتع الضباط الألمان بمجزرتهم، سيدخل عبر النافذة، ضخما غير أنه لا يزال مكسوا بمعطفه المثير للشفقة، ويداه في جيبيه، ورأسه الأصلع وعيونه البليدة ضائعة في الفراغ، وسيمشي بخطواته البطيئة بصمت تام، عبر غطاء المنضدة الملطخ ببقع الشمبانيا، عبر أشجار عيد الميلاد المزينة بالأضواء، والصلبان الحديدية اللامعة، والأثداء والأفخاذ العارية، نحو رعب الضباط الألمان وصراخ النساء، وسيستمر هكذا يذرع الأرض حتى بعد انتهاء الحرب. لن ينعم الأغنياء بأي سلام في بيوتهم، ولا بالبهجة في عوائلهم، إن لم يدخل هذا الرجل القصير، ولكن الضخم، خلال النوافذ وعبر غرفهم. على المناضد التي تقرر أمر الحرب والسلم حولها، وفي كل مكان أعيق فيه الناس، ودُمروا، وكُذب عليهم، وفي كل مكان لُقن فيه الزيف في المواعظ، وحيثما عُبد آلهة ظالمون، سيظهر دائما خيال رجل قتل في المرفأ ذلك المساء.

تحدث أحد السجناء عن رجال شنقهم الألمان فرأى دييغو ميشيل يتدلى من نقطة مصباح في المرفأ وبدا له أن كل الرجال حوله قتلوا ميشيل، كلهم، إنها لخطيئة لا نهاية لها تزيل كل بهجة من حياتهم، ويمكن أن يُكفر عنها فقط عند نهاية الزمن.

في التموجات حيث اختفى ميشيل في الماء، كل الذي طفا هو معطفه، وذراعاه ممدودتان

كصليب. رنّ الجرس في الطافية الحمراء وسط مياه المرفأ من أجل الرفيق الميت وهي تتهادى في الأمواج. ينتهي الحبل الضخم، الذي ثبتت فيه الطافية، تحت سطح الماء بأنشوطة ورقبة ميشيل داخلها. لكن رأس ميشيل بعدها عام الى السطح، أخضر مغطى بأعشاب البحر، وعيون محدقة، وأطلق صرخة.

الرجل العجوز المرتدي بدلة صيد نهض في الليل وبدأ يتبول، متأوها، يقف ضخما فوقهم كلهم. فاضت الأنهار، وغرق كل الرجال، خيرهم وشرهم. أجهزة الرجل العجوز التناسلية، التعبة من إنجاب كل الرجال، تغرق الكون الآن. الواشي فقط فر فوق الأرض، محاولا الهرب، يفرك يديه المتعرقتين، اللتين غطستا في الماء القذر لمراحض الفندق، ولكن كل تابوت حوى إنسانا ميتا، قتله هو، تجمع حوله وأغرقه في الفيضان.

تأخرت الشاحنة ذلك المساء وكل واحد تنفس الصعداء قائلين بأنها لن تأتي. إنتظر ميشيل وهو يراقب من خلال النافذة في الظلام المتجمع. بدلا من الشاحنة وصلت أربعة باصات سياحة يقودها جنود ألمان. حدث هياج، وتساؤلات، وتأملات مختلفة بين النزلاء. لم يمض وقت طويل حتى جاء رقيب مع قائمته ونادى بأسمائهم. واحدا بعد واحد، نودي بإسمي ميشيل وديبغو مع الآخرين، بالأسماء المزيفة التي أعطوها.

في الحقيقة أن الرقيب وقع في لخبطة عند قراءته لإسم ميشيل كأنه فعلا لم يفهمه أبدا. جُمع السجناء في أربع مجموعات ووضعوا في حافلة الواحد بعد الآخر. وجد ديبغو وميشيل نفسيهما معا مرة أخرى، لا زالا جزءا من الحشد، الذي كان كما لو أنه يشعر بالغيرة للظلم الذي حاق بالرفيقين. في الأصوات القلقة لهؤلاء الرجال، انبثقت كلمة لا يعلم من اين إلا الله: "ماراسي! ماراسي! إنهم يأخذوننا الى سجن ماراسي". لكن تلك الكلمة كانت بطريقة ما مصدر راحة لديبغو وميشيل فقد عنت أنهم مغادرون، مغادرون قلق العيش بجوار الموت. مغادرون الواشي وغموضه، مغادرون تلك الأماكن المألوفة العاجة بالفخاخ. شعر ديبغو بقماش معطف ميشيل الخشن تحت أصابعه، شعر بالدم يتدفق خلال شرايينه مرة أخرى. قال: "قلت لك أن لوسيانو يطلق أكاذيب. ألم أقل لك؟" وظل ميشيل يقول مرارا وتكرارا: " يا له من هرائي... إيه؟" بابتسامة هي الآن أكثر ارتخاء كما لو كان قد فهم النكتة أخيرا. وفهم الرفاق أي مصير، أي عنف، أي بكاء، أي استنزاف ينتظرهم. ومع أنهم نجوا من الموت إلا أنهم سيذوقون الطعم الدموي لأن يكونوا أحياء، طعم تقاسم الألم كالخبز. ستبقى الرائحة النفاذة للحياة معهم من الآن فصاعدا. في قنوات ماراسي الصارخة، في ثكنات الشمال الكئيبة، طوال الطريق الى أن يعودوا.

المصدر:

The newyorker, june 12. 2006 issue. Waiting for death in a hotel. By ItaloCalvino

• إيتالو كالفينو (1923 -1985) كاتب وناقد واستاذ جامعي وصحافي ايطالي معروف ترجم العديد من أعماله الى العربية من بينها ترجمة الشاعر ياسين طه حافظ لكتاب (مدن لا مرئية).

تتمة قصة (يأتي ولا يأتي)

د.سلام حربه

(سقطت سهوا هذه التتمة من قصة الكاتب والقاص المعروف د.سلام حرية التي نشرناها في العدد الماضي من مجلتنا، نعتذر لقرائنا وللزميل العزيز د.حربة)

في منتصف الليل ورموش عيني اطبقها نوم ثقيل لزج، الغرفة يضيئها فانوس اعشى.. طُرِقَ باب الغرفة.. فتحت الباب، كان مطلك يقف في باب الغرفة والقلق يفترسه بأسنان بيض تلمع رغم سواد الليل.. جلسنا على سريري.. بادر مطلك بالحديث بارتباك:

- استاذ جميل، هناك امر مبيت لنا، اشعر بالخطر يلتف حول اعناقنا كل لحظة.. حياتي وحياتك في خطر..

سألت بعد تفكير:

- وما المطلوب مني..؟

لم يجب مطلك.. اشعل سيكارة وسحب نفسا عميقا منها قال وهو يتأمل الليل البهيم خارج الغرفة..

- لقد طلب الشيخ فزع يد ابنتي زهرة، هو يعلم مسبقا اني لن اوافق..

- وماذا ستعمل.؟

التفت اليّ ودموع عميقة تتصاعد من داخل ظلمة عينيه ، فضحتها السيكارة النابتة بين شفتيه..

- رفضت طلبه، وحذرته الاقتراب منا.. اعتقد انهم يخططون امرا ما..

امسك مطلك بيدي، الدموع تتكسر على شواطىء حزنه..

- انت من سينقذني..

نطقت مصعوقا وبفزع..

- انا..؟

- نعم انت.. لا املك في هذه الدنيا الا ابنتي زهرة.. سينتقمون مني، انا لا اهتم لهم.. ما يقلقني ابنتي زهرة، قد يطالها أذاهم وانت الوحيد القادر على انقاذها..؟

- كيف..؟

- تزوجها، زهرة جميلة ومؤدبة ورفضت الاقتران بكل ابناء القرية الذين تقدموا لها، لا تريد العيش هنا.. تزوجها، رغم فارق السن، واهرب من القرية معها، هي لن تمانع، انها تودك وتحترمك كثيرا.. سينتقمون منك ايضا.. فزع وراضي شريران والويل لمن يقف في وجهيهما..

واصلت الحديث بعد التحديق في وجهه المتعب ..

- حسنا سأتزوجها رغم اني اخذت عهدا على نفسي ان لا اتزوج، انا اصبحت خلال سنين قليلة واحدا منكم.. زهرة فتاة

ناضجة استطيع تربيتها وجعلها امرأة متحضرة رائعة.. سأعلن في القرية غدا خطوبتي لها..

بعد اسبوع، وفي منتصف الليل، والهور يغفو ملء جفنيه بانتظار صباح يمسد خصل القصب الخضر ويخفف من عتمة الماء ويوقظ السمك المتعب من مطاردة صيادين له طيلة النهار، اختلطت انفاسي برائحة دخان ثقيلة وحرارة قريبة تلسع جسدي.. فتحت عيني، كانت الغرفة مشتعلة وشهب القصب المشتعل تتساقط على راسي وفراشي، نجوت من النار بأعجوبة، كان شباب القرية يملؤون الجرادل بماء الهور لإطفاء صف المدرسة الذي تحول الى كومة رماد والنار اتت على كتبي وحاجياتي، لم يبق لي سوى دشداشة النوم التي ارتدي.. هرولت حافي القدمين نحو بيت مطلك الذي تأكله اسنان النار بشراهة، رغم محاولة الرجال لإنقاذ ما يمكن انقاذه، ألسنة اللهب الطويلة ترسل صرخاتها الماجنة المتوعدة واعمدة دخان تشربها سماء لم تفق من نومها بعد، نيران اضاءت جثة مطلك وهي تطفو على سطح الهور والدم الاحمر يلون اذيال الماء الملامس لأسماله الطافية.. من بعيد، ومن وراء اجمات القصب، كانت صرخات زهرة وهي تمزق لا مبالاة الليل الذي هتك بكارتها، توقفت عند حافة الهور وقد تيبست قدماي واختلط عندي صراخ زهرة بأصوات قضم القصب في فم النار الشره، لم انتبه الا متأخرا واطلاقات الرصاص تحتك بقربي وبين قدمي وفوق رأسي، التفت الى الرابية كانت الاطلاقات تأتيني من هناك، المسلحان وضعاني هدفا في ميدان للتصويب، رميت نفسي في الهور وسبحت مسافة طويلة وفي اتجاه لا اعرف بوصلته، كل ما اعرفه الان انني جالس بين اعواد القصب، منذ زمن لا اعرف كم هو، ارتجف من الموت والخوف والبرد، وخصلة شعري المفروكة برغوة طينية تغطي نصف وجهي، انظر في الافق الغائم بانتظار الذي يأتي لينقذني..

(على اساس الجنس).. صراع المرأة من أجل المساواة

نزار عبد الغفار السامرائي

لم تصل المرأة في المجتمع الغربي الى ما وصلت اليه بسهولة، فكان عليها ان تناضل وتقاتل لتحصيل حقوقها كاملة والوقوف على حد سواء مع الرجل، والخروج من هيمنة المجتمع الذكوري الذي يرى في المرأة مجرد تابع عليه الاعتناء بالمنزل وتربية الاطفال، مع الاعتماد على الزوج في توفير ما تحتاجه من مادة.

وفيلم (On the Basis of Sex على اساس الجنس) هو واحد من الافلام التي تتناول نضال المرأة في مسيرة المساواة والحرية، وتبيان قدرتها على تقلد المناصب والاعمال المختلفة أسوة بالرجل، عبر عرض سيرة احدى أولاء النساء اللاتي استطعن مواجهة النظم الاجتماعية القائمة والوقوف بوجه القوانين وصولا الى تعديل الدستور من اجل فسح المجال امام النساء لإعلان مساواتهن بشكل كامل مع الرجال امام القانون.

والمرأة التي يتناول سيرتها الفيلم هي الامريكية روث بادر جينسبيرغ التي استطاعت ان تكون قاضية في المحكمة العليا، وهو موقع كان مقتصرا على الرجال.

انضمت جينسبيرغ الى كلية القانون في جامعة هارفارد ضمن تسع نساء فقط، ولكن في السنة الاولى من الدراسة يصاب زوجها (الطالب في المرحلة الثانية) بالسرطان فتضطر ان تحضر دروسه اضافة الى دروسها في تحدٍ للمرض ومن اجل ان يستمر زوجها المجتهد في دراسته وهو ما يحصل حيث يتخرج بتفوق لكنه يضطر للانتقال الى نيويورك للعمل وتضطر زوجته للانتقال معه، وهذا يجعلها امام مشكلة جديدة حيث يرفض عميد جامعة هارفارد ان تكمل دروسها في جامعة كولومبيا في نيويورك مما يضطرها الى ترك الدراسة في هارفارد وتسجل في كولومبيا، لتتخرج ولكن دون عمل لأن شركات المحاماة لا تفضل تشغيل النساء كمحاميات. وامام الحاجة تعمل مدرسة لقضايا "التمييز على أساس الجنس والقانون" حتى تصادف قضية تتعلق بشخص يعتني بوالدته المقعدة لكن الضريبة ترفض عمل اعفاءات له على اساس ان مثل هذا الامر يخص النساء.

تتبنى روث القضية وتسعى امام صعوبات جمة الى اعادة النظر فيها امام المحكمة العليا

حيث تجد في هذا القضية فرصة للطعن في العديد من القوانين التي تفترض أن الرجال يعملون على توفير الرعاية للأسرة، لتبقى المرأة في المنزل للعناية بالزوج والأطفال. وترى روث ان الوصول الى الطعن في قرار الضريبة بشأن موكلها الرجل وانه يتعرض للتمييز غير العادل على أساس الجنس، فيمكنها لاحقا الطعن في القوانين التي تميز ضد المرأة، غير انها لم تجد من يساندها سوى زوجها الذي يضع مستقبله رهن القضية، والمفاجأة ان تكون في المحكمة امام عميد كليتها في هارفارد والذي تستعين به وزارة الخزانة الامريكية لمواجهة القضية.. تستطيع جينسبرغ ان تكسب الرهان وتبدأ سلسلة من التعديلات على القوانين لتصل في النهاية الى ان تكون عضوا في المحكمة العليا مسجلة علامة بارزة في مسيرة المرأة نحو المساواة .

عرض فيلم (On the Basis of Sex) لأول مرة في مهرجان AFI في ٨ تشرين الثاني ٢٠١٨، وتم عرضه في الولايات المتحدة في ٢٥ كانون الاول ٢٠١٨، وهو من اخراج ميمي ليدر، وبطولة فيليسيتي جونز في دور غينسبرغ، مع أرمي هامر، جوستين ثيروكس، جاك رينور، كايل سباييني، سام ووترستون، وكاثي بيتس.

مطبوعات وصلتنا :

• د.علي حسين مهدي ..حدود السلطة التنفيذية في النظام البرلماني.. دراسة /2017 ..بغداد - دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع.

• ناظم السعود ..المدونة الحادية عشرة .. اقتباسات من كتاباتي الصحفية ..منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق 2018 . دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع .

• رحيم زاير الغانم .. لطفاً .. كن وطناً ..(شعر) .. دار الصواف 2018 .

• جاسم عاصي .. لكي لا تنكسر مساحة البياض .. منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق 2018. دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع .

• رسمية محيبس .. شغب أنثوي .. منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق 2018. دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع .

• محمد جبير.. الرواية الاستقصائية .. تأصيل المصطلح وتطبيقاته"سعد محمد رحيم أنموذجاً" . اصدار دار فضاءات الفن للنشر والتوزيع 2018.

• عدنان أبو أندلس ..عابرو الحياة الرخيصة..دراسة نقدية /بغداد 2014.

• عدنان أبو أندلس .. التأصيل التأثيري في شاعر وقصيدة بغداد 2018.

• عبد الرحمن فليفل.. بشار.. الطائر المصلوب.. مطابع شركة نورس بغداد للطباعة 2014.

• ابتهال بلبيل .. جسدها في الحمام .. نصوص .

• ناهي العامري ..نذير الدرويش .. رواية ..دار امل الجديدة /سورية .